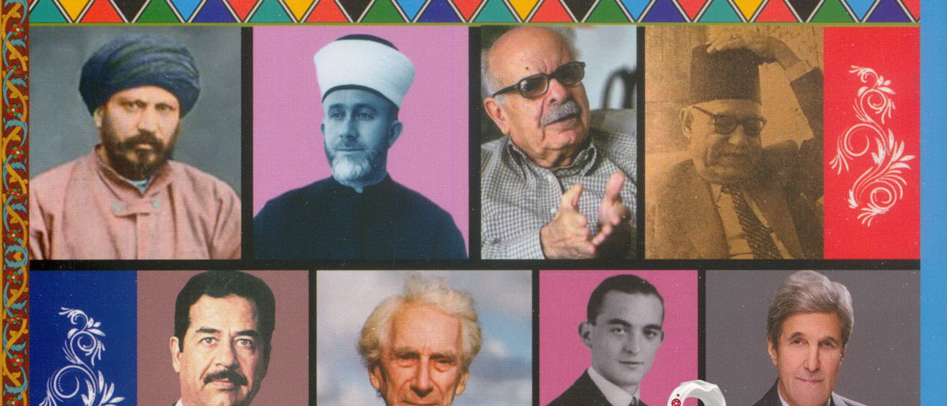
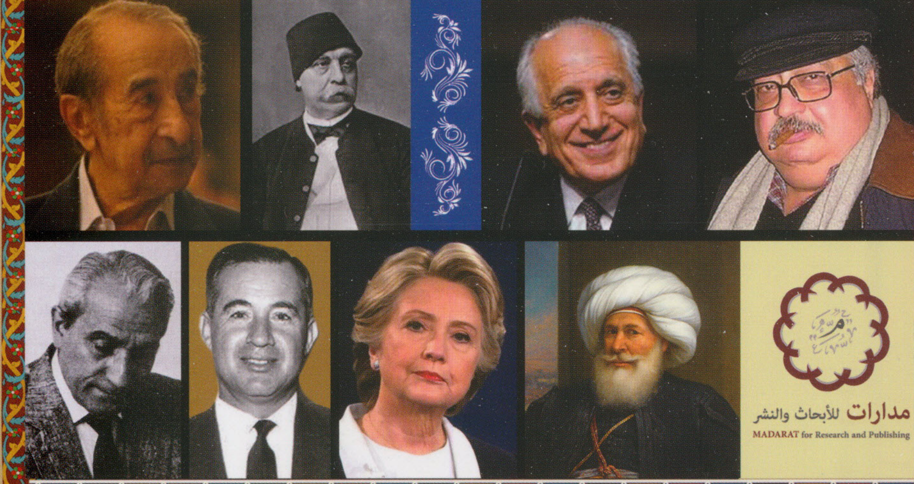


محمد عبد العزيز الهجين

الأُنسُ بالرَّاحِلين

أمسيات مع السِّير الذاتية





محمد عبـد العزيـز الهجيـن

الأُنـسِ بالرَّاحِليْن

أمسيـــات مع السِّيــر الذاتيـــة



الأُنسُ بالرَّاحِلينَ

أمسيـــات مع السِّيـــر الذاتيـــة

محمد عبد العزيز الهجين

- باحث مهتمٌّ بالتاريخ والسير الذاتية.
- تخرَّج في كلية الآداب – قسم التاريخ.
- حاصل على درجة الماجستير.
- صدر له: **مودَّة الغرباء: حكايات من السِّير الذاتية والمذكرات.**

الأنس بالراحلين

أمسيات مع السير الذاتية

محمد عبد العزيز الهجين

الأنس بالراحلين: أمسيات مع السير الذاتية

محمد عبد العزيز الهجين

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢١/٣٠٩٣٥

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-48-9

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٢م - جمادى الآخر ١٤٤٣هـ

مدارات للأبحاث والنشر

٥ش ابن سندر- الزيتون- القاهرة - جمهورية مصر العربية

٢ /١/ ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠

info@madarat-rp.com

Facebook.com/madaratrp



وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ
صدق الله العظيم
العنكبوت: ٦٩

المحتويات

المقدمة

«أيّة حياة مهما كانت تافهة ستكون ممتعة إذا رُويت بصدق»[1]

- كولردج.

هذه أوراق من سيرتي كقارئ، وحكايتي مع المذكّرات؛ عشت مع هذه الشخصيات في غُربتي، وفررتُ من الواقع شطرَ عالم الخيال؛ مصغيًا لهذه التجارب؛ محاولًا من خلالها أن أفهم التاريخ عبر الدروس التي تقدمها، لكن وراء ذلك غاية أخرى؛ هي البحث عن دروس عملية تصلُح لحياتي؛ كيف عاشوا؟ وكيف واجهوا صروف الحياة وأقدارهم؟ كانت هذه القراءات تُقوّي عزمي، وتشدُّ من أزري، وتعلّمني الكثير عن التحمل والصبر.

في هذا الكتاب تجد شخصيات متنوعة من القادة والسياسيين؛ مثل: هيلاري كلينتون، وزلماي خليل زاد، ونوبار باشا، وأحمد حسين، وتجد حكايات الناشرين؛ مثل: رياض الريِّس، ومحمد سعيد محمدية؛ صاحب دار العودة، وتستمتع مع حكايا الصحفيين؛ مثل: حمدي قنديل، وتتقلّب في أحداث التاريخ مع الروائي قربان سعيد، وتعيش أحوال القضية الفلسطينية مع أنيس صايغ، وتشجو بحكايا الدراما التلفزيونية مع الكاتب وليد سيف. وهكذا يتضمّن هذا الكتاب تنويعةً من الشخصيات ذات

(١) أفدتُ هذا الاقتباس من كتاب عبروا النهر مرتين لحسين بافقيه؛ وهو كتاب رائع في استعراضه الكثير من السِّير الذاتية والمذكرات.

التوجهات المختلفة؛ نخلتُ لك سيرهم الذاتية على مدار عامين؛ لتكون مسلية ومفيدة، وتشجِّعك على التعرف على هذا العالم الغني.

هـذه الفصـول بسـتانٌ مختلفٌ أشـكالُه مـن النباتـات والـورود، ومن الشـخصيات مـن مُختلـف المشـارب والتوجهـات؛ كانـت أُنسًـا لـي في حياتي، عندما أعود من العمل بالمكتبة، وأسهر مع حكاية شخص يحكي عـن عمـره؛ فتكون دواءً ومسـكِّنًا من معانـاة الحياة، وأنت تـرى كفاحاته والصعوبات التي عاشـها. أي إنها كانت عزاء عن كل متاعبي الشـخصية؛ خصوصًا مع قسوة إسطنبول؛ تلك المدينة المليونية التي يُحشر الناس في قطار الأنفاق فيها كالسردين، ونمط حياتها السريع. كنتُ كمن يبحث عن الهـدوء والطمأنينـة فـي حيـاة الكتـب؛ لذلـك كنـت أغـرق فـي التاريخ، وقصص هذه الشخصيات.

جعلـتُ الكتاب منوَّعًا؛ لكي لا يسـأم منه القـارئ، ويقرأ من أي فصل شـاء؛ وقانـون الكتاب هو الفوضى الخلَّاقة؛ ومنهجـي هو أن يتفتح وعي القـارئ على قصص وحكايات من تاريخنا السياسـي والثقافي من خلال ذكريـات أصحابهـا؛ وهكذا تكون تلـك الذكريات أكثر إنسـانية وجمالًا، وهي مطعَّمة بالحوادث الشخصية وتجارب البشر، وأعمار الناس.

وهـذا الكتـاب اسـتكمالٌ لكتابـي الأول: **مـودة الغربـاء؛ حكايات من السـير الذاتية والمذكرات**؛ الذي حكيت فيه عن العديد من الشـخصيات. هذا الكتاب فيه من رُوح **ألف ليلة وليلة**؛ أي إن الكتب التي قرأتُها، وكتبتُ عنها كانت في الليل، كانت لي كشهرزاد التي تحكي لي الحكايات؛ حتى أفلت من السأم والملل، ولقتل الوقت، عشتُ مع الشخصيات بمشاعري وفكري.

(١) ذكرى عهود: سيرة جديدة للزيّات بعد اثنين وخمسين عامًا من وفاته

فرحت بصدور كتاب ذكرى عهود: **أشلاء سيرة ذاتية**، للأديب الكبير أحمد حسن الزيات؛ الذي حرره وأعاد بناءه د. عبد الرحمن قائد، وحرصت على أن أحصل عليه؛ فلبّى هذه الأمنية صديق أعتز به وأرسلها لي، وبرغم عملي بين الكتب إلا أن الحصول على كتاب جديد يصيبني بفرحة عارمة.

أخذتُ أقرأ هذه السيرة الجميلة، وقرأتُ مقدمة عبد الرحمن قائد، وسعِدت بهذا الجهد المعرفي الذي قام به؛ لقد جمع قائد ذكريات الزيات في مختلَف عهود حياته من كتبه، ومن المجلات التي كان ينشر فيها مقالاته، وفي **ذكرى عهود** مقالاتٌ تُنشَر اليوم أوّل مرّة في كتاب، وكانت مطويّة من قبلُ في زوايا الصُّحف والكتب والمجلات، ورتّبها قائد على مراحل عمره؛ لننتقل معه من الطفولة والصبا، إلى الشباب، ثم الكهولة، وننتهي عند الشيخوخة. ولم يكتفِ قائد بجمع الفصول التي يروي فيها الزيات من سيرته؛ بل نقل إلينا الفصول التي كتبها الزيات عن الشخصيات التي عرفها والتقاها؛ لأن الزيات كتب فأكثرَ عن أعلام عصره في مجلته **الرسالة**.

فسّر عبد الرحمن قائد ما غمض من الألفاظ والتراكيب مما لم يفسّره الزيات في الحواشي، وتأثرت بالدافع الذي حكاه في مقدمة الكتاب؛

فهو يوضح أن دافعه لإخراج هذا الكتاب هو «صلةً لرحم الأدب، وبرًّا بآله؛ نهضتُ لتحقيق أمنية الزيات هذه التي ظلَّ يتمنَّاها نحو أربعة عقود (١٩٢٨- ١٩٦٨)».

هذا الوفاء لتراث الزيات، والنية الحسنة، والخُلق الجميل من عبد الرحمن قائد؛ جعله يجمع لنا كتابًا بعنوان **ذكرى عهود**؛ وهي التسمية التي أعلن الزيات أنه ينوي أن ينشر بها سيرته في مقالاته، وهكذا قدم لنا هدية نشكره عليها، وأضاف لرفِّ السِّير الذاتية العربية كتابًا يُوضَع مع **أيام** طه حسين ومجايليه من هذا العصر؛ وهو نصٌّ من النصوص البليغة المعاصرة، وهذه هي هديته الثانية للقراء بعد أن أخرج كتابًا بعنوان **مقدمات العقاد**؛ وهو كتاب يستحق الاحتفاء به والحديث عنه، وهو فرصة لمراجعة تراث العقاد وكتاباته.

وُلد أديبنا أحمد حسن الزيات في سنة ١٨٨٥، في محافظة الدقهلية في مصر، وتساعدنا السيرة على فهم مراحل حياة هذا الأديب الذي اقترن اسمه بواحدة من أهم المجلات الثقافية **مجلة الرسالة**.

تبدأ المذكرات بفصل عن عهد الطفولة؛ نرى الزيَّات يستعيد فيها الحديث عن حياته في القرية، ويصف قريته قبل ستين سنة، وينقل لنا صورة بليغة من ذاكرته، ونكتشف عند قراءة الكتاب أن عينَ الزيات عينُ باحث اجتماعي يلتقط التفاصيل الصغيرة، التي تهمُّ الباحث الأنثروبولوجي؛ فهو يصور لنا حفلات الأعراس في الريف وطقوسها، ويستعيد ذكرى العيد في القرية، ويقارن القرية بين الأمس واليوم، وعن وضع القرية عند وصول وباء الكوليرا لها عام ١٩٠٢، وعن أول حب في

حياته وموتها بالكوليرا، وننظر للقرية عند لحظات فيضان النيل قبل السد العالي، ويرسم بقلمه صورة ليوم شمِّ النسيم وليالي الحصاد، وهكذا يصف لنا الزيَّات حياة القرية التي وُلد فيها وترعرع وصفًا آسرًا.

تنتقل المذكرات بعد ذلك لعهد الصبا؛ وهو من أمتع الفصول في الكتاب؛ وفي هذا الفصل نجد بداية معرفة الزيات بالأدب؛ فبعد أن حفظ القرآن، اشترى والده كتبًا تكون مُؤنسةً لهم في سهرات الليل؛ مثل **قصة سيف بن ذي يزن**، و**سيرة عنترة بن شداد**، و**ألف ليلة وليلة**، و**كليلة ودمنه**. وانعقد السامر لسماع المختار منها؛ كان مجلس الزيات، وهو فتًى مراهق، بجانب الفانوس الذي يقرأ الشيخ منصور على ضوئه؛ فكان يرى كيف يصور القارئ العواطف على قسمات وجهه، ويمثل المواقف بنبرات صوته؛ فيهتز لحماسة الأداء، ويطرب لطلاوة العبارة، ويلتذُّ من جاذبية القصة، ثم إن والده أهداه **ديوان المتنبي**؛ فكان أول كتاب يقتنيه، وأول شاعر يُحبه.

ثم نراه في الأزهر يحكي لنا كيف عرف الشيخ محمد محمود الشنقيطي، في أوائل القرن الفائت؛ غلامًا ناشئًا يهوى الأدب، ويحفظ الشعر، ويُعالج القَريض؛ يجلس في الرواق العباسي بالأزهر، وكان على خلاف الأزهريين في ذلك العهد؛ يقرأ الصحف، ويغشى الأندية، ويتابع المعارك الأدبية في **الضياء** لليازجي، و**المؤيَّد** لعلي يوسف.

بعد أن يصف لنا الشيخ الشنقيطي، ننتقل معه لقراءة هاجسه في هذه الفترة؛ قدمٌ في الأزهر، وقدمٌ في الصحافة، والزيات ورفاقه طه حسين ومحمود الزناتي يفكرون في أسلوب للكتابة يُباين كتابة الأزهريين؛ كان

هؤلاء الفتية يُطلُّون على العصر الجديد من نوافذ الصحف، ويقفون على البرزخ الممدود بين دنيا الأزهر ودنيا الناس؛ كان أستاذهم سيد بن علي المرصفي يطبعهم على النظم على غرار **الحماسة**، وفي النثر على غرار كتاب **الكامل**، ويزين لهم أن ينظموا معلَّقة كطَرَفة، وعلى الناحية الأخرى كانوا يفكرون في كتابة تحكي عن الحال الحاضرة، وواقعهم الذي شعروا أن الصحف تُعبِّر عنه.

تشرح المذكرات هذه الصداقة بين الزيات وطه حسين ومحمود الزناتي في الأزهر وكيف تعارفوا، وعن صفات كل شخصية فيهم بقلم الزيات البديع، وعن عشقهم للكتب، وكانت الكتبخانة المصرية (دار الكتب) هي مكتبتهم العربية، التي يتعلمون منها، ثم انصرف الزيات وطه حسين بعدها لتعلُّم الفرنسية.

تتيح لنا ذكريات الزيات تخيُّل حالة الأزهر في ذلك الوقت، وكم تمنيتُ أن تُجمَع ذكريات من عاش في الأزهر في عهود مختلفة؛ لتخرج كتابًا يُؤرِّخ للأزهر بقلم من تعلَّم فيه؛ ستجد وصفًا للأزهر عند طه حسين في **الأيام**، ولدى أحمد أمين في سيرته **حياتي**، وعند سليمان فيَّاض في **أيام مجاور**، وعند محمد البهي في كتابه **حياتي في رحاب الأزهر**؛ سيرة للمكان من خلال أجيال مختلفة.

ترصد المذكرات لحظة ظهور المنفلوطي؛ عندما أشرق أسلوبه على صفحات صحيفة **المؤيَّد**، وإعجاب القراء بهذا الفن العجيب، وترقُّب هؤلاء الفتية الأزهريين صحيفة **المؤيَّد** كل خميس؛ ليقرؤوا مقال المنفلوطي؛ وطه حسين مُرهِفُ أذنيه، وزناتي مُسبِلُ عينيه، والزيات

مأخوذٌ بروعة الأسلوب، وكلهم يودون لو يتعرفون على هذا المنفلوطي؛ إلى أن ترجم الزيات رواية **آلام فرتر** عام ١٩٢٠، وكان المنفلوطي صاحب **العَبرات** يومئذٍ بلغ الغاية في الشهرة، وبلُغة أيامنا كانت كتب المنفلوطي من الكتب الأكثر مبيعًا في العشرينيات، وطلب المنفلوطي لقاء الزيات، ويرسم لنا الزيات وصفًا ممتعًا لهذه الشخصية.

تستمر المذكرات بالسير بنا لمعرفة تفاصيل حياة الزيات؛ نراه في قاعة الدرس يعلم التلاميذ، ويصف أول درس ألقاه على مسامعهم، والرهبة التي شعر بها في بداية عمله مدرسًا في مدرسة الفرير بالخرنفش عام ١٩٠٧، وبقي فيها إلى سنة ١٩١٤، وعن تجاربه في تدريس اللغة العربية، ثم مشاعره فيما هو وَجِلٌ من أن يعتقله الإنجليز في فترة ثورة ١٩١٩، وهو يجلس مع أحد قادة التمرُّد يوسف الجندي، وعن إخفاء الزيات المسدس الذي يحمله صديقه في القُفْطان الأزهري ذي الجيوب الخفيَّة، ونجاتهما من القبض عليهما؛ بفضل هذا القفطان المبارك. وكان نصيب الزيات من المشاركة في ثورة ١٩١٩ مراجعة المنشورات السرية، وتحرير الخطب العلنية لمَن يلقيها.

وفي بعض الأحيان أفكر في حياة القرية، وأخاف أن يكون جدي قد شعر بالملل من هذه الحياة، أقرأ فقرة من مقال الزيات عن الحصاد؛ فيعيد لي جو القرية، يقول الزيات:

> «ذلك في ليلة بين أواخر ماي وأوائل جوان والزرع قد استُحْصِدَ، وتهالك بعضُه على بعض من الذُّبُول واليُبْس؛ فلم يعد يقوى على حمل سُنبله. وكان الحاصدون والحاصدات قد خرجوا عشاءً إلى الحقول الذهبية، وفي أيديهم المناجل، وعلى أكتافهم

الأرديـة؛ وهـم يُوقعـون علـى الطـرق العشـيبة أهازيـجَ الجَـذَل والأمـل، فباتت القربة هامدةً؛ كأنمـا ضرب على آذانها الموت؛ فلا تسمع سامرًا على مصطبة، ولا نابحًا على تلٍّ؛ فأخذني منها مـا يأخذ السـائر الوحيد مـن الغابة الكثيفة أو المقبرة الفسـيحة؛ فخرجت أنشد الفرجة والأنس في حقل من حقولنا القريبة.

فلمـا غمرني ليل الحقول، وملكَني سـلطان الطبيعة، أحسسـتُ في قلبي دنيا جديدة لم أحسَّـها من قبلُ في نهار الناس، ولا في ليالي القرية! فقد كان القمر حينئذٍ في أوله يُرسـل أضواءه اللينة الرخية كإشـعاع الحلم؛ شـاحبةً كإسـفار الأمل، فيلـون الغيطان والغُـدران والطـرق بلون الفضة الكابية، وتسـمع الجنادب تَصِرُّ في هشيم البرسيم، والضفادع تَنُقُّ على حفافي الترع، والسواقي تنوح على رءوس الزروع، والحاصدات يغنين في مزارع القمح، وطيـور المسـاء تُنغِّم في أعالـي الدوح، وكلاب الحراسـة تنبَح علـى أطـراف البيـادر؛ فيكـون مـن كل أولئك إيقـاعُ موسـيقى عجيبة؛ تبعث الرَّوعة في النفس، وتُلقي الشعر على الخاطر».

يشـرح الزيـات لماذا ترجـم **آلام فرتر** لجوته، ونزعته الرومانسـية التي وجَّهته لهذا النوع الأدبي، وترجمته **رفائيل** للأديب الفرنسي لامارتين، ثم ننتقـل معـه لنتعرف علـى ذكرياته في باريس التي سـافر إليها عام ١٩٢٥؛ ليؤدي امتحان الحقوق، وليحصل على الليسـانس من جامعة باريس، ثم نرتحـل معـه إلـى العراق؛ حيث سـافر إلـى بغـداد للتدريس بهـا، ونُطالع ذكرياتـه فيهـا، ويكتـب الزيـات عـن أول الأشـخاص الذيـن التقاهـم في العراق الشـاعر جميل صدقي الزهاوي، وعن شـكوى الزهاوي المتكررة

من جحود الأمة، وإغفال الدولة وكيد الخصوم، وإلحاح المرض، وكانت مواضيع الزهاوي في كل لقاء مع الزيات لا تخرج عن أحاديث الأنا.

تساعدنا تلك المقالات التي يسرد فيها الزيات ذكرياته في العراق على معرفة الشخصيات المرموقة التي التقى بها، واتصال أسبابه بالقصر الملكي في العراق، ونراه يصف صيف العراق وصفًا يشعرك بالقَيظ، وينقل إليك الشعور بالاختناق والرطوبة، كما نراه يصف مساءات النزهة على شاطئ دجلة، وهو يتعجب كيف ازدهرت حضارة العباسيين في هذا القَيْظ الطويل، واستبحر عُمرانهم في هذا الخمود الملازم للحر.

لا تكتفي المقالات بذكر أحاديث العراق السياسية؛ بل نقرأ عن قصة غرامية للزيات مع نورا الفتاة العراقية، في وصف مسهبٍ؛ يرقُّ فيه قلم الزيات، وتشبُّ عاطفته؛ ليصف بأسلوبه الأخَّاذ هذا الحب الرومانسي الذي كان مؤنسًا له في ليالي بغداد، ولا ينسى أن يخبرنا أنه يسهر على دجلة؛ يأكل السمك المسقوف، ويتفكَّه بالبطيخ المبرِّد، ثم يقضي العشية في زورق يهدهده ساعة أو ساعتين على ظهر النهر الخالد، وقضى في هذه العلاقة العاطفية التي يسميها نشوة صوفية أحد عشر شهرًا؛ لا يسأل القَدرَ المقدور متى يفيق منها، ولا كيف ينصرف عنها، ثم نُفجَع في نهاية الفصل بقصة فقدان الزيات كتابه «العراق كما رأيته»؛ الذي كتبه عن سنواته في العراق، وعن ضياع كتابه، وعن الحزن الشديد الذي أصابه بضياع هذا الكتاب العزيز عليه.

كلما مررتُ على صفحات الكتاب اقتربتُ من حياة الزيات أكثر؛ ترى رثاءه لابنه رجاء، وحزنه عليه، وقد توفي طفلًا، ثم حديثه عن أثر ظهور

الراديـو واختفـاء الشـاعر والقَصَّـاص مـن المجالس، وعن الحـزن الذي أصابه بعد حرب ٤٨، وتوقفه عن الكتابة، وعن شعوره بالاكتئاب؛ بسبب الوضع في فلسطين.

تلتقـط المذكـرات لحظة تفكير الزيات في إنشـاء المجلـة الأدبية التي أسماها **الرسالة** بعد عودته من العراق، ودعوته لطه حسين أن يشاركه هذا المشـروع، واعتذار طه حسين بأسباب يشرحها في الكتاب، وعن الإقبال الـذي حـدث على **مجلة الرسـالة**؛ حتـى إن مصطفى أميـن عندما عاد من جولـة طويلة في البلاد العربية، قال: «لو أغلقت الحكومة المصرية عشـر سفارات، وأبقت **مجلة الرسالة**؛ لكان خيرًا لها وللعرب!».

قضـى الزيـات قُرابـة ثُلث عمـره في إدارة هـذه المجلـة المهمة؛ حتى وصلت أعدادها إلى عشرين مجلدًا ضخمًا، ويحكي لنا وديع فلسطين أن الزيـات كان يقضـي يومًـا كامـلًا في الاعتكاف متى شـرع فـي كتابة مقاله الافتتاحي لمجلة الرسالة؛ يكتبه وينقحه، ويتأنَّق فيه، ثم احتجبت **الرسالة** بعد عشـرين عامًا كانت فيها ملء السـمع والبصر، ودارت على صفحاتها أشـهر المعارك الأدبية، ولم يكن من عادة الزيات المشـاركة في المعارك الأدبية، ويشرح الزيات في المذكرات ظروف إغلاق المجلة؛ مثل تخلي الدولة عن الاشتراكات التي كانت تدعم مالية المجلة، وملاحقة الضرائب لـه، ويضيـف الكاتب وديع فلسـطين أن ضياع فلسـطين فـي ١٩٤٨ أفقد المجلة نصف قرائها، والسبب الآخر في رأيي تغيُّر الجو الأدبي بعد ثورة يوليو؛ لقد تغيَّر العهد السياسي، ولحق به الجو الثقافي، وانتشرت جُرثومة فـي دنيا الثقافة أصابت المجـلات الأدبية بالخمول والإغلاق؛ مثل **مجلة المقتطـف**، و**الكاتـب المصـري**، و**الثقافـة**. حاولت **الرسـالة** أن تعود عام

١٩٦٣، لكن المشروع لم يستمرَّ؛ حيث أصبحت جزءًا من الدولة، واختلف الجيل الذي شارك فيها في المرحلة الأولى، وتولى الزيات رئاسة تحرير **مجلة الأزهر** قبيل وفاته.

عندما انتهيت من هذا السِّفر الجميل والرحلة الممتعة مع حياة الزيات متنقلًا بين عهود وذكريات مختلفة؛ شعرت أنني انتقلتُ بالزمن لعالم الزيات وعصره، لقد استطاعت هذه السيرة؛ بفضل جامِعها ومنسِّقها د. عبد الرحمن قائد - القبض على روح عصر الزيات، والتعرف على رجاله الذين صادقهم؛ مثل أحمد شوقي، والمازني، والعقاد، وعلي محمود طه، وعاتكة الخزرجي، وغيرهم. كل هؤلاء بُعثوا من جديد بعد وفاة الزيات باثنين وخمسين سنة في هذه السيرة، ثم تمنيتُ أن أرى سيرًا ذاتية على نفس الشاكلة من تراث كتبه المؤلفون عن حياتهم في الصحف والمجلات والحوارات، تُجمع وتُنشر؛ حتى تسعفنا تلك النصوص في فهم تجربتهم والاستفادة منها.

أختم بوصف الزيات لعلاقته بطه حسين ومحمود الزناتي، وهم طلاب في الأزهر.. وصف جميلٌ وممتعٌ كتبه في رثاء الزناتي رحمه الله:

> «كنا ثلاثةً ألَّفت بيننا وحدةُ الطبع والهوى والسن؛ فالطبع مَرِح فَكِه، والهوى دَرْس الأدب وقَرْض الشعر، والسنُّ فتيةٌ لا تجاوز السادسة عشرة. وكان طه قاعدةَ المثلث، ومحمود وأنا ضلعيه القائمتين، أو كان المبرِّد صاحب **الكامل** قلب الطائر، والزمخشري صاحب **الكشَّاف**، وثعلب صاحب **الفصيح**، جناحيه الخافقين، وتلك كانت ألقابنا على الترتيب؛ لقَّب بها بعضنا بعضًا؛ لنزعة فكرية أو فنية كان ينزعها كلٌّ منا في نظر

أخويه. ووجه الشبه بيننا، وبين المثلث أن وجودنا كان كوجوده؛ لا يُتصوَّر في الذهن، ولا في الخارج إلا بأضلاعه الثلاث على أيِّ شكلٍ يكون، وأما وجه الشبه بيننا وبين الطائر؛ فإن حياتنا كانت كحياته؛ تَرَدُّدٌ إلى كل روضة، وتغريدٌ على كل شجرة، وتحليقٌ في كل جو. كنا نتنقل من حلقة العلم إلى درس الأدب، ومن درس الأدب إلى مجلس الشعر، ومن مجلس الشعر إلى دار الكتب، ومن دار الكتب إلى الجامعة المصرية القديمة، ومن الجامعة إلى إدارات الصحف؛ نعرض عليها ما كُنَّا نسميه يومئذٍ شعرًا؛ ثم ننتهي إلى دار أحدنا؛ فنتدارس ما حصَّلنا من علم، ونتذاكر ما حفظنا من أدب، ونتنادر بما سمعنا أو رأينا من سُخف؛ فإذا أخطأنا أو نسينا لجأنا إلى ذاكرة طه العجيبة؛ فتُعيد ما وعت لا تخرِم منه حرفًا؛ فنُصحِّح، أو نستكمل، أو نستفيد. وإذا سئمنا أو ونينا فزِعنا إلى حافظة محمود الخصيبة؛ فيُسرِّي عن خواطرنا بمقطَّعات من أعذب النوادر يحكيها عن نفسه، أو يرويها عن أبيه، أو ينقلها عن حياته؛ وزناتي مُحدِّثٌ طليق اللسان، مُتفنِّن الحديث؛ تسمع منه النادرة عشرين مرة وكأنك لم تسمعها من قبل؛ لجمال عرضه، وجاذبية أسلوبه. ثم كان الطائر بقلبه النابض بالأمل والحب، وبجناحيه الخافقين بالخيال والنشوة».

(٢) محمد علي وكل رجال الباشا

«أنا الآن أهمُّ رجل في الدولة العثمانية كلها... فقد أعدتُ المدينتين المقدستين (مكة والمدينة)، وأرسلتُ جيوشي المنتصرة إلى مناطق لم تعرف من قبلُ سُلطة السلطان الأعظم، وسأنتزع باشويَّتَي دمشق وعكا، وسوف أُكوِّن جيشًا عظيمًا، ولن أتوقفَ إلا عند دجلة والفُرات».

- محمد علي في حديث صريح مع أحد مستشاريه الفرنسيين.

عندما تُطالع كتاب **كل رجال الباشا: محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة**، للمؤرخ خالد فهمي؛ تُلفي فهمي وكأنه يسعى سعيًا حثيثًا في نقض غزل التاريخ القومي المصري الذي نسجه المؤرخون التقليديون؛ فهو يفكِّك الأساطير الرسمية عن محمد علي باشا مؤسِّس مصر الحديثة، وجيشه الذي استحدثه، أسطورة تلو الأخرى، ويروي تاريخ هذا الجيش؛ لكن من خلال نموذج مختلف؛ يؤرِّخ فيه من أسفل؛ بحيث يسلِّط الضوء على حياة الجندي العادي، لا سيَر القادة.

يقدم فهمي حياة الجنود بأسلوب شائق؛ بداية من تجنيدهم، وما يعانونه من تفاصيل الحياة اليومية في معسكرات الجيش، وكيف كان يجري إطعامهم والعناية الصحية بأبدانهم. وينقل تجربة إصابة الجيش بمرض الزُّهَري، وكيف عالجت الدولة هذه المشكلة.

سأركِّز على معالجة فهمي لشخصية محمد علي، وحملة ابنه إبراهيم

باشا إلى سوريا (١٨٣٠ - ١٨٤٠)؛ لكنني سأستعرض قبلها ما يمكن أن نُسمِّيَه الرواية الرسمية في كثير من الكتابات التاريخية التقليدية عن محمد علي وجيشه.

الرواية الرسمية

ثـمَّ نمطٌ من الكتابة التاريخيـة التقليدية عن تلك الفترة؛ تبدو فيه مصر فاعلًا تاريخيًّا متجانسًا ذو صوت واحد متَّحد متواصل على مدى التاريخ، وتتوصل مصر فيه إلى إدراك ذاتها في شخص الباشا العظيم محمد علي، أمَّا ما قبل محمد علي فهو غائمٌ ورماديٌّ ومُبهَم. وتُختصر فيه ثلاثة قرون مـن الحكـم العثمانـي (١٥١٧- ١٨٠٥) فـي أنها عِصور ظـلام؛ لم يُقدِّم العثمانيون فيها شيئًا للبلاد. ولا تخرج مصر من حقبة إطباق البؤس تلك إلا مـع ظهور المُخلِّص محمد علـي. لا تتوقف هذه الأدبيات عن وصفه بالعبقرية؛ ولقد ساعد على رواج هذه المقولة أحفاده من الأسرة العلوية، وكتابات الأدباء والمؤرخين.

النقطة الثانية التي تعتمدها الكتابات التقليدية هي دور محمد علي في تجنيـد الفلاحين؛ ليصبحوا جنـودًا لأول جيش نظامي في مصر، وأن هذا الجيش سـار في خطٍّ صاعد ومسـتمر من التقدم؛ ففي عام ١٨٣٣ أصبح محمـد علـي بالفعـل من أهـمِّ ولاة الدولـة العثمانيـة؛ مضارعًا السـلطان العثماني في القوة والمنعة، وبعد أن ثبَّت أقدامه في مصر، مدَّ سيطرته إلى سوريا والحجاز والسودان وكريت، وأكثر أراضي اليمن، وشرقي الجزيرة العربية. وتسـتخدم تلك الدراسـات الترتيب الزمنـي لحملاته؛ فهو يوجِّه الحملـة إثـر الحملة؛ في البداية حملته المبكرة ضد الوهَّابيين في الحجاز

(١٨١١ - ١٨١٨)، ثم إلى السودان (١٨٢٠ - ١٨٢٢)، ومن هناك إلى المورة (١٨٢٤ - ١٨٢٧)؛ لتصل إلى الذِّروة في مواجهة السلطان العثماني في حملة سوريا (١٨٣١ - ١٨٤٠).

نلحَظ هنا في هذه الرواية أنها تعرض حملات الباشا عسكريًا في تتابع متماسك، وتُظهره كأنه يستقل عن الدولة العثمانية في كل خطوة. يظهر محمد علي في قلب الأحداث بطلًا يسبق عصره، لم يفهمه شعبُه، وخانه حلفاؤه.

نقد الرواية الرسمية

يحاول فهمي أن يتتبع تاريخ نشوء عبارة «محمد علي مؤسس مصر الحديثة»؛ والتي يعدُّها مقولة تاريخية نشأت في سياق معين له ظروفه التي يمكن البحث فيها. ولقد وجد أن هذه المقولة ظهرت واستُعملت بكثافة بين عامي ١٩٠٢ و١٩٠٥؛ مع حلول الذكرى المئوية الأولى لتولي محمد علي الحكم. ويلفت فهمي النظر إلى غثاثة اختزال فترة الحكم العثماني في أنها كانت فترة ظلام واستبداد فقط؛ معتمدًا في ذلك على العديد من الدراسات التي قدَّمت تاريخًا مغايرًا لفترة الحكم العثماني لمصر.

ثم يردُّ فهمي على الرأي الذي مفاده أن قوام جيش محمد علي كان من الفلاحين؛ ما أتاح لهم الشعور بهُويتهم المصرية؛ بأن هذا الرأي مفتقرٌ للدقة؛ بسبب تهرب الكثيرين من الخدمة النظامية بالجيش، وأنهم حاولوا ابتكار طرق للمقاومة؛ أحيانًا بإحداث العاهات البدنية أو الثورة والمقاومة؛ كما في ثورات الصعيد. ويؤكد أن الجيش الذي تمت صناعته

لـم يكـن وطنيًـا خالصًا؛ بـل ينطوي على الكثيـر من الفـوارق الطبقية بين الفلَّاحيـن المصرييـن والضبـاط الأتـراك؛ وسـيتجلى ذلـك لاحقًـا فـي اعتراضات أحمد عرابي وانتفاضته ضد الخديوي توفيق.

ولفهـم توسـعه العسـكري فـي سـوريا؛ يسـتعرض فهمي ظـروف كل حملـة على حدة؛ فحملة محمد علي في الحجاز إنما أراد بها الاسـتجابة لأمر السلطان بإخماد الثورة الوهَّابية، وكذلك التخلص من قوات الألبان والمماليك المتمردة في جيشه؛ فضلًا عن الأمل في الحصول على سوريا مكافـأةً من السـلطان؛ نظيـر القضاء علـى الوهَّابيين. أما حملة السـودان؛ فـكان الدافـع وراءهـا هو الاسـتيلاء على مناجـم الذهب الغنيـة في جبل سـنار، وكذلـك تجنيد السـودانيين، وكانت حملـة اليونان اسـتجابةً لأمر السلطان أيضًا؛ مثل حملة الحجاز.

وبالنسبة لأهم حروب محمد علي باشا في سوريا؛ فقد رأى المؤرخون أن وراءها عدة أسـباب مترابطة؛ فلقد رأى محمد علي أنه يسـتحق مكافأةً مـن البـاب العالـي؛ نظيـر جهـوده في خدمة السـلطان فـي إخمـاد التمرُّد الوهابـي، وإخمـاد الانتفاضـة فـي اليونان، وقـد طلب بالفعـل بعد حرب المورة أن يمنحه السـلطان باشـويات سـوريا الأربع مكافأةً، لكن خسـرو باشا، عدو محمد علي اللدود، أقنع السلطان برفض هذا الطلب.

ومن أسبابها كذلك رغبة محمد علي في إقامة منطقة عازلة بين أراضيه في مصر، وأملاك الدولة العثمانية في الأناضول، وهناك ذرائع كثيرة؛ مثل خلافه مع عبد الله باشـا والي عكا الذي اتهمه بإيواء نحو سـتة آلاف فلاح مصري من المتهربين من دفع من الضرائب.

يؤكد فهمي أن مشروع محمد علي التوسعي لم يكن مشروعًا وطنيًا خالصًا؛ بل كان مشروعًا شخصيًا لا قوميًا؛ بل يزيد فيسلِّط سهام نقده على فكرة وجود كيان أزلي مصري مستمر في التاريخ يقوم بأدواره التاريخية بمعزلٍ عن سياقه التاريخي؛ ثم يشير إلى أن مصر لم تكن ولاية مستقلة لها توسعاتٌ؛ بل ولاية عثمانية تُدار من مركز الإمبراطورية؛ لها مساحاتٌ من الحرية، لكنها تدور في فَلَك الدولة العثمانية، وأحيانًا تتمرد كما فعل محمد علي لأطماعه الشخصية.

يتغيًا فهمي فهم توسعات محمد علي بوصفها توسعات والٍ عثمانيٍّ كان يتلقَّى من السلطان في إسطنبول فرمانًا سنويًا بتوليه منصبه، ويطمح إلى منافسة السلطان، وتأسيس بيت ونسل ملكي؛ مثل بيوت: العَظم والأمراء الشهابيين والجزَّار في الشام وجبل لبنان، أو بيت داود باشا في بغداد. لكن الفارق أنه نجح فيما فشل فيه الآخرون؛ لأنه كان يمتلك المهارات الشخصية، فضلًا عن استخدامه الموارد المتاحة، ما أتاح له تحقيق ذلك.

لقد سلَّم أكثر المؤرخين المصريين، بلا تبصُّرٍ، بأن محمد علي كان يحارب من أجل الاستقلال؛ انطلاقًا من حاجة مصر للتخلص من النِّير العثماني؛ فأنكروا هذا الحقَّ على الولايات الأخرى التي يُفترض أنها كانت تعاني أيضًا من السيادة العثمانية. ويُعدُّ السؤال عما إذا كانت حروب محمد علي حروبًا أسرية من أجل التوسع الإمبريالي، أم لغايات؛ مثل الاستقلال عن العثمانيين سؤالًا مركزيًا لفهم مُجمَل سيرة محمد علي.

والسؤال الذي يستحق أن يُطرح: لماذا وافق محمد علي أن يُحارب مع السلطان ضد الوهَّابيين واليونانيين، ثم انقلب عليه في سوريا عام ١٨٣١؟ والإجابة أن جيش محمد علي (الجديد) أصبح بكامل طاقته في ذلك الوقت؛ فقد تخلص من المماليك والألبان، وبنى جيشًا من الفلاحين، ولم تكن ماليةُ الولاية المصرية تتحمل تمويل حملة بمثل هذا الحجم من قبلُ. وهناك أيضًا الحاجة الملحَّة للأخشاب لبناء أسطول ضخم، ووجود خزَّان بشري من المقاتلين في تلك المناطق. وفي الكتاب تفاصيل عن حملة محمد علي على سوريا بوصفها التجلي الأهم لشخصية محمد علي، وخلافه مع السلطان الذي انتهى بصلح كُوتاهية.

المنهج التاريخي ومنطق القصة

قدَّم خالد فهمي عملًا تاريخيًا مُميزًا اعتمد فيه على أدوات غير تقليدية في الكتابة التاريخية؛ مثل استخدامه لأفكار ميشيل فوكو في الضبط والعقاب لدراسة انضباطية الجيش والتعاليم العسكرية للجنود، واستخدامه لأفكار بندكت أندرسن عن القوميات، وكيف تنشأ الجماعات المتخيلة، واستخدامه تجربة مدرسة التابع في الهند لكتابة تاريخ بديل، والتركيز على تاريخ الجنود؛ بدلًا من القادة، وكذلك تجارب مدرسة ما بعد الاستعمار، وما أنتجته من نقد لهذه الفترة، وهذا شيء غير معتاد في الكتاباتِ التاريخية السابقة.

والنقطة الأهم هي أنه برغم الحمولة النظرية التي تتجلى في بدايات الكتاب، إلا أنه سرعان ما يقرأه القارئ بمتعة وشغف؛ ذلك أن الكتاب لم يفقد روح التاريخ بوصفه قصةً تُروى، وحتى لو كانت القصة هذه المرة

تاريخ عســاكر وجنود، وليس قادة؛ كما فعل فستظلُّ ممتعةً بل أكثر إمتاعًا من قصة القادة. هذا النمط من الكتابة مهم؛ لأن الدراسات - مهما قدمت مـن أُطُر تفسـيرية - تظـل مفتقرةً إلى القصة؛ فللقصة مـذاقٌ خاصٌّ؛ لأنها تجعل من التاريخ تاريخَ أشخاص، لا تاريخ أفكار فحسب.

(٣) نوبار في صُحبة الوالي محمد علي باشا وإبراهيم باشا

بيـن يدي مذكرات نوبار باشـا، وعندما شـرعتُ في قـراءة فصول هذه المذكـرات شـعرتُ أنني وجـدتُ نصًّا مميـزًا يحكي فيه نوبار باشـا قصة حياته، وخدماته للأسرة العلوية. وُلد نوبار نوباريان في إزمير عام ١٨٢٥، من نسل عائلة أرمنية، ودرس الابتدائية في جنيف، وكان نوبار في السابعة عشـرة مـن عمره عندما تم اسـتدعاؤه إلى القاهرة من قبـل خاله بوغوص بك؛ الذي كان يشغل منصب وزير التجارة والأمور الإفرنجية لوالي مصر محمد علي باشا. بعد أن عمل نوبار سكرتيرًا في مكتب خاله الذي توفي في عام ١٨٤٤، أصبح سكرتيرًا ومترجِمًا لمحمد علي، ثم التحق بخدمة إبراهيم باشا الذي اصطحبه معه في أسفاره.

نستعرض القسم الأول من المذكرات التي يحكي فيها نوبار تجربته مع محمـد علـي وإبراهيـم باشـا، ويذكِّرنا فـي البدايـة بالفرمان الـذي أصدره السلطان عبد المجيد عام ١٨٤١؛ بمنح حكم مصر لمحمد علي وأولاده، وكان صُلحًا بعد سنوات من المعارك بين الطرفين، وعلى الرغم من الحقِّ الوراثـي للأسـرة العلويـة؛ فـإن حاكـم مصـر ظل جـزءًا مـن الإمبراطورية العثمانية، وظلت المعاهدات السياسية والاقتصادية تُعقَد من جانب الباب العالي، وواجبة التنفيذ على مصر. وكانت الضرائب تُجبى باسم السلطان العثمانـي، وكان يُجبـى إليه منها ما يوازي ٣٠٠ ألف جنيه إسـترليني، ولم يكن تعداد الجيش المصري آنذاك يزيد عن ١٨ ألف جندي.

وصل نوبار إلى مصر في عام ١٨٤٢، بعد وقت قصير من صدور هذا الفرمـان، وكان والـده يعمل وكيلًا للوالي محمد علـي في باريس. كانت أول مهمة لنوبار الحصول على أوراق والده ومراسـلاته مع محمد علي؛ خوفًـا مـن وقوعها في يـد العثمانيين. يصف لنا نوبار باشـا الإسـكندرية، وضوضاء الشـوارع، وجموع الناس بالملابـس الرَّثَّة، وكيف رأى ضباطًا من الجيش وموظفين مدنيين يمتطون الخيول.

يحكـي نوبار عن قصر محمد علي باشـا، وعندمـا يصف نوبار محمد علـي أتذكَّـر الفصل المميز الذي كتبه خالد فهمي عن نظرات محمد علي وشـخصيته فـي كتابه الرائع **كل رجال الباشـا**. قال محمـد علي لنوبار في أول لقاء بينهما: «اعمل؛ حتى أراك وأنت تعمل». كان نوبار شـابًّا حديث التخرج من أوروبا، ووجد نفسه في عالم غريب وجديد عليه؛ عالم يصفه في المذكرات بأنه من العصور الوسطى؛ يشرح لنا قصصًا كثيرة تدل على شخصية محمد علي؛ فلقد غضب على خال نوبار - الخواجة بوغوص- وطلـب اعتقالـه ليُعدم بعد نقاشٍ حـول بعض الأمور الماليـة، فهرَّبه أحد المسـاعدين، وحماه سرًّا؛ لأنه كان مدينًا له بمعروف. وفي يوم من الأيام مرَّ محمد علي بضائقة مالية في رشيد وصاح قائلًا: «لو كان بوغوص هنا لأنقذنـي مـن هذه الضائقـة»، واعترف مسـاعد محمد علي بـأن بوغوص حي، فطلب إحضاره على الفور.

يكمل نوبار رسـم خطـوط علاقة الخواجة بوغـوص بالوالي؛ فالخال شـديد الحيـاء والخـوف، يقـاوم رغبـات محمـد علـي التوسـعية؛ يقـف بوغوص وعيناه تنظران إلى الأرض ويقول للباشـا: «لن أتمكن من تنفيذ

رغباتكـم يـا سـيدي»؛ مزيج مـن الحيـاء والشـجاعة في مواجهـة نزوات الحاكم.

حكايـات نوبـار عـن حياتـه في ظـل محمد علـي تُظهر شـخصية هذا الوالي. عندما مات خاله بوغوص سأل محمد علي: كم ترك بوغوض من ثـروة؛ ليتأكـد هـل كان لصًّا أم نظيـف اليد، فقيل له: تـرك ١٩ قطعة ذهبية فقـط، فقـال محمـد علـي: «لا يمكـن، لقد أعطيته بنفسـي ماسـة تزن ١٧ قيراطًا». بالبحث وجد نوبار الماسـة، لكن لم يجد ثروة مخبأة لبوغوص باشـا، وهكـذا مـات بوغوص فقيـرًا بعد خدمـة الوالي أربعيـن عامًا. قال محمـد علي سـاعتها: «لـو كنتُ أعلـم أن بوغوص لن يترك شـيئًا، لكنتُ خبأت تحت سـريره ١٠٠ ألف تـالاري (عملة ألمانية)؛ حتى لا يُقال: إن محمد علي يهمل من يقوم بخدمته».

ينبّهنـا نوبـار إلـى أن محمـد علـي، حين بلغـه نبأ وفـاة بوغوص وأن جنازته لم تُشيَّع عسكريًّا، أرسل رسالة إلى قائد الحامية العسكرية يقول لـه فيها: «إنك حمـار، إنك غبي، كيف لا تصطحـب القوات التي تحت إمرتـك؛ لتشـييع الرجـل الـذي أخلـص لك وربَّـاك إلى مثـواه الأخير»، وأمر بتوجُّه الضباط إلى كنيسـة الأرمن، وتشـييعه في تشـريفة عسكرية. يوضح نوبار أنه لم يكن معهودًا في ذلك الزمن -عام ١٨٤٤- أن يشيِّع قائدٌ مسـلم جنازة شـخص مسـيحي، ويشـرح لنـا أن الشـخصيات ذات الحيثيـة فـي المجتمع لم تكن تسـتطيع أو تجرؤ على مصافحة مسـيحي فـي الطريـق العـام؛ حتـى لـو كان صديقًـا إلا بإيمـاءة بالعيـن، أو حركة خفيفة بالرأس.

يقـصُّ علينـا نوبـار قصة أخرى عـن دور محمد علي فـي تغيير معاملة المسـيحيين في المجتمع؛ عندما أرسـل كبير السُّيَّاس فرسًا هدية إلى أحد أمناء سر محمد علي، وكان مسيحيًّا، ثم اكتشف محمد علي بعد ذلك أن الفرس به عيب؛ فاستدعى الموظف وسأله: «كيف اخترت فرسًا به عيب لتعطيـه لفـلان؟»، فـردَّ عليـه كبير السُّـيَّاس: «لكن الذي اخترته يا سـيدي حَسنٌ للغاية بالنسبة لكافر»، فقال محمد علي: «إن الكافر هو من لا يُنفِّذ أوامـري»، وأمـر أن يُعاقـب في الحال؛ ضربًـا بالعصا علـى قدميه. لذلك ليـس عجبًـا أن يدافع نوبـار عن محمد علي، ويعدُّه مصلحًـا كبيرًا مختلفًا عـن حُكَّام القسـطنطينية غيـر الأوفياء الذين يتلقون أوامرهم من موسـكو على حدِّ وصفه.

كان نوبـار يعـرف الإنجليزيـة والفرنسـية، ويسـتطيع ترجمة الرسـائل والخطابـات؛ ولقـد منحته هـذه المهارة مكانـةً متميزة في حاشـية محمد علي. بعد فترة من عمل نوبار مع محمد علي؛ جاء إبراهيم باشـا، وطلب أن يلتحـق نوبـار بخاصَّته؛ طلـب إبراهيم هذا الطلب؛ لأنـه كان يعتقد أنه والـده يشـكُّ فيه؛ فأراد أن يزيح هذه الشـكوك باسـتعارة رجل من خاصَّة والده؛ ليصبح شاهدًا، ومترجِمًا لمحادثاته مع القناصل الأجانب.

يسـرد نوبار قصصًا من داخل قصر الوالي؛ وهو في معية إبراهيم باشـا تدلُّ على وجود صراع بين الأب محمد علي باشـا وابنه إبراهيم، وشـعور محمـد علـي أن إبراهيم يغدر به، ويخطط للتمرد عليه وحبسـه، والانفراد بالسـلطة. ظـل هـذا الهاجـس يـراود محمـد علـي، ونجـد فـي هوامـش الحكايـات وصفًا لحيـاة إبراهيم وعربته من طراز فيكتوريا العتيق، ويعلِّق

نوبـار بأن إبراهيم لم يكن من النوع الذي يتخلى، ولو قليلًا، عن رفاهيته، وعن كل ما هو مُريح.

الحكايـات مـن داخل البيـت العلوي تدلُّنا على صـراع حادٍّ بين الأب وابنـه؛ بـل إن محمد علي أصدر أمرًا بقتل ابنته نازلي؛ بسـبب جريمة قَتْل ارتُكبـت بتحريض منها؛ للتخلص من عشـيق لهـا، لكن ابنه عباس رفض قتـل عمَّتـه، وجلس ليلـةً كاملة يقنع والـده بالعدول عن هـذا القرار. كان هاجس إبراهيم الخوف من إراقة الدماء، وأن يأمر محمد علي بقتله؛ كما فعل مع الأميرال التركي أحمد باشا الذي سلَّم الأسطول العثماني لمحمد علـي بعـد وفاة السـلطان محمود ١٨٣٩، وطلـب الباب العالي تسـليمَه، وأبى محمد علي مدة أربع سنوات، ثم قتله.

يتضـح لنا مـن هذه التفاصيـل التي يذكرها نوبار شـعور إبراهيم باشـا بالغَبن من والده، وأنه يشـعر أنه يتلقى عتابًا ظالمًا ليس له أي أسـاس من الصحـة، وعندمـا اسـتدعى محمد علي ابنـه إبراهيم إلى قصره في شـبرا، طلب إبراهيم من مملوكه أن يضرب بسيفه؛ فقال له مساعده: «مَن؟» فردَّ إبراهيم: «من سيأمر بقتلي»؛ وهو تلميحٌ إلى والده.

لم يكن إبراهيم باشـا ينامُ الليل، وكان يعاني أرقًا مزمنًا، ويعاني تقطُّع نومه، وكان عادةً ما يرسل في طلب نوبار؛ ليسهرا سويةً، ويتجاذبا أطراف الحديـث؛ كي ينسـى همومه قليلًا، سـأل نوبار ذات يـوم العبدَ عُمر الذي يسهر معهما: منذ متى يعاني إبراهيم باشا من هذه المشكلة؟ فقال له: «إن الرجال الذين قتلهم في الشام يجيئون لإيقاظه من نومه ليلًا»؛ يصف نوبارُ عبد إبراهيم باشـا بأنه شـخصٌ بدائـيٌّ؛ لأنه لا يفهم فكرة الندم والشـعور

بالذنب، وحوَّلها لمعنى ملموس؛ يقومُ فيه القتلى بإيقاظ إبراهيم من نومه.

نستمرُّ في التقاط الحكايات البسيطة التي يحكيها نوبار عن محمد علي وإبراهيم باشا، وكل حكاية تدلُّ على سمات شخصية هؤلاء الحكام، وتكمن براعةُ الكتاب في أننا نتعرف من خلاله على عبارات وأفكار صادرة عن لسان هؤلاء الحكام أنفسهم؛ يُفلسفون فيها قراراتهم وأفكارهم؛ فعندما سافر إبراهيم باشا إلى أوروبا اصطحب معه نوبار، وتناقشا في طبيعة المرأة الأوروبية. لحظة عجيبة عندما نرى إبراهيم باشا يراجع مقولاته وأفكاره عن الغرب، ويتحدث مع نوبار قائلًا: «إن سامي باشا يقول: إن المرأة تعيش في أوروبا حياةً سيئة»، ثم يحكي لنوبار أن هذه الفكرة محلُّ شكٍّ عنده، لقد رأى سيدةً في مدينة إيطالية وأعجبته، وعرض عليها صُرَّةً من الذهب، لكنها رفضت صُحبته ونهَرته؛ هذا الرفض للباشا كان جديدًا عليه؛ وهو القادم من قصور مليئة بالجواري.

يحكي نوبار عن تأثر إبراهيم، الذي أشعل النار وسفك الدماء في المورة، وبكائه عندما رأى حدائق أوروبا قائلًا: «انظر كم هي جميلة»؛ إنه يرى بلادًا يعمُّ فيها الرخاء، ويشعر ببؤس مصر. لكنها طموحات لم تثبتها الوقائع؛ لأن ولع إبراهيم بعائدات أراضيه كان يعمي قلبه عن إظهار أي رحمة بالفلاح البسيط. كما نرى اهتمام إبراهيم بالمصانع، وزيارته مصنعًا للنسيج والسجاد، وانبهاره عندما رأى الشرطة تتدخل في مشاجرة في الشارع، وامتثال الناس لها؛ قائلًا لنوبار: «هذه عظمة إنجلترا، وليست عظمتها مقصورة فقط على المصانع التي زُرناها».

عندما زار إبراهيم باشا متحف قصر فرساي شرح له نوبار قصة اللوحات وخلفيتها التاريخية؛ حينئذٍ تغيرت معاملة إبراهيم لنوبار؛ لقد وجد فيه رفيقًا مثقفًا يعرفه على التاريخ والفنون ويناقشه بودٍّ، وكان إبراهيم يراجع مع نوبار ماذا سيحكي لمحمد علي عندما يعودون إلى مصر، وينبهه قائلًا: «أنت لم تعرف بعدُ العجوز عندما يغضب، ويكشِّر عن أنيابه».

كان نوبار يتجنَّب إبراهيم باشا فيما هو مخمور؛ لأنه ينغمس في الحديث عن المعارك الحربية التي خاضها وبطولاته. نُكمل شهادة نوبار بزيارة إبراهيم باشا إلى إسطنبول، وطلبه الحصول على حق الولاية، وكيف كان يعامل الأعيان في العاصمة بازدراء على عكس احترامه للأوروبيين؛ وسر هذه المعاملة الجافة لأنه كان يتذكر صراعه القديم مع الأتراك، وتمرده عليهم، ووصوله إلى الأناضول. لم يكن أحدٌ في الباب العالي يحبه، كانوا يعدُّون إبراهيم متمردًا سابقًا ومغامرًا لا يوالي الدولة، وتمنوا أن يموت سريعًا؛ ليتخلصوا منه. وقد بادلهم إبراهيم التعامل باحتقار واستخفاف، وفي طريق عودته إلى مصر أصابه المرض، ففرح الأعيان بمرضه، وارتسمت على وجوههم علامات السرور، كلما بلغتهم أنباء تردِّي صحته، وخشي عباس، بصفته خليفة إبراهيم، أن يناله نصيبٌ من غضب إبراهيم قبل موته، فسافر إلى الحجاز، ومات إبراهيم، وحضر الأعيانُ الجنازة، وينقل لنا نوبار نداء الموظفين الكبار على الخدم؛ ليجلبوا لهم الغليون، وهم في غبطة بوفاته.

ينقل لنا نوبار صورةً من جنازة إبراهيم باشا التي كلما اقتربت من المدفن قلَّ المشيعون وانصرفوا، ووصلت إلى المدفن يشيِّعها الفلاحون

فقط، وعندما وصل الخبر لمحمد علي قال: «كنتُ أعرف، لقد حبسني، كان قاسيًا معي، لقد عاقبه الله وأماته، لكني أجد لكوني أباه من الواجب أن أترحَّم عليه وأدعو الله له». يستمر الكتاب في تقديم الشهادات عن أسرة محمد علي، ويسرد لنا قصصًا وتفاصيل عن حياة الأسرة العَلوية، وكيف كانت تُدار الدولة؛ حيث ترقَّى في المناصب، وأصبح رئيسًا للوزراء في عهد إسماعيل. وتستمر المذكرات في وصف العهود اللاحقة؛ عهود: عباس، وسعيد، وإسماعيل. أما المراجع التاريخية فتقف موقفا نقديًّا من تجربة نوبار نفسه، وتتهمه بالتسبُّب في الديون، فضلًا عن الإثراء، والتربُّح من منصبه.

(٤) أرسكين كالدويل: كيف أصبحت روائيًّا؟

قرأت كتاب أرسكين كالدويل المعنون: **اسمها تجربة**؛ توقَّعتها سيرة ذاتية؛ لكنها كانت أقرب لمذكرات أرسكين مع الكتابة وهمومها. الكتاب يعرض خبرات أرسكين حول مهنة الكتابة أرض العجائب والخيال، كما يطلق عليها؛ لذلك لا نرى استعراضًا للأحداث التي مرت في حياته بالتفصيل؛ بل يروي التجارب التي ربما تكون قد أسهمت في مشروعه الروائي. لا نجد في الكتاب حديثًا عن مراحل حياته؛ إلا ما يتعلق بالكتابة، والنشر، والسهر على كتابة القصص القصيرة والروايات. يندُر الحديث عن الحياة العاطفية للكاتب، أو عن الحب في حياته، ولا ترى ظلال الحياة السياسية أو صراعات الحكم والسياسة، بل الصراع من أجل الكتابة والنشر.

يكثُر حديثه عن ذلك القلق؛ قلق الكتابة وهمومها، ومعاناة الحصول على فكرة وتطويرها نصًّا روائيًّا. الكتاب تجري أحداثه في أمريكا منذ مئة عام تقريبًا؛ تغير الكثير: من سوق النشر إلى أذواق القُراء، لكن كل من يحترف الكتابة يعرف شعور معايشة النمرة - والتعبير لجبرا إبراهيم جبرا. يعصر أرسكين ذهنه ليتذكر ذلك اليوم الذي قرر فيه أن يكون كاتبًا، أو متى شعر أن مهنته ستكون الكتابة؛ لا يتذكر كاتبنا نقطة التحول التي دفعته للتعلق بالكتابة؛ لكنه يؤكد أن رحلته في كتابة القصص والروايات لم تكن أمرًا هينًا يقوم به بسهولة ويسر؛ فلقد أتعبته تلك المهنة، وأشعَرته بالقلق المستمر. كتابة القصة عنادٌ لمزاج المرء، وميله الفطري في

الانطلاق. يحكي لنا عن حالة الضيق والتوتر والنكد طيلة النهار أو الليل، فيما هو جالسٌ أمام الآلـة الكاتبة؛ ليبدع قصة، أو يكمل فصلًا في رواية، وفي الوقت نفسه يرغب بالخروج من المنزل؛ ليفعل أشياء أخرى أكثر إمتاعًا، وإثارة من الكتابة.

بدأ أرسكين كالدويل حياته في العمل مراسلًا صحفيًا، إلى أن أسدى إليه أحد المحررين نصيحةً عندما كان يراجع مقالاته: «عُد إلى مدينتك، واكتب عما يحدث أمام ناظريك، وحوِّل مشاهداتك إلى حدث مثير؛ المهم هي الطريقة التي ترى بها الحدث وتكتب عنه»، في صيف ١٩١٩، أكمل العمل في مهن متنوعة؛ أحيانًا صحفيًا، وأحيانًا عاملًا على سطح سفينة شحن، وباع اللبن، وعمل في محل عصير برتقال، وفي مخزن زجاج وفخَّار؛ المهم ما يجد به قوت يومه، وأن يجد فرصة للكتابة. وفي تلك الفترة أكمل سنوات الجامعة، وزادت رغبتُه في أن يكتب عن الناس الذين عرفهم في الواقع، وكما عاشوا، وتحركوا، وتكلَّموا فعلًا.

في بداياته كصحفي مبتدئ لم يقتنع رئيس التحرير بأن كثرة القراءة يمكن أن تفيده: «أنا أريد مراسلًا صحفيًا، لا عُثَّة كتب»؛ هكذا صاح فيه رئيس التحرير، وطلب منه أن يكتب عن الجرائم في المدينة التي يعيش فيها. ولمدة عام كان يتصل بالمشرحة المحليَّة يوميًا، ويكتب عمود نعي للراحلين، فضلًا عن الذهاب إلى بعض الفنادق الرخيصة، واكتشاف كيف مات أحدُ الأشخاص داخله. في هذه التجربة تعرَّف على أيام الاثنين السوداء؛ حيث ينتحر بعض الفقراء في صباح يوم الاثنين بعد أن يستيقظوا، ويتذكروا أنهم لا يملكون شَروى نقير بعد أن يبددوا ما كسبوه من أجر طيلة الأسبوع الفائت، ويقرر ذلك الفقير الانتحار. عاد أرسكين

للصحيفة، وكتب قصة عاطفية يتخيَّل فيها انتحار أحد هؤلاء الأشخاص، لم يقبل رئيس التحرير القصة، وقال: لو أردت قصة مؤثرة سأرسل بيغي ميتشل؛ كانت بيغي تعمل في الصحافة قبل أن تستقيل، وتكتب بعد عشرة أعوام الرواية الشهيرة **ذهب مع الريح** عام ١٩٣٦.

لم يكفَّ أرسكين عن المحاولة؛ الكتاب سجلٌّ بالخيبات التي مُني بها والتجارب التي خاضها. يعود إلى المنزل في المساء، ويكتب قصصًا قصيرة، ويرسلها إلى رؤساء تحرير المجلات، وكانت القصص تُعاد إليه دائمًا، ومعها رفضُ النشر. وعندما حاول العمل بمراجعات الكتب وجد صحيفة تعطيه أجره الكتابَ التي سيكتب عنه. كانوا يرسلون له ستة عناوين أسبوعيًا، وهكذا فكر في بيع تلك الكتب بعد الكتابة عنها؛ لتصبح مصدر دخل له. وفي عام ١٩٢٦ كتب نحو أربعين أو خمسين قصة قصيرة لم يُنشر منها شيء، وأصبح لديه نحو ألفين وخمس مئة كتاب قُدِّمت له كأجر لمراجعتها؛ وبهذه الكمّ من الكتب قرَّر أن يفتح محلًا لبيع الكتب المستعمَلة؛ تكون أرباحه منه معينًا له في الاستمرار في الكتابة.

ينتقل أرسكين من مدينة إلى أخرى، ويوفِّر الحد الأدنى من المال؛ لكي يستأجر غرفة ويقطع الحطب لفصل الشتاء القارس، وأحيانًا يزرع البطاطا ليأكلها؛ فهو بالنهار حطَّابٌ، وبالليل أديبٌ. في النهار يجهِّز الخشب الذي يستعمله في التدفئة في فصل الشتاء البارد، وفي الليل يجلس أمام الآلة الكاتبة يصنع عالمًا من الأخيلة والواقع، ويعيش حياة بسيطة فقط ليكتب؛ كأنه يعيش لهذه الغواية الخطيرة. لكن مشاعر الضجر والتململ وشهوة التجوال، والرغبة التي لا تُقاوم للذهاب لمكانٍ ما - كانت تحرمه الشعور بالرضا والقناعة مدةً طويلة، وسرعان ما انتهت تلك

الكتب التي كان يبيعها، وعندما زار هوليوود أول مرة، شغلته الكتابةُ عن زيارة معالم المدينة.

تلقى أرسكين رسالة عام ١٩٢٩ بالموافقة على نشر أحد قصصه القصيرة بعد حوالي ست سنوات من بدء محاولاته الأدبية، وفجأة انمحت من ذاكرته كل خيبات الأمل المتراكمة طيلةَ عدة سنين، وبلَّغه مدير التحرير أنهم سينشرون قصتين من قصصه مقابل ثلاثة دولارات ونصف الدولار، فردَّ كالدويل أنه تلقى أجرًا أكثر من ذلك من قبلُ، وقال للمدير: «تمنيتُ أن أتلقى أكثر من ثلاثة دولارات ونصف»؛ فصحح له المدير أن المبلغ ثلاث مئة وخمسون دولارًا.

ثم نشر أول مجموعة قصصية له، لكن مراجعات النُّقَّاد في الصحف كانت حانقة وغاضبة، حتى جعلته يشعر أن هؤلاء النقاد ينضوون تحت فئة العاشق العنِّين، أو المؤلف الفاشل؛ فيسخر منهم بالقول: «على كل من يريد أن يصبح ناقدًا أدبيًّا أن يُظهر مقدرته على ممارسة الحب بكفاءة، أو تأليف مجموعة قصصية صالحة للنشر». وبعد هذه السنوات العجاف تناقصَ وزن الكاتب من ٨١ كيلو، حين كان يلعب كرة القدم في الجامعة إلى ٤٥ كيلو، لم يكن أحد يتصوَّر أن هذا الكاتب النحيل المجهول، سينجح في فرض إنتاجه الأدبي، وتُوزِّع أعماله ملايين النسخ، وتُترجَم إلى اللغات الأخرى.

ويستمر كالدويل في سرد ظروف كتابة روايته **طريق التبغ** ونشرها، وحصوله على ثلاثة ألف دولار؛ نظير تحويل الرواية إلى فيلم. وقد كتب بعدها رواية **أرض الله الصغيرة**، وبدأت شهرته كأديب وكاتب مميَّز. إن

رحلة كالدويل تبدو شاقةً لنا، وفيها الكثير من الشغف بالكتابة، والقلق من الفكرة واللغة، وفيها الصراع مع توفير النفقات؛ لكي يجد الوقت والمكان للكتابة. لم يكن لدى كالدويل فلسفةٌ يريد نشرها، أو مذهبٌ يهتم بالترويج له؛ بل كان يريد أن يصف بأقصى ما يستطيع من صدق بؤس الحياة، وآمال الناس الذين عرفهم.

نجح في نهاية المطاف، وشقَّت روايته **طريق التبغ** الطريق؛ لتُعرض في برودواي كمسرحية، وتلقَّى ألف دولار مكافأة من إحدى المجلات؛ ابتاع بها البيت الذي كتب فيه إحدى رواياته. ولم يكفَّ عن الترحال والسفر داخل الولايات المتحدة، ثم سافر إلى روسيا، وتسلَّم حقوقًا مالية نظير ترجمة رواياته إلى الروسية، وأصبح يتلقَّى عشرات الرسائل أسبوعيًّا من المعجبين؛ تسأله عن سر الصَّنعة، كما عمِل مراسلًا حربيًّا إبَّان الغزو الألماني لروسيا، وكتب رواية عن تلك الفترة، وسرعان ما خطفتها هوليود مقابل خمسين ألف دولار، وطلَّق الرجل الفقر الذي لازمه في مُقتبل حياته، وكتب عنه الكثير في الروايات؛ لقد بدأ حياته وهو يحصل على ثلاثة دولارات في السَّنة نظير الكتابة، تحوَّلت إلى ثلاثة ألف دولار في الأسبوع.

(٥) قربان سعيد: في فضّ غموض حياة غريبة وخطيرة

كنت في المطار ورأيتُ لوحة عليها طائرة متوجهة إلى باكو عاصمة أذربيجان، لم تُترجَم اللوحة في عقلي إلا صورة قربان سعيد الروائي الأذري؛ مؤلف رواية **علي ونينو**؛ أحقًّا الأدب شعارُ البلدان؟

بدأ توم ريس الاهتمام بهُوية وشخصية قربان سعيد ابتداءً من ربيع عام ١٩٩٨؛ حين ذهب إلى مدينة باكو عاصمة أذربيجان للكتابة عن طفرتها النفطية الجديدة؛ وهي أول مظاهر الحياة التي عادت للمدينة منذ أن جعلت الثورة الروسية الزمن يتوقف بها عمليًّا عند تاريخ ١٩١٧، وبالكاد قبل أن يغادر باكو نصحه صديق إيراني بقراءة رواية **علي ونينو** لقربان سعيد؛ للتعرف من خلالها على المدينة، وعلى القوقاز بوجه عام؛ تلك كانت البداية، وأينما ذهب توم وحلَّ في باكو لاحقه ظلُّ قربان سعيد، عاد لفندق «باكو حياة ريجنسي»، ووجد كتابًا وحيدًا باللغة الإنجليزية في متجر للهدايا بعنوان: **الدم والنفط في المشرق**، وعلى الغلاف مكتوب أن المؤلف أسعد بك هو مؤلف رواية **علي ونينو**، وتحته وبين قوسين كتب اسم ليف نوسيمباوم؛ أسماء ثلاثة لشخصية واحدة: قربان سعيد، أم أسعد بك، أم ليف نوسيمباوم، وماذا حدث له، ومَن هو؟ ذلك الفضول الذي استولى على توم ريس جعله يتتبَّع كل ما يخصُّ حياة قربان سعيد تتبعًا دقيقًا يشبه تتبُّع المحققين السريين.

أتصفح الكتاب، وأسير مع توم ريس في رحلة تدقيقه تفاصيل حياة قُربان سعيد؛ أُغلق الكتاب أحيانًا، وأتمتم: «إنها رواية مشوقة أكثر منها ترجمة لحياة أديب»؛ هل يُعقل أن قربان سعيد مرَّ بكل هذه التجارب المريرة، ورؤية هذه الشخصيات، وتأتي الإجابة أن المعلومات التاريخية الموثَّقة في الكتاب مطمئنة، وحياة قربان سعيد المثيرة للتأمل لافتة ومشوقة.

جهدُ توم ريس في تتبع كل ما يخصُّ قربان سعيد مبهر، لقد بنى الكتاب على مراجعة المراسلات والمخطوطات، وسجلات الشرطة الفاشية في روما، ومدوَّنات محفوظة في النمسا، وزيارة المناطق والقرى التي ذكرها قربان سعيد عن حياته، فضلًا عن مقابلة كل من يمكن أن يُسهم بمعلومة عن حياة قربان سعيد من أقارب أو أصدقاء وورثة، وحصل على أكثر من ثلاث مئة رسالة خاصة خَفيت عن الباحثين؛ كانت مراسلات بين قربان سعيد، وإحدى صاحبات الصالونات الأدبية في عهد موسوليني، وفي الرسائل وصفٌ لأيامه الأخيرة، لكن الأكثر أهمية أنه وصول إلى الناشرة الألمانية التي نشرت كتب قربان سعيد، وزارها في بيتها، وهي في عمر الـ٩٦، السيدة مُوغله كيرشنر التي استقبلت توم ريس، وحكَت له عن قربان سعيد، وسألته: هل قرأت كتابه العنون: **الرجل الذي لم يعرف شيئًا عن الحب**؟، وكانت إجابته بالنفي، فسلَّمته دفاتر مخطوط كتاب كتبه قربان سعيد، وعندما بدأ توم في قراءة سطور هذه الدفاتر، كانت المفاجأة أن هذه الدفاتر ليست رواية؛ بل كانت مذكراته التي كتبها عن حياته، وهو على فراش مرضه، وهي آخر ما كتبه.

قصة ليف نوسيمباوم القصيرة هي التالي: وُلد ليف في أكتوبر/ تشرين

الأول ١٩٠٥ في باكو عاصمة أذربيجان لأبٍ يهودي ثري من بارونات صناعة النفط، وأمٍّ شيوعية من متطرفي الثوار، تبرعت لستالين بمجوهرات لدعم الثورة، وانتحرت في طفولة ليف. اندلعت الثورة البلشفية ضد القيصر الروسي، ووصل البلاشفة إلى باكو، وسيطروا عليها وهدَّدوا بارونات النفط فيها؛ على إثر ذلك هرب رفقة أبيه على ظهر الجمال بصُحبة قافلة عبر سُهوب بلاد فارس، وصحاري تركستان، وانتقل إلى إسطنبول بعد الحرب العالمية الأولى، ثم انتقل بعدها إلى برلين، وأعلن اعتناقه الإسلامَ في السفارة العثمانية في برلين عام ١٩٢٣، في الأيام الأخيرة للخلافة العثمانية، وتسمَّى قربان سعيد. وفي بداية الثلاثينيات انتقل إلى فيينا، ونشر روايته **علي ونينو**، باسم مستعار، وحقق كتابه **القيصر وستالين** أعلى المبيعات، ونال شهرة واسعة في الولايات المتحدة في أثناء زيارته لها عام ١٩٣٥. لقد اشتهر في مجتمعات فيينا ونيويورك وهوليوود في الثلاثينيات، وكان نجم وسائل إعلام جمهورية فايمار في ألمانيا، ومستشرقًا محترفًا التقى كثيرًا بموسوليني، لكنه حتى في أثناء حياته لم يعرف أحد، على جانبي المحيط، الكثير عن قصة حياته، أو هُويته، أو ماضيه، كتب تروتسكي إلى ابنه من منفاه عام ١٩٣٥ متسائلًا: «من هو أسعد بك هذا؟» وفي عام ١٩٣٨ حاول قربان سعيد الفرار من حصار الاضطهاد النازي الألماني، وسرعان ما تم اعتقاله، وترحيله إلى إيطاليا، حيث وافته منيَّته هناك عام ١٩٤٢.

في سيرة قربان سعيد التي كتبها توم ريس، نجد ملامسةً لعالم الظلال الغامض للمهجَّرين والفارِّين من أوطانهم بسبب الثورة الروسية، أو الحرب العالمية الأولى. ولقد تسبَّب وصول البلاشفة إلى باكو أن يفقد

والده ثروته، ويتم الاستيلاء على ممتلكات الأسرة؛ بل تهديد والده بالقتل. ومثل كثير من الكُتاب الذين وُلدوا في أعوام تحتضر فيها الإمبراطوريات وتتداعى، سوف يجعل ليف من إمبراطوريته المنهارة، أعني الحكم الملكي القيصري والحنين لباكو قبل وصول البلاشفة عالمًا مثاليًّا يحن إليه دائمًا؛ ألا يذكِّرنا ذلك بما تحدث عنه ستيفان تسفايج في سيرته **عالم الأمس**، أو سيرة حياة شكيب أرسلان بعد سقوط الخلافة العثمانية التي انتمى إليها، وتشكُّل عالم جديد مختلف كليًّا. قريبٌ من ذلك يحكي لنا توم ريس عن جده النمساوي الذي ساوره الشعور نفسه مع سقوط الإمبراطورية النمساوية-المجرية، وبسقوط إمبراطورية الهابسبورج تغيَّر الكثير في تلك المنطقة، وهاجرَ العديد من اليهود إلى أمريكا، أو سقطوا ضحايا للنازية.

يبني توم ريس قصة حياة قربان سعيد على إستراتيجية أسمَيتُها «الاستطراد التاريخي»؛ مثال ذلك عندما يأتي الحديث عن ولادة قربان في باكو؛ يقف وقفة عند باكو وصراعات بارونات النفط، وأهمية النفط فيها؛ يصل في هذا الاستطراد إلى لمحة حول الحرب العالمية الثانية، والصراع بين ألمانيا وروسيا على نفط باكو، واستشهاد بمواقف هتلر في إصراره؛ للوصول إلى تلك المنطقة، وعن دور باكو في تاريخ الاتحاد السوفييتي؛ يتوقَّف بعدها ليعود ويلتقط خيط الحكاية، ويقصُّ عليك من نبأ قربان سعيد، الاستطراد التاريخي يبرُز عند ظهور شخصية على مسرح الأحداث؛ فمثلًا ستالين يزور باكو؛ هنا يجب أن يستطرد عن تاريخ علاقة ستالين بهذه المنطقة، وموقف لينين والبلاشفة منها.

يقرأ توم ريس شخصية قربان سعيد بوصفها جزءًا مما يسميه نمط «اليهودي الشرقي»، وهي ظاهرة شاعت في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكن نُسيت في عصرنا الحالي. عُرفت هذه الظاهرة في أوائل العصر الفيكتوري في إنجلترا؛ حينما كان الشباب من العائلات اليهودية الثرية والشهيرة ذات النفوذ في مجتمعاتها، مثل وليام جيفورد، وبنيامين درزائيلي، ينطلقون للبحث عن جذورهم المشرقية في الصحراء، في حالة بيلجراف؛ وصل الجزيرة العربية، وانتحل شخصية طبيب مسلم، وعمل في الخفاء لصالح طائفة الجيزويت، وأدار مؤامرة نابليون الثالث؛ لتأليب العرب على العثمانيين؛ أي قبل خمسين عامًا من قدوم توماس إدوارد لورانس؛ المعروف بلورنس العرب. كانت مذكرات بيلجراف من أعلى الكتب مبيعًا، حتى غلبت عليها مذكرات لورنس بعد ذلك. الاستشراق اليهودي يرى المشرق لا مكانًا لاستكشاف الغريب عنه؛ ولكن موضعٌ يستكشف فيه جذوره الشخصية، وأحيانًا عدَّ المستشرقُ اليهودي العربَ إخوة دم، أو يهودًا على ظهور خيول؛ كما صاغها دزرائيلي.

تُرجمت رواية **علي ونينو** لقربان سعيد إلى العربية، وتحولت إلى فيلم من إنتاج أمريكي، كما تُرجمت روايته الأخرى **فتاة من القرن الذهبي**؛ بالإضافة للسيرة التي كتبها توم ريس، والتي تُعدُّ درسًا في كتابة التراجم الشخصية.

(٦) برتراند راسل: تجارب مسالم في الحرب العالمية الأولى

عشتُ مع برتراند راسل من خلال كتابه **صور من الذاكرة**، من ترجمة أحمد إبراهيم الشريف، وكتابه الآخر **سيرتي الذاتية**، وأعجبني ما يحكيه في سيرته الذاتية عن الانفعالات الثلاثة التي تحكمت في حياته؛ انفعالات بسيطة لكنها متناهية القوة؛ أولها الحنين للحب، والبحث عن المعرفة، والإشفاق الشديد على الذين يقاسون ويتعذبون، وقد قذفته هذه الانفعالات كالرياح العاتية في طريق غير مستقيم فوق بحرٍ عميق من العذاب.

وُلد برتراند راسل في فبراير/ شباط ١٨٦٧، في زمن المدِّ العالي للتفاؤل في العصر الفيكتوري. كان الظنُّ السَّائد أن الحرية والرخاء سينتشران في العالم تدريجيًّا، وبترتيب منظَّم. وُلد راسل في عالم ما قبل الحرب العالمية الأولى ١٩١٤، والتي ستصبح نقطةً فارقة في حياته الشخصية؛ حيث رأى تلاشي الدول العريقة كما يتلاشى ضباب الصباح.

نشأ راسل في بيئة مثقَلة بالتقاليد، ومات والداه قبل أن يعلَقا بذاكرته، وكان والده يميل إلى الفلسفة والدرس، وكان أحد مريدي الفيلسوف جون ستيوارت مِل وصديقًا له، ونشأ في رعاية جدِّه وجدَّته؛ كان الجو العام في المنزل قوامه التقوى والتقشف البيوريتاني، وكان الطعام في بساطة الطعام الإسبرطي، لقد كانت طفولةً تتسم بالخجل والوحدة؛ فلم

يجرب متَع الطفولة الاجتماعية، لكنه عشق الرياضيات منذ صغره؛ أهدته جدته إنجيلًا كتبت على صفحته الأولى النصوص الأثيرة لديها؛ ومنها: **لا تتبع الكثيرين في فعل الشر**، ولقد كان من أثر تلك المقولة ما جعله في فترات متأخرة من حياته لا يخشى الانتماء إلى أقليات ضئيلة العدد.

التحق راسل بجامعة كمبردج في سن الثامنة عشرة، وشعر بالارتياح في الجامعة؛ حيث وجد نفسه بين قوم يتكلمون نوعًا من اللغة الطبيعية على مسمعه، وكان إذا أخذ يتفلسف لم يُحملقوا فيه كأنه مجنون، ووجد نفسه في عالم يقدِّر الذكاء، وفي الجامعة كوَّن صداقات، ولم يعد مضطرًا لاحتمال الوحشة التي عانى منها في سنوات المراهقة؛ خصص السنوات الثلاث الأولى من دراسته بالجامعة للرياضيات، وخصَّص السنة الرابعة للفلسفة، وكانت دراسة الفلسفة متعةً فتحت عينيه على مشكلاتٍ جديدة مغرية؛ تمنى لو شارك في حلِّها؛ لقد ناسبته بيئة كمبردج مناسبةَ القفاز للكفّ.

عندما انتهت دراسة راسل في الجامعة كان عليه أن يقرر إن كان سيهَب حياته للفلسفة أم للسياسة؛ أما السياسة؛ فقد اشتغلت بها أسرته منذ القرن السادس عشر؛ لذلك بدا الاهتمام بالفلسفة كأنه خيانة لأجداده، وأخذت تتوالى الفُرص أمامه للالتحاق بالعمل الدبلوماسي، وعُرضت عليه وظيفة في سفارة بريطانيا في باريس؛ لكن إغراء الفلسفة لم يكن يُقاوم، ومنذ تلك اللحظة وحياته ليست أكثر من صراعات يُسلمه أحدها إلى الآخر، حتى ظنَّ بعض الناس أنه يحب تلك التحديات.

جرى كل شيء سهلًا بعد اختياره العمل الأكاديمي بالفلسفة، حتى كانت سنة ١٩١٤؛ حين اندلعت الحرب العالمية الأولى. لقد آمن راسل أن الحرب حماقة وجريمة تقع مسئوليتها على كل الدول المنخرطة فيها، ورجا أن تظل إنجلترا على الحياد، وأخذ يحتجُّ، لكنه وجد نفسه معزولًا عن أكثر أصدقائه القُدامى، وكان وقع العزلة مؤلمًا على نفسه؛ حتى أنه شعر بالغربة والبُعد عن مجرى الحياة الوطنية.

قضى أصيلَ أحد أيام شهر أغسطس / آب متجولًا في الطرقات؛ وخاصة في جوار ميدان الطرف الأغرّ؛ يرقُب الحشود الهاتفة الفَرحة بإعلان الحرب؛ بينما هو يسير ليتلقى مشاعر السابلة. وتبيَّن له في ذلك اليوم أن الرجل والمرأة العاديين كانا مُبتهجَين لوقوع الحرب، وقد كان يظنُّ قبل ذلك أنَّ الناس مسالمين، وأن الحرب تُفرض على أناس عازفين عنها بفعل حكومات مستبدَّة وصولية مكيافيلِّية.

يحكي راسل أنه لو كان مؤمنًا لسمَّى ذلك الصوت الذي سانده في تلك الفترة صوت الله الذي يستحثُّه على المضي في الاحتجاج ضد الحرب. وموقف راسل من الحروب ليس موقفًا نهائيًّا؛ فهو يرى أن الحرب العالمية الثانية ضرورية؛ لأن الظروف والملابسات كانت مختلفة، وكل ما جعل الحرب العالمية الثانية في حكم الضرورة هو أخطاء الحرب العالمية الأولى، وما تلاها من بروز الشيوعية الروسية والفاشية الإيطالية والنازية الألمانية. لقد خلَّفت الحرب العالمية الأولى عالمًا مظلمًا لا يعرف الاستقرار. وقد حاول راسل أن يقنع الناس أن الألمان أقلُّ شرًّا مما تُصورهم الدعاية الرسمية؛ لأن جانبًا كبيرًا من الشرِّ

نجم من قسوة معاهدة فرساي، لم تكن هذه التجربة هي نهاية عُزلة راسل عن المواقف الوطنية؛ بل كانت البداية فقط.

كانت مشاعره الوطنية تُعذِّبه؛ فهو يتمنى أن تنتصر إنجلترا على الألمان؛ لأن حب إنجلترا عاطفة قوية في رُوحه؛ فكان في تظاهره بإلقائه جانبًا، وعدم مبالاته بها كأنما يتخلى عن شيء يصعب التخلي عنه. كانت رؤيته موتَ الشباب في الحرب تُمزِّق قلبه، وقد قضى أربعة أشهر ونصفًا في سنة ١٩١٨ سجينًا بسبب الدعوة إلى الجنوح للسَّلم، ولكن سُمح له بالقراءة والكتابة في السجن، بفضل تدخل آرثر بلفور. وجد راسل في تجربة السجن فرصةً لاستراحة؛ فلا مواعيد، ولا قرارات يصعُب اتخاذها، ولا خوف من الزيارة المفاجئة، ولا مقاطعة وهو يعمل؛ فقرأ كمًّا هائلًا من الكتب، وكتب كتابه **مقدمة للفلسفة الرياضية**، وشرع بآخر هو **تحليل العقل**، واهتم بقصص السجناء معه. أُفرج عنه بحلول الهدنة، ورأى جنديًّا بلجيكيًّا؛ فأخبره بحلول السلام فقال الجنديُّ: «الله هذا جميل»، ودخل محلًّا للتبغ، وأخبر البائعة، ففرحت وقالت: «نستطيع التخلص من الأسرى الألمان»، ورأى الناس تفرح جذلة بخبر نهاية الحرب.

كذلك لم يرحِّب راسل بالحكومة الثورية في روسيا، وزار روسيا عام ١٩٢٠، وتحدث مع لينين، وشعر أن نتائج هذه الثورة ضد طموحات أي شخص يحب الحرية، وشعر أن مردَّ الأزمة هو ازدراء الحرية وإهمال الديمقراطية، وأعلن راسل أن الحكم البلشفي ملعونٌ في وقت مبكر خالف فيه حماسة أصدقائه البريطانيين للثورة؛ لقد شعر في روسيا أن البلد سجنٌ كبير، سجَّانوه شرذمة من المتعصبين القُساة، لقد شعر أن حركة التطور التاريخي تدفع كل حميَّة ثورية إلى التسلط والاستبداد.

شُغف راسل بالفلسفة والرياضيات، وتمنَّى أن يجد فيهما شيئًا من الاطمئنان يُغنيه عن اعتناق الأديان، ولقد حقَّق أحد أحلام طفولته في أن تصله رسائل وخطابات مدح وثناء من العلماء الأجانب الذين لم يعرفوه إلا من كتاباته، وفي المذكِّرات حديثٌ عن الكثير من رجال عصره وأدبائه؛ مثل جورج برنارد شو الذي يعدد جهوده ودوره، ويقول عنه: «لقد كانت لبرنارد شو فضائل كثيرة تستحق الإعجاب؛ كان غير هيَّاب بالمرة، وكان يعبر عن آرائه بنفس القوة؛ سواءٌ أكانت تعجب الجمهور أم لا تعجبه؛ والخلاصة أنه كثيرًا ما عمل صالحًا، وقليلًا ما أساء، وأنه كحاطمِ أصنامٍ جديرٌ بالإعجاب، ولكنه كصنمٍ لا يستحق كل هذا الإعجاب». ويحكي لنا عن جوزيف كونراد الذي كتب خطابًا لراسل بعد أول لقاء بينهما؛ يقول فيه: «عاطفة إعجاب عميق لو لم يُقدَّر لك أن تراني بعد اليوم، وقُدِّرَ أن تنساني غدًا؛ لظلت العاطفة قائمة عندي بلا تغيير للأبد».

كنت أعود للنسخة القديمة المترجَمة عن دار المعارف، وشعرت أنها أكثر تفصيلًا وشرحًا لحياة راسل؛ لقد شعرت بالمتعة، وأنا اقرأ هذه المذكرات. إنك تتمتع بالعبارة المتزنة، والكلمة الطريفة، وخلاصات التجارب بين السطور، ويحلو لك أن تضع علامةً على سطر أعجبك وتُردِّدُه أمام صديقك، ولقد تذكرتُ كتاب **عصارة الأيام** لسومرست موم، وأنا اقرأ في مذكرات برتراند راسل؛ لعل المشترك بينهما هو السرد السَّلس، وتحليل المواقف، وبعضُ من خفَّة الروح، والتواضع في تقدير الذات. والطريف في شخصية راسل، وهو الرياضي والفيلسوف، سلاسة اللغة لديه؛ إنه يشرح ما يريده بجلاءٍ؛ على الأقل في سيرته، ويطمئن

قلبك وهو يعترف بغموضٍ كثيرٍ من أفكار صديقه هوايتهيد الفلسفية. إنها رحلةٌ ممتعة تتعرف فيها على شخصية رأت نفسها منذ طفولتها خُلقت لعظائم الأمور، واحتكَّت بالعقول المميزة، وترى في الصفحات وصفًا للكثير من الشخصيات؛ مثل د. هـ. لورنس، و هـ. ج. ويلز وجورج سانتيانا، وغيرهم ممَّن احتك بهم.

يحكي برتراند راسل عن العديد من أصدقائه في كتاب **صور من الذاكرة**؛ مثل الفيلسوف لودفيغ فتجنشتين؛ الذي ظلَّ راسل يسأل نفسه فصلًا دراسيًّا كاملًا: أهو عبقريٌّ أم مجرد شخص غريب الأطوار؟ وذهب فتجنشتين يسأل راسل عن رأيه في أفكاره ومزح معه: «إذا قلتَ لي إني معتوهٌ مُطبق العته، فسأغدو طيارًا؛ أما إذا لم أكن كذلك، فسأغدو فيلسوفًا».

فطلب راسل منه أن يكتب شيئًا في موضوع فلسفي ليقرأه، وقرأ راسل ما كتبه وقال له: «لا يصح لك أن تكون طيارًا»، لكن راسل يحكي عن غرابة فتجنشتين أحيانًا؛ مثل زياراته في منتصف الليل، والحديث عن الانتحار كثيرًا، وعن عبقريته أيضًا.

أما صديقه تيودور فيقول عنه: «كان يوحي بأعمق المودَّة في نفس كل من يعرفه، ولست أعرف غير امرأة واحدة في الدنيا بأسرها لا يسرُّها أن تقترنِ به؛ وتلك بالطبع المرأة الوحيدة التي كان يتمنى أن يقترن بها».

أما بوب تريفليان؛ فكان أشد من عرفهم برتراند راسل غرامًا بالكتب، وقد ابتدع راسل سؤالًا اختباريًّا للناس؛ حتى يعرف إن كانوا من المتشائمين أم لا: «إذا أوتيت القدرة على تحطيم العالم؛ هل تحطمه؟»

قال بوب: «ماذا، أحطم مكتبتي، أبدًا!» هكذا كان يرى أن العالم هو مكتبته.

أما جوزيف كونراد؛ فقد كانت بينهم علاقة قوية، وأطلق راسل اسم جون كونراد على اسم أول أبنائه، ولقد رآه ذات مرة في الشارع يتحدَّث مع أحدهم، فلم يقاطعه، وأكمل طريقه، ومات بعدها جوزيف كونراد، وأسِف راسل أنه لم يكن أجرأ مما كان، ولم يتقدم لمصافحته، ثم قال: لقد كان يقف أمام بيتٍ سوَّاه هتلر بالأرض في الحرب، أما كونراد؛ فهو في طريقه إلى النسيان، ولكن نُبله الدافئ الكبير يسطُع في ذاكرته؛ كما يسطع نجمٌ في عين رجل في قاع بئر، ولكنه يتمنى لو استطاع أن يجعل ضياءه يسطع على غيره؛ كما سطع عليه من قبل.

(٧) بعث صدَّام حسين:
رؤية من داخل نظام استبدادي

«لقد جاء حزب البعث للعراق ليحكمه ثلاث مئة عام قادمة» - صدَّام حسين.

هكذا ينقل يوسف ساسون الأستاذ المشارك في مركز الدراسات العربية المعاصرة بجامعة جورجتاون، في كتابه اللَّافت: **بعث صدَّام: رؤية من داخل نظام استبدادي**. يقوم هذا الكتاب على تحليل الكثير من وثائق حزب البعث وقراءتها؛ ومن خلال الوثائق يمكن فهم أسلوب إدارة دولاب العمل الداخلي لدولة عربية معاصرة. والكتاب لا يعود كثيرًا إلى مقالات الجرائد وغيرها من المصادر الثانوية الأخرى؛ فمن خلال النظر في وثائق الحزب نفسه، اعتمد الكتاب على رواية الحزب عن نفسه. وبهذه الطريقة استطاع المؤلف التنقيب في أحشاء حزب أوحد حاكم لدولة عربية وقعت في قبضةِ أيديولوجية سلطوية.

يعتمد الكتاب على السجلات الحكومية الهائلة التي استولت عليها الولايات المتحدة الأمريكية بعد غزو العراق، وسقوط صدَّام في إبريل / نيسان ٢٠٠٣؛ تلك السجلات التي تُقدَّر بالأطنان، والتي أشرف على خروجها كنعان مكية؛ وهي عبارة عن سجلات حزب البعث، وأجهزة المخابرات، وعلى وجه التخصيص جهاز الأمن الخاص، والديوان

الرئاسـي، ووزارة الإعـلام، وكذلـك شـرائط التسـجيلات الصوتيـة لاجتماعات مجلس قيادة الثورة.

حزب البعث

مكَّن تطويرُ جهاز حزب البعث خلال الأعوام الخمسة والثلاثين التي قضاهـا في الحكـم قيادةَ الحزب مـن التغلب على الصراعـات الداخلية، واجتيـاز حربيـن مدمرتيـن، والصمود فـي وجه حصار وحظـر وعقوبات دوليـة قاسـية، وخـوض معارك ضـد الشيعة والأكراد فـي أثنـاء انتفاضة ١٩٩١؛ ليكـون الحزبُ الذراع الطويلة لصـدَّام، بعدما أصبح تنظيمًا قويًّا مؤثرًا؛ حتى إنه لعب دورًا في الحفاظ على سلطة النظام وبنيته.

يشـرح لنا ساسـون بنية الحزب؛ حيث احتل أعضاؤه أغلب الوظائف المهمة في البلاد، وكان كل قرار كبير وخطير في الدولة يخرج من مكتب قيـادة الحـزب؛ أي أمانة سـرِّ الحـزب، ويصف لنـا الكتاب أحد الشُّـعَب المهمَّة داخل الحزب؛ وهي «قسـم المعلومـات الخاصة»، وكان يختصُّ بفحـص المعلومـات عـن أي عضـو بالحـزب يطلُب شَـغل منصـب مهمٍّ بالحزب أو الجهاز الإداري التنفيذي للدولة.

على المستوى الوطني؛ كانت أهم وظائف الحزب وأخطرها أن يكون عيـن النظـام وأذنه في كل ركنٍ من أركان البلاد، ومع مرور الوقت تدخل الحزب في الكثير من الملفات، وكان له نفوذٌ على قُوى الأمن، والجيش، والبيروقراطية الحكومية، والعمال، والاتحادات، والنقابات المهنية. كما أسَّس الحزب لعبادة الزعيم القائد، صدَّام حسين، وشرعنها ونشر الدعوة إليهـا. وابتداءً من عقد التسـعينيات؛ شـرع الحزب فـي التدخل في توزيع

حصص الطعام، وفي ملاحقة واعتقال المنسحبين وهاجري الحزب، وفي الإعداد لمقاومة الغزو في ٢٠٠٣.

تمويل الحزب

يشير الكتاب إلى إدراك صدَّام لأهمية التمويل في نجاح إدارة الحزب، وطبقًا لما يذكره جواد هاشم، الذي شغل منصب وزير التخطيط والمستشار الاقتصادي لمجلس القيادة القُطرية لحزب البعث - قرَّر صدَّام حسين احتجاز نسبة ٥٪ من عوائد النفط العراقي في خزانة حزب البعث، وكانت تلك النسبة تملكها مؤسسة كولبنكيان قبل تأميمها عام ١٩٧٣، وحسب تقديرات هاشم تراكمت تلك النسبة في حسابات سرية خارج العراق، ويقدِّر أنها بلغت نحو ١٠ مليار دولار عام ١٩٨٩ دون حساب الفوائد السنوية لهذا الاستثمار في البنوك الأجنبية.

بل إن الحزب حافظ على تحصيل رسوم الاشتراك من الأعضاء أنفسهم؛ والتي تزيد مع ارتفاع رتبة العضو في الحزب، وكانت هناك مراقبة سرية للتفاصيل المادية لمنتسبي الحزب؛ لأن أي تغيير مفاجئ في الحالة المالية لأي عضو بالحزب، يعني أنه يمكن أن يصبح عرضة للضعف، واحتمال قبوله التعاون مع خصوم الحزب مقابل ثمن مادي، وبالتالي يمسي مصدر تهديد لأمن الحزب.

الانضباط الحزبي

اعتمد الكاتب على ما اطلع ليه من وثائق في تفسير أهمية الانضباط الحزبي، وهي القضية التي أولاها صدَّام اهتمامًا شخصيًّا. كان كبار

أعضاء الحزب يُعاملون بازدراء واحتقار إذا استعملوا سيارات الحزب في تنقلاتهم الشخصية، وثمَّ وثائق لمراقبة مواعيد وصول الأعضاء إلى أماكن عملهم. كان هناك فسادٌ داخل الحزب لا شك، وكذلك إساءة استعمال السلطة؛ إلا أن أعضاء الحزب، قُدامى وجُدُد، لم يعرفوا أبدًا إن كانوا سيُعاقَبون على أفعالهم أم لن يُعاقبوا. وقد عمِل انعدام اليقين ذلك بوصفه أداةً مقيدة، وكان كافيًا للهيمنة عليهم بالإيعاز والإيحاء.

اتخذت الهيمنة على حياة الأعضاء أشكالًا أخرى؛ فقد كان على الأعضاء أن ينتظروا الحصول على موافقة أمانة سرِّ الحزب قبل إقدامهم على الزواج؛ كما هو متَّبع بالنسبة لضباط الجيش، وفور أن اندلعب الحرب مع إيران، كان على الحزب مراجعة أية أصول إيرانية لمنتسبيه. واحدة من المذكرات الصادرة من أمانة سرِّ الحزب كانت موجَّهة مباشرةً لصدَّام حسين؛ تنقل إليه أن «الحزب يعاني وجود أعضاء لا ينحدرون من أصول عربية؛ وأن ذلك قد يكون خطرًا على الحزب في المستقبل». وأوصت تلك المذكرة ألَّا يُمنح أي عضو من أصل إيراني شرف الانتماء للحزب. سجَّل صدَّام حسين رأيه على هامش المذكرة: «أوافق على رأي أمانة سرِّ الحزب، ويُناقَش في اجتماع القيادة».

يُلاحظ يوسف ساسون، من خلال قراءة وثائق الحزب الداخلية، أنه كانت هناك رقابة داخلية قاسية وانضباط تامٌّ داخل الحزب. في إحدى المناسبات أُرسلت مذكرة تنتقد أعضاءً بالحزب حضروا اجتماعًا دون أن يكون لديهم دفتر لتدوين الملاحظات، أو آخرين جلسوا بشكل غير ملائم واضعين ساقًا فوق أخرى، وتم تذكيرهم بأن القائد (صدَّام حسين) ذاته استنكر تلك العادة في الجلوس بوصفها دلالةً على افتقاد الانضباط

الحزبي. وثمَّ عادة أخرى تمت مراقبتها في الحزب؛ وهي عادة لعب الورق، وقد حُذِّر منتسبي الحزب منها. وهناك عادات كان يصعب تغييرها؛ فقد طلب عضو من أعضاء القيادة القُطرية أن يمتنع العراقيون عن إطلاق النار في الهواء تعبيرًا عن الفرح، لكن صدَّام حسين رفض ذلك الاقتراح؛ إذ رأى أن تلك الممارسات تسمح للأعضاء أن يُعبروا عن أنفسهم بحرية. بل إن الحرص على مراقبة الأعضاء وصل حدَّ ضرورة اجتياز اختبارات اللياقة البدنية لمنتسبي الحزب، وأن يُجروا فحصًا طبيًا؛ للتأكد من صحة لياقتهم البدنية، ولو لم يجتازوا الفحص مرتين متتاليتين، كانت مرتبتهم تُخفَّض إلى الدرجة الحزبية الأدنى.

يشرح الكتاب كيفية الحصول على عضوية الحزب، وتجنيد الأعضاء؛ خصوصًا مع وصول الحزب للحكم عام ١٩٦٨. عندها قرَّر الحزب أن يزيد من عدد أعضائه كثيرًا؛ ليتمكن من منافسة الأحزاب الأيديولوجية الأخرى؛ وعلى وجه الخصوص الحزب الشيوعي الذي كان يحظى بشعبية كبيرة. ومورست ضغوط هائلة بلا كلل لضمِّ أعضاء جُدد، وبلغت تلك الضغوط حدًّا وصل إلى أن كبار قادة الحزب وجَّهوا تعليماتٍ للفروع بأن كل مُوالٍ للحزب عليه أن يضم عضوين جديدين، على الأقل، كل عام، وأن على أعضاء الحزب أن يعملوا على ضم أبنائهم وأقاربهم.

تخيل ساسون حياة عضو عامل في الحزب أطلق عليه اسمًا افتراضيًا، محمد مثلًا، وتتبع رحلة ذلك العضو من خلال وثائق الحزب، وكيف يُرقَّى ويُراقب، كما تتبَّع ساسون أنشطة الحزب الثقافية، والدعايات، والفعاليات التي يقوم بها. كان صدَّام مهتمًا بالشأن الثقافي، وكان في غاية السخاء تجاه أي شاعر يمتدحه في قصائده، وكمثال على اهتمام صدَّام

بالأدب واللغة يُورد ساسون قصةً عن مشاهدة صدَّام للتلفاز في شهر سبتمبر / أيلول عام ٢٠٠٠، وسماعه مذيع القناة يقعُ في الكثير من الأخطاء النحوية فيما هو يقرأ أوامر القائد (أوامر صدَّام حسين). فاستدعى وزير الثقافة والإعلام من فوره، وتشكَّلت لجنة خاصة على وجه السرعة لتحرِّي أسباب المشكلة، واتُّخذ قرار بأن يُعيد المذيع القراءة على الوجه الصحيح دون أخطاء، كما عوقب، أي المذيع، بإيقافه عن العمل مدة ستة أشهر.

جهاز الأمن الخاص

يعود يوسف ساسون للوثائق ليقرأ تاريخ الأجهزة الأمنية في العراق. وحين نُطالع تفاصيل عمل هذه الأجهزة نرى عالمًا يشبه عالم رواية ١٩٨٤ لجورج أورويل؛ فالأخ الأكبر يراقبك في كل مكان. ويفصِّل الكاتب في تاريخ جهاز الأمن الخاص ودَوره؛ حيث كان أقوى الأجهزة الاستخبارية العراقية، وكان حسين كامل المجيد، زوج رَغَد ابنة صدَّام ذو كفاءة في إدارته، وأصبح قُصي صدَّام حسين رئيسًا للجهاز بعض الوقت، والكتاب يعتمد على وثائق القيادة القُطرية لحزب البعث التي تُظهر كيفية عمل ذلك الجهاز.

مهمة هذا الجهاز هي حماية الرئيس؛ غير أنه في أواخر الثمانينيات، نُزعت هذه المسئولية من جهاز الأمن الخاص، ونُقلت إلى مجموعة خاصة تشكَّلت وقتها عُرفت باسم «مجموعة الحماية»؛ مكوَّنة من حرَّاس في الرئاسة. كذلك من بين الأفرع التي كانت تحت إدارة الأمن الخاص

فـرعٌ علمـي يُدير مختبـرًا لفحص الطعام الـذي يُقدَّم للرئيـس، عن طريق تحليل عينات منها.

كلما غادر الرئيس أحد قصور الرئاسـة، اسـتنفر كل نظام الأمن، وكان على جميع أجهزة الأمن الأخرى أن تتبع أوامر جهاز الأمن الخاص؛ هذه الإجراءات التي يقوم بها الجهاز في حماية أمن الرئيس طبيعية، وتحدث في الدول الديمقراطية، لكن المختلف في تجربة هذا الجهاز هو تشـديدُ الرقابـة على جميع الدوائر اللصيقة بالقائد العظيم؛ يشـمل ذلك العاملين بالقصور الرئاسـية؛ مثل الكهربائييـن، واللحَّامين، والحائكين، والكوَّائين الذيـن يعـدون ملابـس الرئيس، وكذلك السـائقين، والمصورين؛ تشـمل المراقبة تركيب أجهزة تسجيل خفية في بيوت العاملين بالقصور الرئاسية، والتنصُّت على الهواتف في العمل والبيوت، والجمع الدائم والدقيق لأي معلوماتٍ تخصُّ هؤلاء الأشخاص.

إحدى المشاكل التي واجهت فرع الأمن الخاص، بناءً على الوثائق، هـو أن أكثـر العامليـن بالقصور الرئاسـية، الذين وصـل عددهم ١٣٠٠ عـام ١٩٩٥، كانـوا مـن المسـيحيين؛ ولأن أولئـك العامليـن كانـوا يتحدثـون إلى بعضهم، ومع عائلاتهم باللغة الآشـورية والكلدانية؛ فقد كان مـن الصعب علـى جهاز الأمن مراقبة المكالمـات الهاتفية، ويبدي كاتـب المذكرة الأمنية قلقه من أن فك شـفرة هـذه النصوص وترجمتها يسـتغرق أحيانًا ثلاثة أيام؛ وهي فترة كافية لتدبير مؤامرة، فتمَّ تخصيصُ مزيدٍ من الأموال لتشـغيل المزيد من الآشوريين والكلدانيين في أعمال المراقبة.

في وثيقة أخرى نجد مُخبرًا يبلغ عن زوجة طباخ الرئيس، وأنها تدمن ألعاب الميسر والقمار والمراهنات، وأنها خسرت ذات مساء ٣٠٠٠٠ دينار عراقيٍّ (نحو ٣٠٠ دولار أمريكي). يرى جهاز الأمن في لعبها القمار نقطة ضعف للاختراق الأمني، وتُرفع مذكرة لصدَّام تُوصي باعتقال الطبَّاخ وزوجته، فيكتب صدَّام بخط يده على هامش المذكرة: «يجب أن تكونوا أكثر صبرًا، وبدلًا من الاكتفاء باعتقالهما، يجب أن تزرعوا واحدًا من الجهاز ليلعبَ الورق في بيت الطباخ؛ فيمكن له أن يخبرنا عما يدور، وعن الأمور التي يتحدثون عنها في تلك الليالي». بعد أسبوع رُفع تقرير مفاده أن أحد أفراد جهاز الأمن الخاص بدأ يشارك زوجة الطباخ في لعب الورق بالفعل.

تدل الوثائق على تحول جهاز الأمن الخاص من حماية الرئيس إلى مؤسسة عائلية خالصة؛ مهمتها حماية أمن أفراد عائلة صدَّام، ومراقبة جميع من يعمل في دوائرهم؛ مثلًا حين كان أطفال قصي، نجل صدَّام، على وشك الالتحاق بدار حضانة، طلب نائبه معلومات مفصَّلة عن ستة من المعلمين فيها؛ بل إن المذكرات تشير إلى كون عُدي، نجل صدَّام الثاني، كان كثيرًا ما يطلبُ معلومات عن أناس وأفراد دون أن يذكر سببًا لطلبه، وفي الحال تنشط جميع الأجهزة الأمنية لجمع المعلومات؛ بل إن قوارب ويخوت عُدي تمتعت بحماية جهاز الأمن الخاص، وتمت مراقبة طواقم الإبحار والفنيين وفحصهم أمنيًّا.

كما تعرَّضت العلاقات العاطفية بين موظفي الجهاز أنفسهم للمراقبة، فعلى سبيل المثال رُفعت مذكرة مفادها أن أحد العاملين في الجهاز يجلب نساءً الى شقته في أوقات متأخرة من الليل، وكان هاجس الخوف العلاقات الغرامية يسيطر على تقارير الجهاز. وثمَّ هناك وثيقةٌ عن أحد

العاملين بالجهاز تُفيد بأنه أقام علاقة غرامية مع سيدة كردية، فانزعج قادته انزعاجًا شديدًا من هذه العلاقة. وفي الكتاب الكثير من التفاصيل عن أساليب الهيمنة على العاملين بجهاز الأمن الخاص والسيطرة عليهم.

لم يكون الخوف هو الدَّافع الوحيد للعمل بالجهاز؛ فهناك أيَا العطايا والمكافآتَ؛ التي أسهمت في نجاح هذه المؤسسة. ويستعرض الكتاب أنواع تلك المزايا التي يتمتع بها المنتمين للجهاز؛ مثل الشقق السكانية المجانية، وتخصيص أراضي لهم، ودفع تكاليف التعليم لمَن يودُّ منهم استكمال التعليم الجامعي.

كان جهاز الأمن الخاص كليَّ الوجود والسلطة؛ فكانت له الكلمة النهائية في أي ترقية لمنصب رفيع أو الإقصاء من داخل النظام، ويحتوي الكتاب على نماذج لشكاوي المواطنين من فساد الجهاز، واستغلاله للسلطات، وطرق مراقبة النظام لهذه التجاوزات. كما يحتوي الكتاب على قصص عن كيفية جمع المعلومات داخل هذا الجهاز من خلال المخبرين الذين سمَّاهم النظام الـ «مُؤتمَن». وكان نظام البعث يجمع كمًّا هائلًا من المعلومات، مثل كل النظم السلطوية وعلى رأسها النظام السوفييتي الذي كان نموذجًا يُحتذى للنظام البعثي. كانت المعلومات تُجمع عن المواطنين من مختلف المستويات الاجتماعية والسياسية، ومن بين وثائق قيادة حزب البعث القُطرية؛ كان هناك ملف سميكٌ لطه ياسين رمضان؛ كان مكونًا من ثلاث مئة صفحة، ويحتوي على كل المعلومات المتعلقة به.

كان صدَّام حسين يعي تمامًا أهمية كل ما يمكن جمعه من المعلومات عن الأعداء المحتملين، وحين أرسل له مجلس قيادة الثورة تقريرًا يُفيده

فيه أن نجل طارق عزيز؛ (وكان طارق عزيز في ذلك الوقت وزيرًا للخارجية وموضع ثقة الرئيس)، يستغل منصب أبيه، ويتفاوض مع شركات أجنبية؛ ليستفيد منها عمولات، فكتب صدَّام على هامش التقرير: «عُلم، لا يجرى استجواب للابن، ولكن يُجمع عنه مزيد من المعلومات». بعبارة أخرى، أدرك صدَّام أن تلك المعلومات المدمرة يمكن أن تُستعمل ضد طارق عزيز؛ إن حادَ يومًا عن ولائه المطلق للرئيس.

يمنحنا الكتاب الفرصة لرؤية الطاغية فيما يمارس قَمعه من خلال أجهزته، ومن خلال العبارات المقتضَبة التي يكتبها على هوامش التقارير الأمنية.نعيش لحظةً نادرة لا تُتاح لنا كثيرًا نقرأ فيها عقلية المستبد، وكيفية إدارة البعث وأجهزته للبلاد التي تحولت إلى جمهورية خوف، مع انعدام الإحساس بالأمن، وعدم معرفة ما يخبئه الغد، والخوف من المجهول. مستوى هائل من الوسواس القهري، وصل إليه نظام صدَّام؛ ليُرغم الناس، كما تُطلعنا الوثائق، على الوشاية حتىعن أفراد العائلة الواحدة. وتصوِّر لنا الوثائق حجم ما مورس على المواطنين من إذلال، ومفاوضتهم في أبسط حقوقهم، وابتزازهم ليتحولوا إلى مخبرين. أُنهي حديثي بذكر وثيقة تتحدث عن موافقة معلِّم على أن يكون مخبرًا، أو «مؤتمَنًا» مقابل استلام ترخيص لمكتبة لبيع الكتب، وأخرى تحدثت عن ابتزاز تقني يريد الحصول على رخصة لفتح محل لنسخ المستندات؛ليعمل مخبرًا. ولعل هذه الوثائق والوقائع، تُعين المصابين بمرض عشق الطغاة وتحويلهم إلى أبطالَ خالدين؛ على أن يروهم على حقيقتهم، أي كمجرمين!

(٨) رياض الريّس:
رحيل صحفي المسافات الطويلة

«وأنـا بقيـتُ أطـاردُ ظِـلَّ التاريخ من بلـدٍ إلى آخر؛ غيـر أنني لم أصـل إلى سـوريا، لم أصـل قطّ إلـى الحدث السـوري؛ بلادي القريبـة، والتـي بـت اليوم بعيدًا عنها؛ شـأن أي لاجئ، في أشـد لحظات بلادي وحدةً ومرارة». رياض نجيب الريّس.

سيحزن رفُّ الكتب المخصص لتاريخ سوريا في المكتبة برحيل ناشر كبير وصحفي مشاغب، وسيفتقد عالمُ الكتب صحفيًا مثل رياض نجيب الريّس؛ الذي غادر عالمنا عن عمر ٨٣ عامًا؛ فهو من قدَّم عبر «منشورات ريـاض الريّس» و**مجلة الناقد**، العديد من الإسـهامات الثقافية المهمَّة في مجال النشر العربي.

يحكـي لنا رياض في أحد مقالاته عن لحظة إصابته بالفشـل الكلوي؛ تزامنًـا مـع بدايـة الثـورة السـورية، تعطَّلـت الكُليَتـان في الأسـبوع الأول لأحـداث درعـا؛ مما يعني أنه حظـي من ذلك الوقـت بصديق جديد، هو ماكينة غسـيل الكُلى، وأنه سيقوم برحلة بصورة منتظمة للمستشفى ثلاث مرات في الأسـبوع، وسـيلغي سـاعتها جدول أعماله المزدحم بالأسفار؛ وهـو الـذي تمنى أن يعود لزيارة البلاد التي كتب عنها قديمًا؛ مثل فييتنام، وحضرموت؛ ليجدِّد الكتابة عنها.

لم تُغفل عينا رياض نجيب الريّس حدثًا مهمًّا منذ منتصف خمسينيات

القرن الماضي. ولم يعتذر أمام مناسبة كبرى، أو حرب، أو انقلاب، أو غزو. أما عند مرضه؛ فكان عليه أن يكون بطريقة ما غائبًا ثلاث مرات في الأسبوع، غائبًا لا عن العالم وحسب؛ بل عن سوريا تحديدًا؛ سوريا التي عَنَت له في ذلك الوقت أكثر مما عنَته له في أي وقت مضى. لقد عبَّر عن هذا الأمر بمنتهى الألم: «أنا مُجبَرٌ في كل مرة على أن آخذ قسطًا طويلًا من الراحة قبل أن أعود إلى وعيي؛ لأراقب سقوط العالم في بلادي».

يعبِّر رياض الريِّس عن عمق حنينه إلى سوريا الذي يجتمع فيه حنين الإنسان، وحنين الناشط السياسي بالقول: «ألوِّح لسوريا وهي تبتعد؛ سوريا التي كان لعائلتي دورٌ أساسي في استقلالها؛ ما يزيد من شعوري بأنها توأمي؛ كما لو أن مصابًا واحدًا ضرب جسدَينا معًا». وهو يشير هنا إلى دور والده نجيب الريِّس مؤسس جريدة **القَبس** السورية؛ والذي كان مشاركًا في الكتلة الوطنية.

لقد شاهد رياض الريِّس أطفال دِرْعا، وعاين حجم الوحشية التي تعرض لها الأطفال من نظام الأسد، وجعلته المشاهد القاسية يشعر بأنه عاش طفولةً سوريةً مترفَة. يتذكر بيته الأول في حي «بستان الرئيس» بالشام؛ ينشر الصحف على حبال الغسيل في القبو، ويخرج إلى الشوارع التي لم يكن لحزب البعث أثرٌ فيها أو سُلطة، ويخطُّ الشعارات على جدِرانها رفقة غيره من الأولاد.

بدأ حياته الصحفية في جريدة **الصياد**، ثم عمِل محرِّرًا في قسم الاقتصاد في جريدة **النهار**؛ ذلك القسم الممل، على حد وصفه؛ فهو حيوان سياسي بتعبير أرسطو. ويبدو من سيرته وأحاديثه أنه حلس أخبار

ينتعش بالعيش في قلب الأحداث التاريخية، وتكمن متعته في الكتابة الصحافية؛ بل إن رياض الريِّس طلب من غسان تويني رئيس تحرير **النهار** أن يُغطي الحرب بين الجمهوريين والملكيين في اليمن، وأن يذهب للبلاد التي لا يفضِّلها الصحفيون الآخرون.

قدَّم رياض الريِّس للقارئ العربي العديد من الكتب والدراسات عن الخليج العربي والجزيرة العربية؛ لاهتمامه المبكر بهذه المنطقة؛ فهو متابع للأحداث السياسية فيها؛ يسمع برحيل الشيخ شخبوط، وصعود الشيخ زايد؛ فيطير إلى أبو ظبي ليكتب عنها، ويرى رحيل السلطان سعيد بن تيمور؛ فيذهب إلى عُمان لمقابلة السلطان قابوس والكتابة عنها. وقد عاصر مرحلة الخروج البريطاني من منطقة الخليج العربي في البحرين، وغيرها من دول الخليج العربي.

يروي لنا فرانك ميراميه في كتابه **الكتاب والمدينة: بيروت والنشر العربي** عن خروج رياض الريِّس من بيروت عام ١٩٧٦؛ ليستقر في لندن؛ حيث أصدر بعد سنتين **مجلة المنار الأسبوعي**، وخلافًا لدار الساقي؛ خرص نجيب الريِّس على ألا تكون دار النشر مهتمة بالترجمات في بداية نشأتها، وأن تهتم بالكتاب العربي.

يسرد نجيب الريِّس سيرته في كتابه **آخر الخوارج: أشياء من سيرة صحافية**، وقصة تفكيره في دار النشر عندما شعر أن السنوات تمرُّ دون أن يصدر في العالم العربي كتابٌ يلفت الأنظار. كان هذا بعد الحرب الأهلية اللبنانية؛ لذلك فكَّر في إنشاء دار نشر عربية من لندن، لأن هذه التجربةليست في حاجة إلى رأس مال ضخم؛ مثل الصحافة. كتب نداءً

للمؤلفيـن العـرب للمشـاركة معه في هذا المشـروع، وتلَّقـى خلال ثلاثة أشـهر مـا يزيد علـى ٨٠ مخطوطة من ٨٠ كاتبًـا لا يعرفهم، وفي مواضيع تتـراوح بين السياسـة والتاريخ والمذكرات والتراثيات والأدب والشـعر. يقول نجيب الريِّس أن كلمة السحر كانت هي الحرية والانفتاح.

في بداية نشـأة الـدار، التزم نجيب الريِّس بألا ينشـر إلا لكُتَّاب عرب، وفـي مواضيـع عربية، وقرَّر ألا يمارس أي نوع مـن الرقابة على المؤلفين الذين ينشرون معه، كما قرر أن يُصدر كتبه في أربعة مواسم سنوية؛ فنشر كتاب واحد يُظهره في صورة الناشـر الضعيف؛ وإن كان الكتاب في غاية الأهمية. تأسسـت شـركة «ريـاض الريِّس للكتب والنشـر» فـي لندن عام ١٩٨٦، أصـدرت الـدار أكثر من ٨٠٠ عنوان، وفي عام ١٩٩١ انتقل إلى بيروت نهائيًّا. يشرح الريِّس في أحد مقالاته أسباب انتقاله إلى لبنان قائلًا: «بيـروت هـي المدينة الوحيـدة في العالـم العربي التي تسـتطيع أن تعمل فيهـا، بيـروت قـد تكـون مدينة قـذرة لا كهرباء فيهـا ولا مـاء، فقيرة وهي تحمـل أكيـاس الليـرات اللبنانية التي لا قيمـة لها.. لكن يمكنـك أن تبيع على أرصفتها ما شئتَ من أحلام، أو أن تفتح فيها معملًا للنفايات، أو أن تنشـر فيهـا مجلةً ثقافيـةً دون أن يقول لك أحدٌ: ما هـذا؟»، ثم يحكي عن معاناتـه في غربـة لندن؛ فهو لـم يعرف قيمة بيـروت إلا بعد خروجه منها؛ بل إنه كان يرى عمره مهدورًا، وينزعج من هؤلاء الحُسَّـاد الذين يقولون لـه: «نيالك سـاكن في لندن». لقد كتب هـذا الكلام في أثناء إعلان عودته إلى بيروت؛ لأن لندن منفى، وسنديانة بغير جذور.

شـجَّع رياض الريِّس نشر الشـعر من خلال جائزة سنوية باسم «جائزة يوسف الخال للشعر»؛ تُمنَح لشاعر عربي شاب لـم يسبق له أن نشر ديوانًا

مـن قبـل، لـم يكتـف بذلك؛ بل أسَّـس «مكتبة الكشـكول» في لنـدن لبيع الكتب العربية، واستمرت هذه التجربة عشر سنوات.

وعند وصوله إلى بيروت، لـم تكن أوضاع النشر فيها صحنًا من الكَرَز حسـب التعبيـر الأمريكـي؛ بل تعـرض لمضايقـات عديـدة، وصلت إلى مصـادرة بعـض عناويـن نشـرها؛ إذ صادرت قـوى الأمن كتـاب **الروض العاطر في نزهة الخاطر** للشـيخ النفزاوي على سـبيل المثال، بعد أن تقدم الشيخ عبد اللطيف دريان رئيس مكتب مفتي لبنان حينها بشكوى للنائب العام، وكانت التجربة الثانية مع المنع في عام ١٩٩٥، بعد مصادرة الأمن اللبنانـي كتـب الصـادق النيهـوم، وكذلـك مُنـع العديـد مـن إصـدارات «منشورات رياض نجيب الريِّس» من التداول في السعودية.

في عام ٢٠٠٠، جرَّب أن يطرق أبواب دمشق، عارضًا على المسئولين فكـرة إعـادة إصـدار جريـدة **القبس** من دمشـق وبيـروت «جريـدة واحدة لشعبين»، وقد رأى أن ذلك أفضل ترجمة لعبارة «شعب واحد في بلدين». رفض النظام السوري المشروع، ودُفنت فكرة إحياء **القبس**، جريدة والده، إلى الأبد. وقد وَلَّد هذا المنع من العودة إلى دمشق ألمًا خاصًّا لديه.

قدمت«منشـورات ريـاض الريِّـس» العديد من الدراسـات المهمة في تاريـخ سـوريا؛ ونذكر هنا بعض المذكـرات التي تُوثِّق للذاكرة السـورية، ولتاريـخ سـوريا مثـل مذكـرات **الجيـل المُـدان**؛ السـيرة الذاتيـة لمنصور سـلطان الأطـرش، وكذلـك مذكـرات ضافـي جمعـان **مـن الحـزب إلى السـجن**؛ الذي انضم للبعث، ثم اعتقله حافظ الأسـد عام ١٩٧١، وأفرج عنه عام ١٩٩٤، وكذلك نشـرت مذكرات نصوح بابيل **صحافة وسياسـة**؛

الـذي توفـي عام ١٩٨٦، وهو يخـطُّ آخر كلمة فيها، وهـي أحد المراجع المهمَّة للباحثين في تاريخ سوريا، وكذلك كتاب **بين مدينتين: من حمص إلـى الشـام** لعدنـان الملوحي، ومذكـرات أحمـد الجنـدي المعنونة: **لهو الأيـام: مذكـرات سـنوات المتعـة والطـرب والثقافـة**، وكتـاب **شـاهد من المخابرات السـورية** لفوزي شـعيبي، و**ذكريات أيام السياسة** لعبد السلام العجيلـي، وكتـاب سـعاد جروس المعنون: **سـورية زمان نجيـب الريِّس**، وغيرها من الكتب.

لقد عدَّ البعض رياض الريِّس واحدًا من شيوخ الكار في صناعة النشر؛ بضرباتـه الجريئـة، ومعاركـه التي كان يسـير فيها عكس التيـار، وهو أحد رعـاة الذاكـرة السـورية والتأريـخ لها، وهو الـذي كان يتحـدث دائمًا عن الفـرق بين الناشـر وبائع الكتب، وما تُوحيه كلمة النشـر من معنى ثقافي، والبيـع مـن معنى تجاري. لا زلتُ أذكر المرة الوحيـدة التي رأيتُه فيها في الدَّوحـة منذ سـنوات يجلسُ بـكل ثقة يتحدث مع ضيـوف له عن صناعة النشـر، ودوره في اختيار عنوان الكتاب؛ لكي «يضرب في السـوق» بلُغة التجارة. هل ذكر عنوان: **لماذا تركت الحصان وحيدًا؟** لمحمود درويش، أم أن ذاكرتي وضعت هذه الذكرى للعبث بي؛ كما تفعل ألعاب الذاكرة؟

(٩) ذُبابة في الحِساء:
كيف وصف شاعر أمريكي حياة اللجوء؟

في الفصول الأولى من سيرته المعنونة: ذبابة في الحساء يحكي تشارلز سيميك عن المنفى، وهو يشعُر أن قصته ليست مميزة؛ فاللجوء بسبب الحروب أصبح شائعًا في عصرنا. حتى إنه عندما كان يترجم قصائد من سرايفو لمجموعة شعرية، واجه محرِّروها صعوبات كبيرة في العثور على الشاعرة التي كتبتها. لقد اختفت. لم تكن شاعرةً مغمورةً؛ كان لديها الكثير من الأصدقاء، لكن يبدو أن أحدًا لم يعرف ما حدث لها في فوضى الحرب.

في عام ١٩٤٥ انتهت الحرب العالمية الثانية، وتوقف الاحتراب بين الدول الكبرى، ونتج عنها هؤلاء المشردون؛ كما أطلقوا عليهم في تلك الفترة، وبفعل معاهدة يالطا، والاتفاقات بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي دفعت الأسر البريئة ثمنًا باهظًا لمجرد وجودها في أماكن الحرب. لقد جاء هؤلاء اللاجئين إلى أوروبا بخِرقهم البالية، ومناظرهم التعسة ويأسهم، جاءوا زرافاتٍ ووحدانًا من الشرق؛ فارِّين من الشرِّ بدون أية فكرة عمَّا ينتظرهم، ولم يكن لدى أحد في أوروبا ما يكفيه ليأكل. ويخبرنا تشارلز أن أسرته، مثل أسر أخرى عديدة، تمكَّنت من رؤية العالم مجانًا، والفضل في ذلك يعود لحروب هتلر، وسيطرة ستالين على أوروبا الشرقية. شعر تشارلز أنهم كانوا عديمي الأهمية، وأنهم لم يقرروا شيئًا

لأنفسهم؛ كل شيءٍ رتَّبه قادة العالم وقتها، وعُقدت اتفاقيات حول مجالات النفوذ.

لم تتعرض أسرة تشارلز لمعاناة مُريعة كالآخرين؛ كتلك التي عاشتها الأُسر التي أعادها الحلفاء إلى ستالين. مئات الآلاف من الروس الهاربين ضد إرادتهم، كان الألمان قد جلبوهم قبل ذلك للعمل في المصانع والمزارع، قتل الروسُ البعضَ، والبقية شُحنت إلى معسكرات السُّخرة؛ حتى لا تنتشر عدوى تلك الأفكار الرأسمالية المنحطة التي اكتسبوها من الحياة في الغرب. كانت أسرة تشارلز تأمل ف الحصول على فرصة في الولايات المتحدة، أو كندا، أو أستراليا، لكن ذلك لم يكن مضمونًا؛ لقد كانت أسهُم سكان دول أوروبا الشرقية منخفضةً في فرص قبول الهجرة، هؤلاء السلاف الجنوبيون كانوا من الأعراق غير المرغوب فيها من منظور خبراء الجينات الأمريكيين، وواضعي قانون الهجرة.

يخبرنا تشارلز أنه لم تكن لديهم الوثائق اللازمة، وهذه التجربة لم يفهمها إلا من عاشها، ويخبرنا عن السعادة التي يشعر بها ضباط الهجرة عندما يُسيئون استخدام سلطاتهم على الأجانب؛ تلك السعادة في إذلال العاجزين لم تكن بسيطة، وهو يتذكَّر هذه المواقف رغم أنه كان طفلًا؛ فحيثما يُوجد بيروقراطيون؛ تكون الدولة البوليسية هي المثال الأعلى.

يَتذكر تشارلز سيميك وقوفه في طوابير لا نهايةَ لها أمام مقر البوليس في باريس من أجل استلام تصريح الإقامة أو تجديده؛ ينتظرون نهارًا كاملًا؛ ليكتشفوا أن القوانين تغيَّرت منذ الزيارة الماضية، ويطلب الموظفون الساديون شيئًا على قدرٍ من العبث؛ مثل وثيقة زواج جدِّه، أو

شـهادة تخرج أمه من المدرسـة؛ يقفون عالمين باسـتحالة الحصول على تلك الأوراق، يقفون في الطوابير، ويسـتمعون إلى قصة شـخص احترق بيتـه، وكيف غـادر بيته بسـرعة دون أن يتمكن من جمـع الأوراق الثبوتية المهمـة؛ هـل سـمعتم بهذه القصة مـن قبل؟ نعـم يبدو أن تاريـخ اللجوء واحـدٌ؛ سـواء لمواطـن من شـرق أوروبـا في باريـس في منتصـف القرن الماضي، أو لمواطن سوري في أيٍّ من دول الشتات.

يهز ضابط الهجرة كتفيه، ويشرع في إعلام هؤلاء اللاجئين، أنه إذا لـم تُقـدَّم الوثائـق؛ فسـيتم إلغـاء تصريـح الإقامـة، وبأُعجوبـة يتواصلون مع أحدهـم؛ للحصـول علـى تلـك الأوراق. تصـل الأوراق بفضـل قَرابةٍ ما بعيـدة، وتُترجـم على يد مُترجم معتمد، ثم يعـودون إلى الطابور الطويل؛ ليكتشـفوا أن هـذه الوثيقـة لـم تعد مهمـة، وأن شـيئًا آخر أصبـح مطلوبًا. وهكـذا تقـف عائلـة تشـارلز سـيميك، وغيرهـا مـن اللاجئين مـن غرب أوروبـا، فـي كل مكتب لجوازات السـفر، أو أي قسـم بوليس أو قنصلية؛ حيث يُوجَد موظف سـيئ المزاج أتى من الجحيم، ويشـتبه في أن هؤلاء المشـردين كاذبـون، وهكذا يُعلن كاتبنـا أن اللاجئيـن لا يحبُّهم أحد. إذا كنت غادرت بلدك بسبب النازية قد تحصل على بعض التعاطف، لكن أن تغادر بلدك بسـبب روسـيا الشـيوعية؛ فهـذا ما يصعب قبولـه، ولا يجعل أحـدًا يتعاطـف معـك، وأحيانًـا إذا كان المسـئولون يسـاريين يعاتبونهم؛ لأنهم تركوا المجتمعات الاشتراكية التقدمية.

يصف الشـاعر تشـارلز سـيميك بكل دقة شـعور اللجوء؛ وهو يقول: «حتـى الدُمى المبتسـمة خلف فتارين المحلات في شـارع فيكتور هيجو الأنيق عاملتنا؛ وكأننا هناك لنسرق شيئًا»، وهكذا لن يحتاج هؤلاء الأفراد

إلى طبيب نفسـي، طالما أن كل من يقابلهم يسـألهم: «من أنتم؟» فور أن يفتحوا أفواههم، ويسـمع لكنَتهم. كانـت إجابات اللاجئين غير واضحة، بعـد تجارب الرجرجة في القطارات المخيفة، والسـفر فوق الشـاحنات، والسـفن التجاريـة المهلهلـة، أصبحـوا لغـزًا حتى لأنفسـهم، فـي البداية شـعروا بالصعوبة، لكن مع الوقت تعودوا، وكانت شـوارع باريس ممتلئةً بهؤلاء الواثقين من أنفسهم الذين لم يُجرِّبوا النَّبذ، أو العيش في المنفى، وبرغم أن تشارلز شعر أحيانًا بالحسدِ نحو هؤلاء، لكنه أيضًا شعر بالشفقة عليهم؛ لقد جرب شـيئًا لم يعرفوه؛ شـيئًا يصفه بأنه يصعب التعبير عنه إلا إذا ركلك التاريخ بقوة في مؤخرتك، وهجَّرك من بلدك التي وُلدت فيها. لقـد رأى تشـارلز اللاجـئ كيـف يمكـن للأفـراد أن يكونـوا غيـر ضروريينوعديمي الأهمية في لعبة التاريخ. أما هؤلاء الباريسيون الواثقون من أنفسهم لا يفهمون احتمال أن يكون ذلك مصيرهم في يومٍ من الأيام. وعندما يصف تشـارلز نفسـية اللجوء، نتذكر ذلك النـص الذي كتبته حنَّة أرندت عن حياة اللاجئ السابقة.

في الكتاب وصفٌ لشـعور سـيميك وهو طفلٌ في بلجـراد التي تعاني ويـلات القصف؛ كيف كانوا يذهبـون إلى الأقبية للاختفاء، وكيف اعتقل الجسـتابو أبـاه، ثـم أفرج عنـه. في النهار يلعـب كطفلٍ مـع أصدقائه على أنقـاض البيـوت المهدمة، وفي إحدى الفترات قصـف الأمريكان بلجراد بطريقَة عنيفة في يوم أحد الفصح، ١٦ إبريل/ نيسـان ١٩٤٤، وفي اليوم التالـي للغـارة الأولى في ١٩٤٤، جاءت الطائرات مرة أخرى، وبالطريقة نفسـها ألقـت ٣٧٣ طنًا مـن القنابل على بلجـراد، وقال الأمريـكان إنه لا يُوجـد ما يشـير إلـى حدوث تفجيـراتٍ خارج الأهداف العسـكرية خلال

هـذه العمليـة؛ لكن تشـارلز يحكـي عن سـقوط قنبلة على الممشـى أمام منزلهم، إلا أنها لم تنفجر.

في عام ١٩٧٢ التقى تشارلز أحد الأمريكيين الذين شاركوا في قصف بلجراد عام ١٩٤٤ . كان تشـارلز قد عاد لبلجراد بعد عشـرين عامًا تقريبًا من مغادرته، وعندما عاد إلى الولايات المتحدة ذهب إلى تجمُّع أدبي في سان فرانسيسكو؛ حيث قابل بالصدفة الشاعر ريتشارد هيوجو في مطعم. توجَّـه ريتشـارد بالسـؤال إلى تشـارلز: «كيـف قضيت الصيـف؟» وكانت الإجابة: «في بلجراد».

تحمَّس ريتشارد هيوجو وقال: «إنني أعرف هذه المدينة جيدًا»، ودون أن يعرف خلفية تشـارلز سـيميك، رسـم هيوجو معالم بلجراد مسـتخدمًا قطـع الخبـز التـي على المائـدة. افترض تشـارلز أن صديقه قـد ذهب إلى المدينة سـائحًا لذلك يعرف معالمها، لكن إجابة هيوجو الصادمة كانت: «لـم أزرهـا أبـدًا؛ أنا فقـط قصفتها عـدة مرات فـي الحـرب». تحت وقع الصَّدمـة اندفـع تشـارلز قائـلًا أنـه كان طفلًا تحـت هذه القصـف. خجل صديقـه مـن القصة وانزعج انزعاجًا شـديدًا. حاول تشـارلز أن يهدئ من روعه، قائلًا إنه لا يحمل أي ضغينة ضده، لكنه سأله عن السبب في أنهم لم يقصفوا مقر الجستابو، أو أي مبنى آخر كان يتواجد فيه الألمان؟ شرح لـه هيوجـو أن الغـارات الجوية كانـت تنطلق مـن إيطاليا؛ مسـتهدفةً أولًا حقـول النفـط الرومانية، التـي كانت لها أهمية إسـتراتيجية كبيرة بالنسـبة للنازييـن؛ حيـث كان يتـم الدفاع عنها بضـراوة. في كل غـارة جويَّة كانوا يفقـدون طائـرة أو اثنتين، ولذلك في طريق عودتهـم لإيطاليا، كان عليهم التخلُّـص من حمولاتهم فـوق بلجراد. يطيرون على ارتفاع عالٍ، ويُلقون

ما تبقى من الحمولات بأيٍّ طريقة ممكنة، متسابقين في العودة إلى إيطاليا؛ حيث يقضون بقية اليوم على الشاطئ مع بعض الفتيات المحليات. هذا جانبٌ من تفاهة الحروب، وكيف يُستهان بالأبرياء، وكيف يُقتلون بدم بارد.

(١٠) وليد سيف:
حياةٌ مع الدراما

برع وليد سيف في كتابة النصوص الدرامية للمسلسلات التاريخية. لقد قدَّم نصوصًا في لغة رائقة، ووصف ممتع، وتأملات تصل إلى أن تكون نظرات بديعة في فلسفة التاريخ، وصعود الشخصيات التاريخية وانهيارها. في ذاكرة جيلي محبَّةٌ لنصوص **ربيع قرطبة**، **وصقر قريش**، **وملوك الطوائف**. ويُذكَر لوليد سيف كذلك تفنُّنه في مسلسل **عمر**؛ فضلًا عن مسلسل **التغريبة الفلسطينية**.

توجَّه وليد سيف للدراما التاريخية بعد أن شعر بالملل من العمل في التدريس الجامعي، وضاق ذرعًا به في عام ٢٠٠٧. ونجده في مذكراته **الشاهد المشهود** يتساءل كيف أن مصيره الشخصي، وهو ابن هذا الزمن قد ارتبط بصراع الأمويين والعباسيين، وفرار عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، وبعد زُهاء ألف وأربع مئة سنة، يقرِّر كاتبنا أن يكتب عملًا دراميًا عن سيرة الأمير الشريد.

كانت بداية عمله في الكتابة الدرامية عام ١٩٧٨؛ حينما توسع الإنتاج الدرامي والتلفزي خارج مصر، وتصدَّرته «مؤسسة الخليج للأعمال الفنية» في دُبي بالإمارات العربية المتحدة. كان هناك نقصٌ فادح في كُتَّاب الدراما، وجاءه عرضٌ وافق هوًى في نفسه، ومنزعًا قويًّا لهذا النوع من الكتابة؛ فكان مسلسل **الخنساء** الذي أسَّس لنجاحه الباهر، رغم

ضعف الإمكانيات الإنتاجية والفنية في ذلك الوقت؛ وهو يؤكد أن مدخله إلى الكتابة الدرامية التلفزية كان من باب الأدب منذُ اللحظة الأولى، ولم يخامِرْه الشك في إمكانية الدمج بين المستوى الأدبي، والتقنيات البصرية.

أما بخصوص اللغة؛ فقد قرر منذ اللحظة الأولى ألَّا يتنازل عن المستوى البلاغي الأدبي وفقًا لمقتضيات الموقف الدرامي، والعصر الذي تدور فيه الأحداث. وهو يرى أن التعريفَ القديم للبلاغة بأنها: «موافقةُ الكلام لمقتضى الحال»، صحيحٌ ومفيدٌ لمَن يكتب النصوص التاريخية، وليس من المعقول أن نُنطِّق شخصيات العصور التاريخية بأسلوب عصري يحاكي لغة الصحافة مثلًا؛ فنأتي بعبارات معاصرة ترِد في الدراما التاريخية، فتُفقد العملَ رونقَه. ويُنبهنا إلى أن من أُوتي حسًّا لغويًّا أسلوبيًّا مُرهفًا، وكانت له بالمصادر القديمة أُلفة طويلة، يلتقط ما هو أخفى من هذه العبارات المعاصرة الفجَّة. هناك كلمة مثل: «أرجوك»، والكلمة لها اشتقاقاتٌ قديمة وراسخة؛ إلَّا إنه يوضح أننا لن نجد في نصٍّ قديم من يستفتح الطلب بالمصدر رجاءً؛ كما نفعل الآن. وقد تكون كلمة «نشدتك الله» أكثر دقة على لسان الأبطال في الدراما التاريخية.

وفي أحد أعماله التاريخية تصرَّف المخرج في أحد المشاهد لضرورة إنتاجية، فاستعمل الممثل كلمة «يا أبي»، ويعلِّق وليد سيف أنه لا غُبار على الكلمة، ولكنه ما كان ليكتبها أبدًا؛ فالأقرب إلى الأساليب القديمة أن يقال: «يا أبتِ»؛ فهي أكثر انسجامًا مع لغة النص. ويرى كاتبنا أنه يمكن استعمال المفردات الغريبة شريطة دمجها في السياق؛ فمثلًا كلمة «ورهاء» يكفي أن ترِد في سياق الشتيمة: أيتها الحمقاء، الخرقاء، الورهاء

! والسياق هنا يتكفل بالإضاءة على دلالة المفردة. ولو أنه أنطق شخصياته في مسلسل التغريبة بالفصحى، لأفسدت صدقيتها، وقدرتها على الإقناع.

لكن، ليس بالأسلوب اللغوي وحده يقومُ الأدب السردي الدرامي؛ فهناك المعالجة الدرامية، وإذا كان الصراع عنصرًا أساسيًّا؛ فإن هذا الأمر لا يتحقَّق بالشخصيات المسطحة ذات البُعد الواحد. وهنا يتساءل سيف: «كيف يتطور الصراع إذا استقرت الشخصيات من أول العمل إلى آخره على بعد واحد؟ فهي في آخر أمرها؛ كما هي في أوله؛ فإما شرٌّ مطلق، وإما خير مطلق». ولقد سرَّه دائمًا أن يرى الناس تختلف في تقويم الشخصيات الأدبية والتاريخية التي يكتب عنها، وكلٌّ منهم يأتي بحُجَّة لها أو عليها.

يشرح وليد سيف أسئلة الدراما التاريخية التي تُواجه من يسير في درب هذا النوع من الكتابة، ويشرح لنا الأفكار التي تشكَّلت لديه عن تجربة عبد الرحمن الداخل، وكيف حقَّق الداخل حلمه العظيم، لكن الثمن الأخلاقي كان فادحًا. وهكذا تتحول أسئلة صواب الحدث التاريخي أو خطأه إلى أسئلة وجودية من نوع أسئلة المصير، والحرية، والإرادة، والسلطة، والتدافع الإنساني، والتنازع بين الضرورة والأخلاق.

ويشرح لنا عملًا قديمًا كتبه في مطلع الثمانينيات عن الشاعر الجاهلي طَرَفة بن العبد، أحد أصحاب المعلَّقات الشهيرة، والذي انقصفَ عمره في رَيعان شبابه مصلوبًا على جذع نخلة في موطنه في هَجَر والبحرين، بأمرٍ من عمرو بن هند، ملك الحِيرة، لعامله على تلك الديار؛ ولذلك لُقِّب طرفة بالغلام القتيل، وهو شاعرٌ يمكن أن تُجمَع أخباره في بضع

صفحات، لكن المعالجة الدرامية التاريخية تقتضي الكشف عن مفاتيح الشخصية. وقد تبين للكاتب وليد سيف أن أزمة طرفة الوجودية هي التنازع الأبدي بين فردية الإنسان وانتمائه الجمعي؛ وهي مسألة تتعلق بسؤال الحرية. لقد ضاق طرفة بتقاليد القبيلة وإملاءاتها التي تقيد حريته؛ فغلَّب حريته الفردية، وجازف بتلقّي العواقب.

ومَا زَالَ تَشْرَابِي الخُمُورَ ولَذَّتي

وبَيْعي وإِنفاقي طَرِيفِي ومُتْلَدِي

إلى أن تَحامَتْنِي العَشِيرةُ كلُّها

وأُفْرِدْتُ إِفْرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

يحلّق بنا وليد سيف في قصة حياة طرفة، وسعيه لفهمها، وقصة موته؛ ذلك أن الكتابة التاريخية هنا تصبح قراءة بعيون الباحث المدقق، ونقلًا للأحداث الصغيرة إلى إشكاليات قد تتكرَّر مع أشخاص آخرين في أزمنة أخرى مختلفة. ويشير أيضًا للصعوبات التي تُواجه الكتابة التاريخية من على صعيد ضعف الإمكانيات؛ فقد عُرض عليه كتابة وثائقي عن صلاح الدين شريطة إزالة المعارك من النصّ؛ تجنبًا لضخامة التكاليف، لكنه رفض العرض وهو يُفكّر: كيف يكون هناك صلاح الدين بلا حطّين، حتى أذِن الله بتحقيق أُمنيته بعد ثمانية أعوام من هذا الموقف؛ فكان مسلسل **صلاح الدين الأيوبي** فاتحةَ تعاونه مع المخرج السوري الراحل حاتم علي.

ويحكي لنا سيف أنه لم يخل عملٌ من أعماله الدرامية من مواقف وجد نفسه يتماهى مع أبطالها، ويستحضر فيها شيئًا من مزاجه وتجاربه الشخصية والوجدانية؛ ففي مسلسل **صلاح الدين الأيوبي** توقَّف في

مرحلـة الكتابة عند علاقة صلاح الدين الأيوبي بعمِّه شـيركوه الذي قدَّمه على أبنائه. وجد كاتبنا نفسـه يسـتحضر علاقته بعمِّه محمود؛ فألقى على معالجتـه لذلـك الجانـب من القصة قبسًـا عاطفيًّا من حياتـه، أو أنه عندما كتب أحد المشاهد في مسلسل ربيع قرطبة؛ وهو المشهد الذي يترافع فيه محمـد بـن أبي عامر أمام صُبـح؛ أمِّ ولد الخليفة الحاكم المسـتنصر؛ فقد كان يتحـدَّث بلسـان هـؤلاء الذيـن يجـدون فـي الحلـم والخيـال فرصـةً للابتعاد عن إثم الجوارح. وثمَّ أثر من سيرته الذاتية، وسيرة أسرته في بناء شـخصيات مسلسـل التغريبة الفلسـطينية؛ فلقد عانت أسـرة جدِّه في باقة الشـرقية من بعض ما عانت منه أسـرة صالح الشيخ يونس (أبو أحمد) في المسلسـل. وهكذا تنبثُّ حياة الكاتب وسـيرته في نصِّه السـردي؛ فيوزِّع نفسـه في نفـوس كثيرة من أبطـال عمله الأدبي والدرامـي. يوجز لنا وليد سيف تجاربه مع هؤلاء الشخصيات، قائلًا:

«غزوتُ إذ غزا أمير الصعاليك عُروة بن الورد، وبكيتُ إذ بكتِ الخنسـاء أخاهـا صخـرًا، وأعقبنـي البـكاء فرجًا، وصعـدتُ مع شـجر الـدر إذ صعـدتْ ولـم أهبـط معهـا إذ هبطـتْ، وصحبتُ صـلاح الديـن الأيوبي في تحرير القـدس؛ فنلتُ حظًّا من مغانم نصـره فـي حياتي الشـخصية، وقطفتُ في ربيـع قرطبة بعضَ ما قطف المنصور بن أبي عامر دونَ أن أبيع رُوحي لشيطان السلطة الغَويَّة، وخرجتُ من عصر الطوائف بخيرٍ مما خرج به المُعتمِد بـنِ عبَّـاد إلـى منفاه البئيـس في أُغمـات! بل تقلَّـب مصيري مع تقلُّب مصائر هؤلاء وغيرهم».

(١١) حكايات الآغا خان: تِرند الخمسينيات

تنتشر الأخبار عن صفقة طلاق بيل جيتس، ومقدار الثروة التي ستؤول إلـى زوجتـه؛ وتقدر بـ ٥ , ١ مليـار دولار، وقبلها انشـغل النـاس بطلاق عمـلاق «أمازون» جيف بيزوس؛ ومقدار ثروة زوجته. وهكذا لكل عصر أغنيـاؤه، وقصص حياتهم التي تشـغل الناس. الكتـاب الذي بين يدي هو مذكِّرات الآغا خان الثالث، زعيم الفرقة الإسـماعيلية، الذي كان حديث المجتمع في الخمسينيات بسبب ثروته ودوره السياسي.

عـاش ثمانيـن عامًا؛ وُلد في كراتشـي عـام ١٨٧٧، وتوفي عـام ١٩٥٧. يحكـي فـي الكتاب عـن حياتـه. الهاجس المسـتمر في الكتاب؛ هـو أوجه الاختـلاف بيـن العالـم الـذي وُلد فيـه، وقضى فيه شـبابه؛ أي قبـل الحرب العالمية الأولى، وبين حالة العالم في الخمسينيات من القرن العشرين حينما كتب مذكراته. كتب سـيرته بسـبب انتشـار أخباره، وكثيرٌ منها غير صحيح؛ حتى إنه أصبح في زمنه في الأربعينيات والخمسينيات أسطورة، وحكاية عن رجل ثري يجوب العالم. وبسبب الأوهام الضخمة، والتقديرات المبالغ فيها لثروته الخاصة، وثروة عائلته، أراد أن يحكي روايته عما عايشه.

لقـد كانـت حياة آغا خان جسـرًا يصـل بين عهود مختلفـة. عندما كان شـابًا جلـس إلى جانـب الملكة فيكتوريا في حفلة عشـاء، وتحـدَّث إليها طيلـة الحفلة، وفي آخر حياته عندما كان يكتب سـيرته، جلس مع الملكة إليزابيـث، وفي شـبابه تعرَّف إلـى اللورد كليفن؛ أحد أهـم الفيزيائيين في

العالم، وقال له الفيزيائي القدير بوقار وترو: «إن الطيران يُشكّل استحالة مادية بالنسبة للبشر»، وحتى هـ.ج. ويلز الكاتب البريطاني في كتابه المبكر **توقعات**؛ توقَّع أن الطيران، واكتشاف الطاقة الذرية سيتأخر قرنين أو ثلاثة، وقد خالف الواقع كل هذه التوقعات.

يبرع آغا خان في وصف التبدلات التي حدثت في عالمنا بين شبابه والشيخوخة؛ لقد زاد متوسط عمر الإنسان بنحو عشرين عامًا، وتأخرت شيخوخة النساء، وانتشر تحديد النسل في نهاية عمره؛ مقارنةً بتسعينيات القرن التاسع عشر، حين كانت الأسرة تتكون عادة من سبعة أولاد أو ثمانية. في شبابه كانت إنجلترا سيدة العالم، والإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وكانت أمريكا لا تزال في عُزلتها قبل أن يسمع العالم صوت قنابلها في الحرب العالمية الثانية التي افتتحت عصرًا جديدًا؛ تراجعت فيه هيمنة بريطانيا وحلَّت بدلًا منها الولايات المتحدة، وفي شبابه كانت فرنسا العدو التقليدي لإنجلترا، بينما كانت ألمانيا الصديق الوحيد المحتمَل في أوروبا.

الذكرى الأولى لطفولته هي صورة جدِّه زعيم الطائفة الإسماعيلية، الرجل المسنّ، كليل البصر؛ ممتطيًا صهوة جواد عربيٍّ أشهب؛ يُراقب صفًّا من جيادٍ أخرى تعدو في تدريبها. ويحكي عن طفولته في مومباي، لكن مومباي أواخر القرن التاسع عشر التي يحكي عنها في الكتاب، أصبحت مدينة مختلفة عن الوقت الذي كُتبت فيه المذكرات في نهاية الخمسينيات، وأكثر اختلافًا في زماننا. كانت مومباي التي وُلد فيها آغا خان جزءًا من الهند البريطانية، وكان لها تراث وثيق الصلة ببريطانيا،

وأُلحقت بممتلكات التاج البريطاني جزءًا من مهر زواج ماري أوف مودنيا من تشارلز الثاني.

كان آغا خان رقيقًا نحيفًا في طفولته، وقد تنبأ عددٌ من الأطباء الإنجليز، بإجماعٍ كئيب، بأنه لن يعيش حتى يبلغ الخامسة والعشرين. كانت سنوات طفولة كاتبنا عسيرة من نواحٍ عديدة؛ بل خشنة وقاسية؛ لأنه في طفولته تم تدريبه على أن يعي ميراث الزعامة الروحية التي لديه؛ لذلك خضع إلى تعليم مكثَّف طوال الوقت، وتدريبات بدنية؛ مثل ركوب الجياد، وتعلم الخط، ودراسة اللغة العربية والفارسية، وتعلُّم الإنجليزية على يد أساتذة يَسوعيين. وحتى في غير أوقات الدراسة كان عليه أن يستقبِلَ ضيوفًا أتوا لزيارته، وغالبًا يأتون في وقت الفراغ القليل الممنوح له، وكانت أُمُّه تحب الشعر، وتتلو أبياتًا لابن الرومي، وكانت ضليعة في الأدب الفارسي والعربي، وحتى عندما بلغت التسعين كانت لا تُخطئ في اختيار المقطوعات الشعريَّة، من أشعار الشعراء العظام؛ كحافظ، والفردوسي، وحتى الشعراء المغمورين.

يكتب آغا خان عن أوجه الاختلاف بين أواخر القرن التاسع عشر، وحياته في القرن العشرين. يصف حياته وهو شابٌّ؛ حيث حل ضيفًا معظم الوقت على أسر ملكية في دول العالم، ويصف لنا انتشار حفلات المسرح، والأوبرا التي كانت تُقام بكثرة. ملاحظات آغا خان عن حالة العالم قبل الحرب العالمية الأولى، تذكرنا بمذكرات **عالم الأمس**، للأديب النمساوي ستيفان تسفايج؛ حينما وصف ازدهار الفنون في فيينا، وحالة الأمن التي نعمت بها أوروبا قبل الحرب.

عاش أغا خان عصر الاستقرار النسبي والأمان؛ ففي عام ١٩٠٠ كان نصف قرن قد انقضى على ثورات ١٨٤٨، وكانت البحار تخضع لسيادة بريطانيا، ووصلت الإمبراطورية البريطانية إلى أوجِّ تألقها. في هذه الفترة ارتحل إلى أوروبا: إلى لندن وباريس وروما وبرلين، وأحيانًا مونت كارلو ونيس، ذكريات اجتماعية، وليالي أُنس انتهت مع بداية الحرب العالمية الأولى. في نيس، رأى الجالية الأرستقراطية الواسعة الثراء؛ مثل الإمبراطور فرانز جوزيف، وعشرات الأمراء الروس والأرشيدوقات النمساويون في فيلاتهم وقصورهم، والأمراء الإنجليز مع رجال الأعمال والصناعة، والطبقة الغنية في الإمبراطورية النمساوية-المجرية؛ مما أذهل الشاب القادم من مومباي، وألقى في قلبه الرَّوع والرهبة.

اهتم التاج البريطاني بآغا خان، وتواصلوا معه منذ طفولته؛ حتى يضمنوا علاقة طيبة للطائفة الإسماعيلية بالحكم البريطاني، وفي الكتاب تفاصيل كثيرة عن رؤية آغا خان للاحتلال البريطاني؛ فهو رجل يميل إلى التسويات، وحديثه عن بريطانيا لن يروق القارئ المؤمن بالاستقلال الوطني، لكنها شهادة من شخصٍ عايش هذا العصر، وله رأي بخصوص تبدل معاملة بريطانيا للهنود؛ مما أدى إلى ظهور غاندي، ونزعة القومية الهندية. وفي الكتاب تفاصيل كثيرة عن الهند والاستقلال وظهور باكستان. تعود علاقة الإسماعيلية ببريطانيا إلى جده آغا خان الأول؛ إذ قدم مساعدات لبريطانيا في التوسع شمالًا وغربًا من البنجاب، وكذلك ساعدهم في المراحل الأخيرة من حرب بريطانيا ضد الأفغان عام ١٨٤١.

يصحبك آغا خان في الكتاب؛ ليعرِّفك بالأدباء الذين التقاهم؛ مثل الكاتب مارك توين الذي أمضى بصحبته أصيلًا كاملًا؛ انتهى بتناول

العشاء معه في فندق «واطسون» في مومباي حيث كان يقيم؛ يصفه أغا خان بقوله: «كان مارك توين ذا شخصية ساحرة مبهجة، وذا لطف بالغ أسرني أنا الولد ذو الذهنية الجدية»، ويُكمل: «لقد بدا لي لطيفًا، عزيزًا وقدّيسًا، وحزينًا متواضعًا جدًّا بالرغم من أنه كان ذلك العبقري ذائع الصيت».

زار آغا خان مصر ووقع في سحرها، وظل طيلة حياته يحتفظ لمصر بزاوية خاصة في قلبه، وظل يعود إليها كلما وجد إلى ذلك سبيلًا، والتقى في زيارةٍ لمصر اللورد كرومر، الذي كان في أوجِّ سلطاته آنذاك، لم ينزعج أغا خان من الاحتلال البريطاني؛ بل لام النخبة المصرية على أن لديها هوى فرنسيًّا، وأنها ترغب في خروج الاحتلال البريطاني، وعلى أنها محافظة ومُغلَقة. وتمنى وجود جامعة مثل عليكرة في القاهرة. وزار آغا خان سوريا للاطمئنان على أهل الطائفة الإسماعيلية في منطقة السلمية والخوابي عام ١٩٣١، ودشن المدرسة المحمدية هناك، وفرح بمشاركة المرأة في المجتمع، وبخلع الحجاب، ونزولها إلى العمل، وأظهر عاطفة وعلاقة قوية مع الدروز.

كذلك زار آغا خان إسطنبول، واستضافه السلطان عبد الحميد الثاني في فندق «بيرابالاس»، وكانت له مقابلة طويلة معه في قصر يلدز. بدا للبعض أن هذا الاجتماع ينطوي على دراما غريبة؛ لأن عبد الحميد كان يعيش وقتئذٍ الخوف من الاغتيال؛ كان السلطان مدمنًا للتدخين، وكان آغا خان يعاني حساسية من التدخين، وكانت سُحب الدخان تطفو فوقهما، وأُغلقت الغرفة، وحضر مترجم؛ لأن آغا خان لم يكن يعرف التركية، ورفض عبد الحميد أن يتحدَّث العربية أو الفارسية.

جلس آغا خان أمام السلطان الذي ارتدي ثوبًا فضفاضًا، وأدرك أن السلطان يُخفي تحت أثوابه سلاحًا ما، وأن أثوابه كانت من النوع الذي لا يخترقه الرصاص. انبهر آغا خان من عناية السلطان عبدالحميد بالمظهر؛ حيث صبغ لحيته بالصباغ الأسود، وكانت شفتاه مصبوغتان باللون القرمزي، ووجنتاه باللون الأحمر، لم يكن هذا المكياج تعبيرًا عن تخنُّث؛ ذلك أنه كان كامل الرجولة إلى أبعدِ ما يكون. استمر الحديث الودي بين آغا خان وبين السلطان عبد الحميد الثاني، ويذكر آغا خان أن السلطان عبد الحميد تأثر لكون الآغا يملك عن طريق كاشغر معلومات حديثة موثوق بها عن مسلمي الصين الغربية. أراد السلطان عبد الحميد أن يطمئنَّ على الطعام الذي يُقدَّم لآغا خان؛ فأمر بإرسال الطعام من القصر إلى الفندق، ويفسر آغا خان هذا التصرف بأن عبد الحميد كان مهجوسًا بالخوف من التسمُّم، ولعله خشي أن يُغتال الأغا في زيارته لتركيا.

تعرَّف آغا خان إلى مشاهير عصره؛ فتعرف على تشرشل، وعلى والدته؛ الليدي راندولف تشرشل في مناسبات عديدة. وعندما يصف آغا خان تشرشل يقول عنه: «يجمع السِّير تشرشل في شخصيته القوية بين خصلتين، هما في العادة متعارضتان؛ فهو الرومانسي ذو العاطفة العميقة والشعرية للتاريخ، وهو الإستراتيجي ذو الإحساس العام»، وفي أحد مرات النقاش حول الحرب العالمية الأولى، قال تشرشل لآغا خان بخشونة: «إن تركيا ستكون هدية المنتصر؛ فقد كانت رجل أوروبا المريض».

يصف آغا خان في سيرته حالة الصين عندما زارها في بداية القرن العشرين؛ حيث كانت الإمبراطورة العجوز تعيش في بكين في عزلة

داخل قصرها الصيفي الواسع؛ بينما كانت إمبراطوريتها تتهاوى وتتخبط في الفوضى والانحلال؛ حيث كانت الجاليات التجارية الأجنبية الأوروبية تُفيد من الامتيازات، في مدن مثل شانغهاي. وكان حكام الصين الحقيقيون في تلك الأيام هم قناصل الدول الأوروبية، ليس هذا فحسب؛ بل إن الفنادق الممتازة ترفض قبول الصينيين؛ إلا في أجنحة أُعدَّت خصيصًا لهم، وكذلك كان الحال في المطاعم.

يزخر الكتاب بأوصاف الدول والمدن التي زارها أغا خان؛ مثل نيويورك التي وجد الكثير من بيوتها أقرب إلى أن تكون متاحف، كما زار جزيرة هاواي، ورأى الحياة فيها قبل أن تكون مقصدًا للسياح من دول العالم. وزار روسيا، وبطرسبرج التي قال عنها إن حياة الأرستقراطية الروسية فيها فاقت حياة أغنياء إنجلترا، والكثير من دول أوروبا، وبرغم ذلك كانت روسيا من أكثر الدول التي شعر فيها بالهُوة الساحقة بين الأغنياء والفقراء؛ بل إن عمال موسكو كانوا أفقر من عمال مومباي، ولعل هذه الهُوة أسهمت في تسريع حدوث الثورة الروسية.

أسهم آغا خان في دعم المجهود الحربي البريطاني، وكان من أوائل من دعا إلى تجنيد الهنود في جيش الإمبراطورية، وعندما شاركت تركيا في الحرب العالمية الأولى، ودعت المسلمين لمساندتها ودعمها، وقف في وجه هذه الدعوات، وعدَّ الدعاية للجهاد العثماني نوعًا من الاستغلال الألماني لهم. كان موقفه مواليًا لبريطانيا، لكنه في الوقت نفسه لم يفصم عُرى الود بينه وبين الأتراك؛ فقد التقى توفيق باشا المقرَّب من ضباط الاتحاد والترقي؛ محاولًا تجنيب تركيا دخول الحرب. هكذا ظل حاضرًا في الملفات الدولية من خلال التسويات والدبلوماسية. ومن يقرأ

المذكرات سيرى أن شاغله الشاغل وهمَّه الأكبر كان الحفاظ على مصالح الطائفة الإسماعيلية حول العالم؛ من خلال الارتباط بمصالح بريطانيا، والقوى الكبرى. وكل شيء فعله أو سعى إلى فعله كان ثانويًا بالضرورة، مقارنةً بهذا الهدف الذي يذكره صريحًا في المذكرات.

يذكر آغا خان في الكتاب طرفًا من الحكايات عن هوايته المفضلة؛ تربية الخيول، والمشاركة في المسابقات العالمية. ونجد في المذكرات ذكرًا للقاءاته مع مشاهير عصره؛ مثل الخديوي عباس حلمي الذي نُفي من مصر، وجمعته صداقة به. وكذلك لقاءه مع الروائي مارسيل بروست، والممثل شارلي شابلن، والكاتب سومرست موم الذي كتب مقدمة المذكرات.

ظلَّ آغا خان حديث الناس فترة طويلة؛ خصوصًا صورته التي اشتهرت، وأمامه وزنه ذهبًا في الهند، وقد كرَّر الفعل نفسه في إفريقيا؛ مما دفع أديبنا أحمد حسن الزيات إلى كتابة مقال في ذمِّ تصرفاته عام ١٩٤٥ في **مجلة الرسالة**، وذكَّر فيه القراء بثروة الآغا خان، وحالة الفقر التي وصل إليها الشاعر العراقي الرَّصَافي. كتب الزيات: «حظُّك يا معروف الرصافي هو حظُّ الأديب منذُ كان في الناس أدباء، وفي الأرض أدب! يموت أمثالك شرقًا بالبؤس؛ كما يموت أمثال أغا خان غرقًا في النعمة! فلو أن ربك حقق لك ما كان يرجوه شيخك الآلوسي من رسوخ قدمك في الدين، وعلوِّ منزلتك في التصوف؛ إذن لخلفته في الزعامة الدينية، وبلغت من (طريقتك) ما بلغ آغا خان في الدنيا، ونلت من (صوفيتك) ما نال معروف الكرخي في الآخرة». وكتب العقاد مقالةً عن سرِّ اختيار آغا خان أسوان ليدفن فيها بعد أن توفِّي في سويسرا عام

١٩٥٧؛ ففي أسوان لقي آغا خان الشفاء من علَّة ألمَّت به على يد رجل صوفيٍّ من النوبة؛ فقرر أن يبني لنفسه ضريحًا فيها. وهكذا شغَل هذا الزعيم الديني، والرجل الثري، والسياسي، عقول الأدباء والصحفيين؛ بل تُرجمت مذكراته في وقتٍ مبكر، وظهرت مقالات عن زوجته أمّ حبيبة، وتُرجمت مذكراتها إلى العربية.

كانت حياة آغا خان عريضة ومليئة بالترحال والمشاريع والسياسة؛ فقد وصل إلى منصب رئيس عصبة الأمم في نهاية الثلاثينسات، وكما يعبر عن نفسه: «يمكنني القول صادقًا كلَّ الصدق: إن السأم لم يتسرب إلى نفسي لحظةً واحدة طوال حياتي المديدة»؛ وسرُّ ذلك أن عقله كان دومًا مشغولًا بما هو خارج ذاته من مهام؛ مما جعل السأم والاكتئاب لا يهتديان لنفسه سبيلًا.

(١٢) أنيس صايغ عن أنيس صايغ: حكايات كاتب مناضل

«لم يجد من يكتب عنه؛ فكتب عن نفسه».

يفتتح أنيس صايغ سيرته الذاتية بهذه العبارة التي قد يطلقها بعض الساخرين منه. يكتب أنيس صايغ قصة حياته رغم أنه شخص عادي؛ هكذا ينظر لنفسه؛ فلقد سُخِّرت الأقلام للكتابة عن العظماء والأبطال، ومحقِّقي المعجزات، ونائلي الجوائز؛ في السياسة، والحكم، والثقافة، والعلم، والفن، وجَمع الثروات. وهو ليس واحدًا من هؤلاء؛ إذ لم يقطع بحر المانش سباحةً، ولم يهبط على سطح القمر، ولم يتسلَّق قمة إفرست، ولم يحصل على أوسكار أو نوبل أو بوليتزر، ولم تتجاوز اهتماماته الحياتية دائرة الكتابة وعالم السياسة.

أحجم أنيس صايغ طيلة عقدٍ من الزمن عن الاستماع لنصائح أصدقائه وبعض القراءوتلبية مطلبهم بكتابة سيرته الذاتية. كان يقول عن حياته: «ربما كانوا مخدوعين ببريق في مظاهر حياتي يحاول أن يخفي عتمة هذه الحياة»، وكان يتهرَّب من إلحاحهم بتحريض الآخرين من المؤلفين والساسة على كتابة مذكراتهم، وتدوين سيرهم الذاتية. ويزهو بأن العشرات من كُتب السير التي صدرت؛ إنما تدين له بالحضِّ والتحريض.

سقط هذا التمنُّع فجأة حين سمع ابنة صديقه؛ طفلة في حوالي العاشرة، تسأل والديها عمن يكون عمو أنيس وماذا عمل ويعمل؟ تلعثم

الوالـد، وأحال ابنته إلى أنيس، وسـألت الفتاة: «هـل أنت دكتور؟» فقال: «كلَّا». قالت: «إذن معلّم؟» فهزَّ رأسـه بالنفي. قالت: «مهندس؟ ضابط؟ تاجر؟» والتبس الأمر عليها، وأخذ أنيس يمازحها حتى نسـيت السـؤال، وتخلَّت عن حشـريتها، وأخذ الموضوع يثير حشرية أنيس؛ هكذا ببساطة وعفويـة قرر أن يسـجل حياتـه، وقد لامس الخامسـة والسـبعين؛ فيعرّف الناس بنفسه، لعله يتعرَّف على نفسه.

سـيرة أنيـس وادعـة لا تنتهج طريقـة تجريح الآخرين، وذكـر المثالب بالأسـماء والشـخصيات؛ فهو لا يحب الدخول فـي المعارك، وهي على العكس من سيرة الكاتب عبد الرحمن بدوي الذي يقول فيها للأعور أنت أعور، أما أنيس؛ فيرى أن المطلوب هو تأريخ الأحداث، وليس مدُّ أصابع الاتهام؛ ويفلسـف ذلك بأن حياة الإنسـان، كل إنسان، مليئة بالمجابهات السلبية مع غيره؛ ما دام هو قد صرف أيامه يعمل وينتج ويتحرك. والإنسان الكبير هو الذي يستطيع أن ينظر إلى تلك الوقائع الماضية نظرات مُنصفة وعادلة، مُنزَّهة عن الأهواء والضغائن والأحقاد.

يحكـي لنـا طفولتـه، وأجواء الأسـرة، وقصة تعـارف والدتـه ووالده، الفصل الأول المعنون: «في المنبت» عن حياة الطفولة، وطبيعة الأسـرة، وقصـص إخوانـه، وطريقـة عَيشـهم، وقـد تحولـت أسـرة والدتـه مـن الكاثوليكيـة إلـى البروتسـتانتية؛ التحـول الـذي يعـدُّه الكاثوليك ضلالًا، ويعدُّه الإنجيليون اهتداءً.

يقص علينا قصصًا عن قوة شخصية والدته عفيفة البتروني، وعن تدين والده القسيس عبد الله الصايغ الذي التحق بكلية اللاهوت الموجودة في

القدس؛ مفضلًا إياها عن كلية اللاهوت البيروتية لمواصلة دروسه؛ رغم أنها بعيدة نسبيًا؛ إلا أنها أكثر تمسكًا بالتفاسير والقراءات والاجتهادات التقليدية، وكانت تلتزم بالآراء المحافظة. كان والده يأبى مجاراة القُسُس في وضع الياقة البيضاء حول العنق، والروب الأسود أثناء خدمة العبادة في الكنيسة، واحتفظ بملابسه العادية كأي رجلٍ مدني في المجتمع، وكان لوالده موقفٌ نقديٌّ من تمجيد الصليب؛ إذ رآه رمزًا لا يجوز تبجيله، ولا التفنُّن في صنعه وترصيعه بالجواهر. وكان والده يسخر من الكنائس الأنجليكانية في بريطانيا؛ لأنها تستعمل لنوافذها زجاجًا ملونًا، أما كنيسة والده في طبريا؛ فكانت فارغة تمامًا إلا من المقاعد والمذبح وصليب صغير، وكانت جُدرانها عارية من أي صورة، أو تمثال، أو أيقونة، أو زينة.

عندما كتب أنيس سيرته وأهدى نسخة إلى عزمي بشارة؛ تحدَّثا بتوسع عنها، وتعهَّد بشارة أن يكتب عنها، وعن سيرة شفيق الحوت؛ لأنه وجد مشتركًا قيميًا وإنسانيًا واسعًا بين أكثر شخصين اختلافًا في الطباع الشخصية. وقال له حينها عبارةً هي موضع الشاهد؛ جملة فرح بها أنيس، لكن بشارة قصد فعلًا أن يطرح موضوعًا ما زال يشغله، وما زال يفكر به، كمُعضلة فكرية للنقد الأدبي قال: «لماذا كلما كتب الكبار عن طفولتهم يخرج من بين أيديهم أدبٌ من دون أن يدروا». (وأنيس كبير، ولكن بشارة يقصد هنا كِبر السنِّ تحديدًا). ونجد بشارة يوضح ذلك بالقول إنه بشعر أنه يقرأ أدبًا جميلًا كلَّما قرأ الفصول الأولى من مذكرات أمثال كمال الصليبي، وشفيق الحوت، وأنيس الصايغ، وأحمد الخطيب وغيرهم. وينصحنا بشارة بمراجعة تلك الفصول الأولى عن طفولتهم؛ «فهي ليست

كسائر أجزاء الكتاب؛ إنها أدب جميل، بكل تعريف للجمال في الأدب».
(في ذكرى أنيس، عزمي بشارة).

وُلد والقلم بين أصابعه

وصف أحد الكتَّاب أنيس بأنه وُلد والقلمُ بين أصابعه؛ ولعل في التعبير المجازي بعض الحقيقة؛ فأنيس لم يقُم في حياته بأي نشاط، إلا وكان القلم أداته الأولى، وكانت الكتابة هي الوسيلة، وهو يعرِّف نفسه في سيرته بأنه كاتب، ولا يعترف بمهنة إلا مهنة الكتابة؛ حتى عندما درس في بعض الجامعات في فترات متقطِّعة بقي يحومُ في سماء الكتابة، ويعوم في بحار الحبر والورق.

يعترف كاتبنا أنه كره الدَّرس من موقع الطالب، كما كره التدريس طيلة حياته؛ بل إنه يعترف أن أبشع ذكرياته هي تلك المتعلقة بالتلمذة والأستذة في المدرسة والكلية والجامعة، وأن معاهد التعلم والتعليم كانت أبشع الأماكن التي اضطُرَّ إلى التردُد عليها، وأن انقضاء ساعات التدريس اليومية كانت أجمل لحظات النهار؛ فقد كان يلمس شعور الطلبة بالملل والشرود والنُّعاس فيما هو يحدِّثهم عن تاريخ لبنان.

بعد التخرج في الجامعة ١٩٥٣، وحتى التحاق أنيس بجامعة كمبردج ١٩٥٩، أصبحت الكتابة شغله ومصدرَ رزقه، كان أعزب ويقيم مع أسَرته، وكانت نفقاته مخصَّصة لبنود ثلاثة فقط: تذاكر السينما، واقتناء الكتب، وشراء ربطات العنق. وكانت هذه الثلاث هواياته الوحيدة تقريبًا. وفي صيف العام ١٩٥١ نال أول مكافأة في حياته عن عمل ثقافي قام به؛ بتكليف من الدكتور عزت طنُّوس؛ المناضل الفلسطيني الذي أسَّس

«المكتب العربي الفلسطيني»، وطلب من أنيس أن يعدَّ قائمةً شاملة بمصادر القضية الفلسطينية؛ مراجعها ووثائقها؛ فقام بالعمل، وهو يظن أن إسهامه مجاني؛ لكنه حصل على حوالة بمبلغ ألف ليرة لبنانية، وكان مبلغًا سخيًّا بحسابات ذلك الزمن.

يروي لنا أنيس قصة طريفة عن اضطراره لترجمة بعض الكتب التي لا تروق له بسبب الحاجة للمال، ثم بحثه عن حلٍّ يدرُّ عليه المال؛ فنصحه أحد الناشرين في بيروت، بأن يكتب موسوعة جنسية بعنوان جذَّاب ورصين، وأسماها **دائرة المعارف الجنسية**، وإن اعترف بأن خبرته في هذا المجال ضعيفة، ولخجله من وضع اسمه على هكذا كتاب وضع عليه اسمًا مستعارًا.

في عام ١٩٥٩ تزوج من هيلدا، وسافر إلى كمبردج، ويصف هذه السنوات الخمس في كمبردج بأنها كانت أجمل سنوات حياته؛ ويُرجع الفضل في ذلك إلى المدينة وطبيعتها وناسها ومناظرها وتقاليدها وفنونها، وكان يُدرِّس الطلابَ الدراسات العربية؛ وهم من النوع الذي يطمح في العمل في مجالات تتطلب معرفة العرب والعربية؛ كالسلك الدبلوماسي والشركات العالمية؛ لذلك كان يمازح طلابه ويسمِّيهم جواسيس المستقبل، وكان يذكرهم بقصة المستشرق بالمر؛ وهو من أوائل أساتذة الدراسات الشرقية في كمبردج؛ قتله الوطنيون في سيناء عام ١٨٨١، بينما كان يتجول في ديارهم؛ بحُجَّة البحث عن الآثار، متَّهمين إيَّاه بالتجسس.

بل إن الدبلوماسي الصهيوني أبا إيبان، الذي أصبح فيما بعد وزيرًا لخارجية إسرائيل، قد شغل المنصب الذي شغله أنيس قبله بعشرين سنة؛

إذ كان أبا إيبان يتقن العربية، وهو الذي ترجم توفيق الحكيم إلى الإنجليزية. وتشاء الصُّدف أن يحصل أنيس على مكتب شغَله قبله بسنوات طلاب الدراسات الشرق أوروبية، وكان منهم أربعة ثبت فيما بعد أنهم كان يتجسسون لصالح السوفييت ضد بريطانيا، واشتهر أحدهم؛ وهو كيم فيلبي، الذي فرَّ من بريطانيا إلى لبنان، ومنها إلى موسكو، وهو ابن المستعرب البريطاني سانت جون فيلبي؛ الذي أسلم وعُرف باسم الحاج عبد الله فيلبي. ويحكي أنيس أنه التقى كيم عدة مرات، وأنه كان من أنصار هتلر، ويعارض سياسة بلاده الخارجية المحابية للصهيونيين.

كان الطلبة الذين درَّسهم في كمبردج بريطانيين اللهمَّ إلَّا واحدًا؛ هو الأمير رعد بن زيد بن الحسين الهاشمي؛ الذي تولى منصبًا في القصر الملكي في عمَّان. ومن خلال معرفته بالمستشرقين والمهتمين بالدراسات العربية في بريطانيا يخبرنا أنيس الصايغ أنه باستثناء دنس جونسون دافز، لا يعرف مستشرقًا بريطانيًا واحدًا يستطيع أن يقول عنه إنه يتقن العربية؛ كما يتقن أحدنا الإنجليزية، وديفز هو الذي ترجم العديد من روايات نجيب محفوظ إلى الإنجليزية.

يروي صايغ في الكتاب ملابسات تأليفه العديد من الكتب؛ مثل **لبنان الطائفي**، **والأسطول البحري الأموي في البحر المتوسط**، ويروي كذلك ظروف كتاباته عن الهاشميين، ومنع كتبه في الأردن، ومنعه من دخولها. ثم يأخذنا في جولة للتعرُّف على تجربته في العمل في «مؤسسة الدراسات الفلسطينية»، حيث استلم العمل في مركز الأبحاث يوم ٧/ ٨/ ١٩٦٦، واستمر فيه مدة عشر سنين؛ ذاب المركز فيه مثلما ذاب فيه، وتحول لناسك في صومعة مركز الدراسات، وأصبح المركز في عيون الناس هو

أنيـس صايـغ، ويُقـدِّم لنا تجربته الثرية فـي العمل رئيسًـا لتحرير لعدد من المجلات؛ فقد رأس تحرير عدد من المجلات الرائدة (**شـئون فلسطينية، وشـئون عربيـة، والمسـتقبل العربي، وقضايـا عربية** وغيرهـا)؛ فضلًا عن دوره المهمّ في **الموسوعة الفلسطينية**.

هكـذا نـرى أنيس صايغ رجـلًا لا يعرف إلا الكتـب، والعمل الثقافي، والنضال؛ فقد يكتب الناس مذكراتهم، ويعبرون فيها عن بعض أشجانهم وخواطرهم النفسـية، أو شـيء مـن العاطفـة، وأحيانًا اعترافـات، أما هذا الرجل؛ فنراه من خلال سيرته ينتعش بالعمل، والمشاريع الثقافية، وتحرير المجـلات، وإصدار الكتب والموسـوعات، والعمل من أجل فلسـطين. وقـد حبـس كاتبنا نفسـه في عالـم الكتابة بـكل صنوفه؛ بداية مـن المقالة الصحافية إلى تأليف الكتب والترجمة، وإعداد الموسوعات والقواميس، وتحرير المجلات والزوايا الصحافية، وإدارة مراكز البحوث، وتحرير ما يكتبه الآخرون؛ هذا عالمه الذي يعتزُّ به، والذي أزعج به إسرائيل؛ لترسل لـه طـردًا بريديًّا مفخخًا انفجر بيديـه؛ مما أفقده جُزءًا من سـمعه وبصره، وفقد ثلاثة أصابع من يدِه اليسرى، كما تضررت يده. وفي ١٤/ ١٢/ ١٩٧٤ أُطلقـت ثلاثة صواريخ علـى مركز الأبحاث كادت تـودي بحياته، وحياة مـن فيـه، ولعل تجربته تسـتحق القراءة عنها باسـتمرار، ومراجعة إرثه في «مركز الدراسات الفلسطينية».

سخر إميل حبيبي من أنيس صايغ قائلًا إنه: «المثل الأعلى للمفكرين بـلا فكـر!»؛ وذلك أن أنيس كان يضع كلمة «إسـرائيل» بين قَوسـين، وردَّ صايـغ قائـلًا: «إن بصـري مهمـا ضَعُـف يظل يـرى (إسـرائيل)؛ يراها في وحشـيتها وجرائمها وألاعيبهـا وأكاذيبها ومؤامراتهـا. العينان المنطفئتان

تريـان (إسـرائيل) أفضل مما تراها العيون السـليمة المعافـاة. ولأني أرى (إسـرائيل) هكـذا؛ أعـدُّ وجودهـا حالـة غيـر طبيعيـة، وغير أصيلـة وغير صحيحـة. القوسـان ليسـا عجـزًا عن رؤيتها؛ بـل رفض قاطـع لوجودها؛ إنهمـا إعـلان لموقف مبدئي معيَّن، ثابت وحاسـم، أنـا -والكلام ما زال لأنيـس- لا أنكـر وجـود (إسـرائيل) بهذين القوسـين؛ بل أنكـر حقَّها في الوجود؛ ولأني أنكر حقَّها في الوجود أدعو إلى إزالتها».

(١٣) صلاح الدين المنجّد:
سندباد المخطوطات وعالِم دمشق ومؤرّخُها

عندما رأيت غلاف كتاب بعنوان: **لمحات من تجاربي الفكرية**، للدكتور صلاح الدين المنجِّد (١٩١٩-٢٠١٠) صادر عن مركز تراث للبحوث والدراسات بالقاهرة؛ من تقديم د. محمد متولي، تحمَّستُ لقراءته، والتعرف على عالـمَ هذا المحقق الشهير. والكتاب في الأصل محاضرة ألقاها المنجِّد عام ١٩٦٢ في لبنان؛ يحكي فيها عن سيرته الفكرية.

يبدأ صلاح الدين المنجِّد الحديث عن تجربته بالتعليق على قول باسكال «الأنا مكروهة»؛ تلك العبارة التي يردِّدها الناس تظرفًا أو تحذلقًا عندما يحلو لهم الحديث عن النفس، ويبدؤون في ذمها، لكن المنجِّد، على العكس من ذلك، يرى أن الحديث عن النفس مُحبَّبٌ لا بغيض؛ فالأحاديث الذاتية التي يسمعها من الناس تكشف الكثير عن أفكار النفس البشرية، ويجد فيها الإنسان مجالًا للفائدة والثراء العقلي؛ يستمدهما من تتبُّع التجارب التي مرَّت بها كل نفس.

وُلد صلاح الدين المنجِّد في منتصف عام ١٩٢٠، في حي القيمرية جنوب المسجد الأموي، لأسرة دمشقية أصيلة جمعت فروعها بين التجارة والعلم. وقد انحدر عالِمنا من الفرع الذي مال إلى العلم، وكان والده عالِمًا في قراءات القرآن الأربعة عشر. تتلمذ الفتى على يد الشيخ

محمد بهجة البيطار، والشاعر الكبير خليل مردم بك، ولعل من أعمق ذكرياته، صورة قديمة في نفسه، يلمح فيها قاعة عريضة في داره، صُفَّت في جوانبها كتبٌ وكتب، وهو يرى شيوخًا يزورون دارهم؛ لا يكادون ينقطعون عنها ليل نهار، يدخلون بهدوء وصمت، ويتحدثون في العلم بأدب وأناة.

يحكي لنا كاتبنا أنه لما بلغ البكالوريا، بدأ في دراسة الأدب العربي الذي استهواه وشغله؛ فراح يحفظ الشعر، وكان لديه رُفقة يجتمع معها؛ فيتبارون في إنشاد الشعر، وهو ينبهنا إلى أن الثقافة المصرية كانت هي الثقافة الطاغية على البلاد العربية قُبيل الحرب العالمية الثانية في الأربعينيات؛ حيث كانت أسماء: الرافعي، وطه حسين، والعقاد، والحكيم، والزيات، وأحمد أمين، وزكي مبارك تطنُّ وتملأ الدنيا، وكانت مجلات **المقتطف**، و**الرسالة**، ثم **الثقافة**، ميادين رحبة لإنتاج هؤلاء، وغيرهم.

تطلع المنجِّد إلى أن يرى اسمه في **مجلة الرسالة**، وما كان أعظمها، إلى جانب أسماء الكبار، وكانت الرسالة تُصدر كل سنة عددًا ممتازًا في رأس السنة الهجرية؛ يكتب فيه الكبار في العالم العربي؛ فراح المنجِّد، قبل شهرين من موعد صدور العدد، يعدُّ مقاله، ويصنعه صناعة؛ كأنه حداد أو نجار؛ يكتب المقال عدة مرات، ويمزقه، ويعيده، ويعود إلى الكتب القديمة؛ ليلتقط لفظًا، أو يصطاد معنى، وبذل المنجِّد الكثيرَ من الجهَد؛ ليرضي ذوق رئيس تحرير الرسالة الزيات، وأرسل إليه المقالة ومرفق معها صورة له، لقد كان ناشئًا لم يُقدِّمه أحد إلى الزيات، ولم يأخذ بيده أحد، وبقي أسبوعين يتقلب على الجمر ينتظر ردَّ الزيات. وذات يوم حمل إليه البريد رسالة من الزيات، يُرحِّبُ به في **مجلة الرسالة**،

ويعاتبه أنه أرسل صورة لنفسه في شبابه؛ فقد توقع الزيات من أسلوب المقال أنه كاتب أكبر في العمر.

كان صلاح الدين المنجِّد في دمشق في فترة الحرب العالمية الثانية، يرى شيوخ المجمع العلمي، الذين يسوءُهم أن ينطلق شابٌّ في الميدان الذي يجولون فيه، وبرغم أن مقالته في الرسالة كانت جواز مرور، لكنه أحسَّ أن من يحتكرون الأدب لم يعترفوا بوجوده، وفي ثورة نفسية عارمة رأى أن ينقدهم جميعًا، وهكذا يكون النقد والهجوم عند المبتدئين وسيلةً لإثبات الذات، ونشر نقدًا للجماعة الأدبية في دمشق في **مجلة المكشوف** اللبنانية، ونشر سلسلة مقالاتٍ بعنوان: «أعضاء مجمَع لكنهم مُفلسون».

في عشق دمشق

في عام ١٩٤٣ أصدر ثلاث مسرحيات صغيرة؛ بعنوان: **إبليس يغني**، وفي عام ١٩٤٤، اتخذ اتجاهًا جديدًا؛ حيث ترك الأدب إلى حين، وانصرف إلى التاريخ، فقد عُيِّن رئيسًا لديوان مديرية الآثار؛ استهوته الأعمدة، والأحجار، والنقوش، ونشأت بينه وبينها ألفة وصداقة؛ وهكذا أخذ يطوفُ على كل أثر في دمشق؛ في العشايا، عندما يخيم الليل، ثم يعود للكتب يبحث عن أصل هذا الأثر ومَن صاحبه، وهكذا أخذ يُعمِّق من قراءاته التاريخية، ويُعنى بالدقائق وبتفاصيل تاريخ دمشق.

كان يطوف بهذه الآثار ساعاتٍ بعد ظهر كل يوم؛ يستقرئ كل أثر ويحدق فيه، وينقل الكتابات القديمة التي تعلوه؛ فالماضي يضطرك في دمشق إلى أن تحسه وتعيش معه. في كل زقاق ودرب وشارع؛ تجد

مسجدًا، أو كنيسة، أو سبيل ماء، أو مئذنة ذاهبة في السماء، وهذه التجربة جعلته ينشر كتابين: **خِطط دمشق ومعجم الأماكن الطبوغرافية بدمشق**؛ وهما من أحب كتب المنجِّد إلى نفسه؛ لأنه قضى في تأليفهما شهورًا طويلة. ولقد اهتم بتاريخ دمشق، وتحقيق المخطوطات عنها؛ مثل: (**فضائل الشام ودمشق، أمراء دمشق في الإسلام، مأساة سقوط دمشق وسقوط الأمويين**، والمجلد الأول من كتاب **تاريخ دمشق** لابن عساكر). ونشر سلسلة عن آثار دمشق؛ مثل (**بيمارَستان نور الدين، وقصر أسعد باشا**).

التعرف إلى محمد كرد علي

اضطره عمله الجديد للرجوع إلى المخطوطات القديمة؛ فصار يختلف إلى دار الكتب الظاهرية؛ حيث آلاف المخطوطات، وكان يُديرها آنذاك يوسف العش، ثم تبعه عمر رضا كحَّالة. وكان المنجِّد يعرف رئيس المجمع العلمي الأستاذ محمد كرد علي؛ إذ سبق له انتقاده على صفحات **مجلة الرسالة**، بعد إلقاء كرد علي محاضرة في الجامعة السورية بعنوان **مميزات بني أمية** عام ١٩٤٠، وكان الزيات لا يحب كُرد علي؛ فسارع بنشر المقالة، وقد استقبل كرد علي النقد بصدر رحب، ودفعه إلى العمل دفعًا، والمنجِّد يُسجِّل شهادةً في حقِّ كُرد علي عندما يقول عنه: «لم أعرف في شيوخ المَجمع العلمي كلهم رجلًا؛ خُلق ليشجع، ويدفع إلى العلم والبحث، مثله؛ لقد كان أبا النهضة الفكرية في سوريا».

اجتمع كرد علي مع صلاح الدين المنجِّد وهو شابٌّ، وقال له: «استفدتُ من نقدك لي في ثلاث نقاط؛ أما باقي الكلام في المقالة؛ فلا

معنى له، ثم قال له: قرأتُ محاولاتك الأدبية في مسرحية إبليس يغني، وأرى أن تترك هذا المجال إلى تخصص مختلف، ثم دفعه للاهتمام بدمشق وتاريخها، وقال له: «هذه مدينتك دمشق؛ يحب أن تهتم بتاريخها وعلمائها وكذا؛ إذا لم تبدؤوا أنتم؛ فمن يفعله؟ أنا سأموت؛ يحب أن تهتم أنت وغيرك بهذا الأمر، وأقول لك؛ كما قال لي الشيخ طاهر الجزائري: التراث العربي المخطوط مُهمَلٌ فاعتنُوا به وأحيُوه».

لا ينسى صلاح الدين المنجِّد تشجيع كُرد علي له، ودفعه إلى العمل على تحقيق كتاب **رُسل الملوك** لابن الفرَّاء، وقد استعان المنجِّد بالأستاذ سليم الجندي وكُرد علي كلَّما اعترضته مشكلات في التحقيق، وعندما طُبع الكتاب، واطلع عليه كُرد علي، أخذ يقبّل المنجِّد وهو فرحان، ويردِّد عبارته المشهورة: «يا عيني عينك، يا عمري عمرك؛ أنت أحسن من الشيوخ»، واحتفى كُرد علي بهذا الكتاب، وكتب له رسالة رقيقة بدأها بقوله: «إلى ابني الروحي صلاح الدين المنجِّد». والرسالة مليئة بالمدح والتأثُّر بنتاج جهد صلاح الدين المنجِّد في تحقيق الكتاب؛ حتى إنه قال له: «لو كان في مؤلفينا الشباب كثيرون مثلك، لكانت الشام أرقى من مصر»، وظلت الصلة بينهما قائمى؛ حتى أن المنجِّد اعتاد زيارة كُرد علي في المَجمع العلمي، أو في قريته جسرين بالغوطة.

في حدود ١٩٤٩، أخذ المجمع العلمي يفكر في تحقيق «**تاريخ مدينة دمشق** لابن عساكر، وهو أضخم تاريخ ألفه إنسانٌ في تراثنا العربي؛ حيث يصل إلى ثمانين مجلدًا، وحقَّق المنجِّد المجلد الأول منه في سنتين. ويحكي كيف كان يقضي اليوم كله والأسبوع كله في البحث عن كلمة أو جملة حرَّفها الناسخ في المخطوطة.

هكذا اتصل صلاح الدين المنجِّد بالمخطوطات، التي كانت خطرًا عليه؛ فالمخطوطات القديمة كالمخدرات إذا اعتادها الإنسان هيهاتَ أن ينجو منها، وهو ينسب هذا القول لطه حسين، والمنجِّد لم يدع فرصةً منذ ذلك الحين إلا اغتنمها للاطلاع على المخطوطات.

الحصول على الدكتوراه والرحلة مع المخطوطات العربية

سافر المنجِّد إلى باريس ليحصل على الدكتوراه وكانت رسالته عن **النظم الدبلوماسية في الإسلام**، إِثْر إصداره **تاريخ ابن عساكر**، وحرص على الاطلاع على المخطوطات المحفوظة في الناسيونال؛ رغم انشغاله بالتحضير للدكتوراه في الآداب والحقوق، وبعد أن عاد إلى سوريا أرسلته الحكومة في عام ١٩٥٤ إلى إسبانيا؛ ليكتشف مخطوطات الإسكوريال، والأديرة الأخرى، وطاف في الأندلس.

رشَّحته الحكومة في سوريا في عهد فارس خوري رئيس الوزراء ليكون مديرًا لـ «معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية»، وبقيَ فيه إلى عام ١٩٦١، ويقول عنه: «لم تصنع جامعة الدول العربية شيئًا أحسن من إنشاء هذا المعهد»، وكانت تريد من وراء إنشاءه جمع التراث العربي من المخطوطات القديمة، وحاول المعهد تصوير هذه المخطوطات المبعثَرة في دول العالم، وعندما بدأ المنجِّد عمله في المعهد كانت المخَطوطات المصورة في حوزة المعهد قُرابة ستة آلاف فيلم، وترك المعهد بعد ثماني سنوات، وعدد المخطوطات يقاربُ الثلاثين ألفًا، وأصدر مجلة **المخطوطات العربية**؛ التي تُعنى بشئون المخطوطات وأخبارها.

غرق صلاح الدين المنجِّد في الماضي السحيق، وأصبح سندباد المخطوطات بحقٍّ؛ سافر إلى لينينغراد وموسكو، وطشقند وبخارى وسمرقند، وطهران ومشهد، ومكتبات باكستان والهند، ومكتبة الفاتيكان، وجلس في مكتبة (الأمبروزيانا) في ميلانو مدة شهر ونصف؛ يطَّلعُ على المخطوطات العربية فيها، ويفهرس المخطوطات اليمينة بها.

عاش صلاح الدين المنجِّد بين الموتى الأحياء، وكم خاطرَ ليصل إلى مخطوطة، وتكبَّد المعاناة ليطَّلع على هذه الكنوز، لقد غامر ليكتشف هذا العالم، وطاف الأديرة والكنائس والمكتبات والمساجد والزوايا، وهبط الأودية، وصعد في الجبال، وأَلِفَت كفَّاه الغبار، وأنفُه رائحةَ الرطوبة، ولم يدع بلدًا في أوروبا إلا زاره، حتى روسيا زارها في شتائها المخيف؛ حتى المخطوطات العربية في أمريكا اطلع عليها؛ عندما دُعِي ليكون أستاذًا زائرًا في جامعة برنستن. ولقد أثار جمعه للتراث أسئلة كثيرة في رأسه، عن إهمالنا التراث واهتمام الغرب به، وما قيمة هذا التراث، وما موقفنا منه اليوم، وقد أسِف لحالة بعض المكتبات في البلاد العربية؛ حيث رأى بعض المخطوطات مبعثَرة وغير منظَّمة، وأحيانًا ممزَّقة؛ قد علاها الغبار، ورتعت فيها العثُّ والديدان، ثم يدخل مكتبة في أوروبا وأمريكا؛ فيجد هذا التراث مُصانًا محفوظًا.

يقدِّر المنجِّد حجم المخطوطات بـ ٣ ملايين كتاب، ويتساءل: «كيف استطاع العرب أن ينتجوا هذا العدد الضخم؟» وعن المعجزة العربية التي حدثت لهم بعد الإسلام، وكيف انتشرت المعارف في الحضارة الإسلامية من أقوام كانت ثقافتهم شعرية وشفهية؟ وهو يحترم المستشرقين الذين اهتموا بكتب التراث ونشروها ويعترف بفضلهم؛ مثل دي خوية ودوزي.

لقد قامت صلات بينه وبين المستشرقين منذ عام ١٩٤٤؛ من خلال رحلاته الطويلة مع المخطوطات، وهو يحترم جهودهم، ويشيد بها، وينزعج من شَتم الشباب لهم، وينزعج عندما يرى أن الاستشراق يسير إلى نهايته، مع عدم وجود مؤسسات عربية تكون بديلًا عن دور الاستشراق التقليدي، وقد نشر كتابًا بعنوان: **المُنتَقى من دراسات المستشرقين**.

ثقافة متنوعة وإنتاج غزير

ثقافة صلاح الدين المنجِّد متنوعة؛ حيث ضمت مكتبته ثلاثين ألف عنوان؛ قال في إحدى الندوات: إن الأقدمين يصفون الذي يحيط بجميع العلوم، ويأخذ بطرفٍ من كل منها بأنه «عالِمٌ مشارك»، وكان يعجبه الاسم؛ فقد بدأ حياته أديبًا، ثم انتقل إلى تحقيق النصوص الأدبية، ثم اهتم بالكتابة السياسية للصحف. عندما انتهى من عمله في «معهد المخطوطات العربية»، وعاد إلى بيروت مع زوجته السيدة دنيا؛ شقيقة الصحفي اللبناني كامل مُروَّة، مؤسس **جريدة الحياة**، وأصبح يكتب في **جريدة الحياة** عمودًا صحفيًّا بعنوان: «زاويتي»، وفي بيروت عاش المنجِّد ليفتح دار نشر باسم «دار الكتاب الجديد»؛ اهتمت بنشر كتب التراث المحقَّقة. كما اعتنى المنجِّد في بيروت بالتعبير عن آرائه السياسية ومواقفه من الأحداث العربية، ونشر عدة كتب في ذلك الشأن؛ مثل: **أعمدة النكبة: بحث علمي في أسباب هزيمة ٥ حزيران**، **والتضليل الاشتراكي**، **وبلشفة الإسلام**.

اهتم صلاح الدين المنجِّد بالكتابة عن النواحي الاجتماعية في التاريخ الإسلامي؛ مثل كتابه **في قصور الخلفاء**، وكتاب **الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس**، وكتاب **الخلفاء والخلعاء**؛ وكلها كتب تهتم بتفاصيل الحياة الاجتماعية، وكان لديه اهتمام بقصص الحب والغرام؛ مثل مقالاته وهو شاب في مجلة الرسالة؛ والتي جمعها في كتاب بعنوان: **نساء عاشقات**، أو كتابه **الحياة الجنسية عند العرب**. ومن يتصفَّح مقالاته في **مجلة الرسالة** وغيرها يجد هذا الشغف لديه، الذي انتقل إلى الاهتمام بالنصوص المحققة؛ مثل تحقيق كتاب **نزهة الجلساء في أشعار النساء**، وغيرها من العناوين اللَّافتة التي تدلُّ على شغفه الأدبي الذي لازمه طوال حياته بجانب عمله بالتحقيق والتراث.

نختم بقصة عن صلاح الدين المنجِّد تدلُّ على مروءته وطيب معدنه؛ عندما تواصل معه فخري البارودي الزعيم السوري، والذي نزل في فندق بسيط في بيروت، وفي أحد الليالي اتصل البارودي بالمنجِّد في الساعة الثانية صباحًا، وقال له: الحقني سأموت؛ إن لم تدركني، وعلى الفور توجه المنجِّد للفندق وهو متعجب أن ينزل البارودي بفندق بسيط كهذا، وطلب دكتور قلب ليكون معه، وعندما عرف الدكتور أن هذا هو فخري البارودي الزعيم السوري، وعضو الكتلة الوطنية، تم نقله إلى المستشفى الذي طلب مالًا؛ ليتم إيداع المريض به، واتصل المنجِّد بكامل مُروَّة الصحفي اللبناني الذي تدخل، وسهَّل إجراءات الدخول، وتم إنقاذ حياة فخري البارودي الذي شعر أنه مدينٌ لصلاح الدين المنجِّد الذي وصل على الفور، وكتب البارودي ورقةً للمنجِّد، وقال له اقرأها لاحقًا، وكان فيها:

جـزاك الله عنـي كلَّ خيـرٍ

صـلاحَ الديـن يـا إبْـنَ الكـرامِ

لقـد أنقـذتَ فـي الدنيـا حياتي

أخـا العَلْيـا مـن الموت الـزُّؤامِ

سـأدعو الله أن يبقيـكَ ذُخْـرًا

لقومك في الصلاةِ وفي الصيامِ

تقبَّـل يـا صـلاحُ عميمَ شُـكْري

وحمـدي والتَّحايـا معْ سـلامي

(١٤) أسعد داغر: شاهد عيان على الانقلاب على السلطان عبد الحميد ١٩٠٩

سهرتي الليلة مع كتاب مذكراتي على هامش القضية العربية لأسعد داغر، الذي حقَّقه خالد زيادة. وترجع معرفة زيادة بالمذكرات إلى اطلاعه عليها عندما كان يعدُّ روايته **حكاية فيصل**. ساعتها تنبَّه لمقدار تماهي صاحب المذكرات مع القضية العربية التي نذر حياته من أجلها، وكانت إعادة نشر المذكرات في طبعة موثَّقة فكرة راودته منذ ذلك الحين. وهكذا أُعيد نشر الكتاب بعد ستين عامًا على صدوره أول مرة.

نقف في هذه المذكرات عند لحظة مهمة وفريدة؛ عندما يصل أسعد داغر إلى إسطنبول لدراسة الحقوق. كان والده يفكر في إرساله إلى باريس للدراسة فيها، لكن أسعد لم يرتَح لهذه الفكرة؛ لا لسببٍ إلا لشعوره بأنه غير فرنسي؛ خاصةً بعد إعلان الدستور العثماني، وانتشار الروح الوطنية في البلاد.

استقلَّ أسعد الباخرة التي أقلَّت نُوَّاب سوريا في مجلس المبعوثان، وكان السيد عبد الحميد الزهراوي أول من عرَفه منهم؛ فقد شاءت المصادفة أن يجلس جواره على المائدة. رست الباخرة، ونزل في «فندق كروكر»، وكانت الطريق غاصَّة بالجند؛ استعدادًا لمرور السلطان عبد الحميد من قصر يلدز إلى دار البرلمان الكائنة بجوار مسجد آيا صوفيا، وقد استأجر أسعد غرفة مطلَّة على الشارع العام، وجلس ينتظر مرور

الموكب السلطاني؛ ليرى ذلك الرجل الذي كان اسمه يُلقي الرعب في النفوس.

وصل الموكب فهتفت الجماهير: «بادشاهم جوق باشا»؛ أي «ليطُل عمر السلطان»، ورأى أسعد السلطان في عربته المكشوفة وهو يضع يده على قبضة السيف، وأمامه الصدر الأعظم، وكان كاتبنا يفكر في هذا السلطان الذي ظلَّ في سُدَّة الحكم أكثر من ثُلُث قرن؛ كان يتأمل: هل سيصبر السلطان على الحكم الدستوري، وينزل على رأي الأمة، ويسير على إرادتها؟

بعد أشهر قليلة جاءه الجواب، كما يقول، من خلال الثورة المضادة على الدستور؛ ففي ليلة ٣١ مارس / آذار ١٩٠٩، قامت حركة مضادة؛ يقول داغر: «إنها من تدبير السلطان عبد الحميد لتقويض العمل بالدستور»، وقد ردَّ السلطان عبد الحميد عن نفسه تهمة التورُّط فيها لاحقًا. اقتُحم البرلمان وحُطِّمت مقاعده. كان أسعد يقطن حي «بك أوغلو»؛ وهو حي السفارات، على مقربة من «مقهى توكتليان»؛ حيث كان يجتمع رجال السياسة من عرب وغيرهم، وقد علم منهم أن الاتحاديين وأحرار البلاد قرروا استرداد إسطنبول وإعادة الدستور بالقوة، وأن جيشًا كبيرًا بقيادة محمود شوكت باشا زحف من سالونيك إلى العاصمة، وعسكر في بلدة سان ستيفانو على مقربة من إسطنبول. يدَّعي داغر أن السلطان عبد الحميد أنذر بإطلاق المدافع من قصر يلدز على حي «بك أوغلو»، حيث تقع السفارات ويقطن أكثر الأجانب، إذا حاول جيش سالونيك مهاجمة العاصمة، تتبعتُ هذه المعلومة، ولم أجدها في المراجع التي عُدت لها، ولعلها من الشائعات التي راجت في تلك الفترة.

يستمر أسعد في شهادته على حالة دار الخلافة العثمانية في ذلك الوقت؛ حيث بقي جيش التحرير حول إسطنبول، وانتقل مجلس النواب إلى سان ستيفانو، وزار أسعد تلك المدينة؛ ليرى انعقاد البرلمان، ومحاولة عزل السلطان، وجلس مع عبد الحميد الزهراوي، وأسعد الشقيري، ثم انتظر خارج المقهى الكبير الذي عُقدت فيه جلسة البرلمان، حتى يطَّلع على نتائج تلك الاجتماعات، وخرج الزهراوي، وقال له: «عُد إلى إسطنبول، والزم غرفتك، واقضِ هذين اليومين في القراءة؛ الاتفاقُ على وشك أن يتمَّ مع جلالة مولانا السلطان أيده الله، وعليك أن تحفظَ لسانك، ولا تتفوَّه بأي كلمة».

عاد أسعد إلى إسطنبول، وعمل بما أوصاه به الزهراوي، وفي اليوم الرابع من عودته سمع دوي الرصاص وقصف المدافع، وخرج إلى الشرفة ليرى ماذا يجري، وإذا الجند يملؤون الشوارع على مدى النظر؛ فقد دخل جيش الاتحاديين إسطنبول لعزل السلطان عبد الحميد، واستمر دوي الرصاص وقصف المدافع إلى الساعة الحادية عشرة، ثم انقطع. وذهب مع جماعة من الناس إلى أقرب ثُكنة دار فيها القتال؛ وهي «ثكنة تقسيم»، وكان القتال بين جيش الاتحاديين، وجيش السلطان عبد الحميد. وسقطت تلك الثُكنة العسكرية، وضُرب حصارٌ حول «قصر يلدز» الذي يسكنه السلطان، وقُطعت عنه المياه والكهرباء، ثم وصل الاتحاديون إلى المقهى واحدًا تلو الآخر، وكان أحمد نيازي أول القادمين؛ وهو عضو في «جمعية الاتحاد والترقي»، وأحد شخصيات الانقلاب، ثم وصل أنور باشا الذي سيصبح وزيرًا الحربية في الدولة

العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، وجاء بعده عزيز علي المصري، وجلس على مقربة منهم لتناول الطعام.

اجتمع البرلمان في المساء، وانتَدب ثلاثة من أعضائه لإبلاغ السلطان عبد الحميد بقرار الخلع، وبعد ذلك اليوم رأى أسعد، رفقة الجالسين في «مقهى توكتليان»، عشرات من عربات السراي تقلُّ مئاتٍ من الغانيات من «قصر يلدز» إلى جهة لم يعرفها، ثم يقول: «إن مظاهر الحيرة كانت بادية في ابتساماتهن ونظراتهن وحركاتهن، وكنَّ في جهلٍ تام بكل ما يجري». انتهت فتنة ٣١ مارس/ آذار، وخُلع السلطان عبد الحميد الثاني، وحلَّ محلَّه السلطان محمد الخامس.

يروي أسعد داغر خطة الحصار كما سمعها؛ فقد عُهد إلى أنور بمحاصرة «قصر يلدز»، ومُنع السلطان من تنفيذ تهديده بضرب «حي بك أوغلو»، وعُهد إلى مختار بك باحتلال ثُكنة تقسيم، وقد قُتل هذا القائد في المعركة، وكانت مهمة عزيز علي المصري احتلال «محطة سركجي»، والاستيلاء على «جسر غلَطة»، والثكنات القائمة على جانبيه، والمنتشرة في طول الطريق إلى «قصر دولمه بهجه»، ثم يقول أسعد: «وُفِّق عزيز في احتلال المحطة والجسر والثكنات المجاورة له دون أن يُطلق رصاصةً أو تُراق قطرةُ دم؛ إلا الثكنة التي كانت حول «قصر دولمه بهجه»، والتي اشتبكِ معها، ثم احتل تلك النقطة، وانضمَّ إلى أنور في القتال عند ثُكنة تقسيم؛ هكذا نرى المشهد عشيَّة الانقلاب؛ مشاركةً من جندي عربي مع أتراك.

في تلك الأثناء زار أنطون فارس إسطنبول؛ قادمًا من مرسيليا، مُوفَدًا

مـن بعض الأحزاب اللبنانية. وذات يوم دعاه الأسـتاذ فـارس لزيارة أنور باشـا، وكان فـي منتهى السـعادة لرؤية أنـور، لكن عاطفة داغـر نحو أنور أخـذت تتضـاءل مـع مـرور الزمـن. ويـرى أسـعد أن الحـرج تصاعَد بين العـرب والأتـراك بعد وصول زعماء تركسـتان إلى إسـطنبول؛ مثل أحمد أغاييف، ويوسف أقشورا؛ الذين أسهموا في نشر الدعوة إلى التتريك.

أُسِّـس «المنتدى الأدبي العربـي»، وأصبح عبد الكريم الخليل معتمَدًا للشـبيبة العربيـة، وقـد اهتم قادة الاتحـاد والترقي؛ طبقًا لمـا يذكره داغر، بمجاملة العرب، وكثُر ترددهم على «المنتدى الأدبي»؛ فكان يزوره دائمًا أنـور، وطلعـت/ وفتحـي، ومدحـت شـكري، وغيرهـم من قـادة الاتحاد والترقـي، ومـع ظهـور فكـرة التتريـك انفصـل عزيـز علي المصـري عن الاتحـاد والترقـي، ويشـير داغر إلى أنه عقَـد مرة في منزلـه اجتماعًا كبيرًا حضره أكثر قادة الترك، وناقش فيه فكرة تقوية السلطة العثمانية من خلال كل عنصـر مـن عناصرهـا، وعـدم تهميـش العـرب، لكن أحمـد أغاييف اعتـرض على هـذه الفكرة. وقد حاول أسـعد تقديم صورة عن شـخصية عزِيـز المصـري الذي سـيصبح قائـدًا للجيش المصري فـي حكومة علي ماهر، وشـرح معالم شـخصيته وطريقته. تعرَّف أسـعد داغر على الشـاعر معـروف الرصافـي فـي إسـطنبول؛ حيـث انتُخـب عضـوًا فـي مجلـس المبعوثان، وعمل أسعد مراسلًا لـ **صحيفة المقطَّم** في إسطنبول، ويستمر في شرح تجربته في تلك المدينة، وتعرُّفه على النخبة اليهودية التي كانت تـودُّ التعـرف على العرب، وفتح النقاش حول فلسـطين فـي ذلك الوقت المبكر. ثم تنتقل المذكرات إلى تجارب أسعد داغر في «المؤتمر العربي الأول» في باريس، ورأيه في الثورة العربية الأولى، وانتقاله إلى سوريا في

عهـد فيصـل، ثم بغـداد، وقصته مع نوري السـعيد، هكـذا تكتمل فصول شهادته على عصره.

يقـدِّم أسـعد داغر شـهادته عـن حالة إسطنبول في تلك الفتـرة، لكنها شهادة أقرب إلى الانطباع الشخصي والملحوظات، تخبرنا المصادر عن صـراع كبيـر دار فـي أروقة الحكـم العثمانـي، وهناك تجاهـل لمعلومات تاريخية؛ مثل عدم سـفك السـلطان عبد الحميد الدماء، والسـماح بتسليم «قصـر يلـدز» للانقلابييـن رغم أنه كان يملـك القوة الكافيـة لصدِّهم، ثم نهب القصر من قبل بعض العصابات، واسـتصدار فتوى لعزل السـلطان، والضغـط عليـه ابتغـاء أن يُنفـى إلى سـالونيك؛ رغم أنه طلـب الإقامة في «قصـر جراغان»، منصرفًا عن الشـأن العام، مكتفيًـا بالدعاء، لكن الطلب قوبل بالرفض، ونُقل إلى محطة قطار سركجي، وعُزل ونُفي. ولما تحرك القطـار كانـت صفارتـه بمثابة إعلان عـن نهاية حقبة. بكى السـلطان وهو يغـادر قصـره، وبعيـدًا عن تفاصيل العـزل؛ كان خروج عبد الحميد يشـبه النهايـات الدراميـة؛ فقـد نُقـل، رفقة بناتـه الثـلاث وولديه وأربـع جوارٍ. وانقلب الشعراء من مدح السلطان عبد الحميد إلى هجاءِ عهده والهجوم عليه، وتوافدَ على المدينة العديدُ من العرب لزيارتها بعد عزل السـلطان؛ مثل جورجي زيدان الذي سجَّل تفاصيل زيارته لها، وكذلك رشيد رضا، وغيرهم.

(١٥) جمال الدين الأفغاني:
سيرة سياسية لحكيم الشرق

امتطى جمال الدين الأفغاني في طفولته حصانًا خشبيًا، وودَّع والديه وشقيقاته، وقال إنه راحلٌ إلى الهند ومصر وتركيا وأفغانستان، ووعد أمه وأبوه بأنه سيقوم بتلك الرحلات؛ وفقًا لرواية لطف الله ابن شقيقته. كبُر الفتى، وتحولت اللعبة إلى حقيقة، وأصبح الأفغاني واحدًا من المفكرين الجوَّالين، الذين تجاوز تأثيرهم حدود بلد إسلامي بعينه.

لذلك ما إن رأيت غلاف كتاب بعنوان: **جمال الدين الأفغاني: سيرة سياسية**، حتى تحمَّست لشرائه، وفرحت به، وشعرت أنه سيكون رُفقة مؤنسة مع هذه الشخصية القلقة التي حيَّرت الكثير من الباحثين، واختلف عليها الناس. بدأت نيكي ر. كيدي العمل على سيرة جمال الدين الأفغاني في صيف عام ١٩٦٤؛ حيث كانت تدرس الثورة الدستورية الإيرانية (١٩٠٥-١٩١١)، وعثرت في أرشيف وزارة الخارجية البريطانية على ملف عن الأفغاني، وهكذا تحمست لدراسة تجربة الأفغاني، وتتبعت أثره في أرشيفات الأماكن التي عاش فيها؛ مثل إسطنبول، وباريس، والهند، والقاهرة، وقدمت لنا عملًا تحقيقيًّا واستقصائيًّا مفيدًا ومثمرًا؛ ليصدر الكتاب عام ١٩٧٢، ويُترجم للعربية في عام ٢٠٢١، بترجمة الأخوين: مُجاب ومعين الإمام، وبجهد مميز من منتدى العلاقات العربية والدولية، الذي قدم لجمهور القراء العديد من سير المفكرين؛ مثل شكيب أرسلان، ومرمدوك بكثال.

أثـار جمال الدين الأفغاني الجدل بسـبب الغموض والخلافات حول تفاصيل حياته؛ هل هو سنِّي أم شيعي؟ وما هي جنسيته: أفغاني أم إيراني؟ وإلـى أيـن يتجـه هواه السياسـي؟ وهـل لديه ميل للـروس مقابـل كراهية الإنجليز؟ وما تفسـير انضمامه للمحفل الماسوني؟ وكيـف امتلك القدرة على الاقتراب من الدوائر الحاكمة في العديد من البلدان؛ مثل أفغانستان، ومصر، والدولة العثمانية؟ وكيف جمع بين تلاميذ متنوعين من الليبراليين المنفتحين، ومسـيحيي بلاد الشـام، إلى شـيوخ معمَّمين من الأزهر؟ كلُّ هذه التفاصيل تتناولها الكاتبة بتفحص شديد، وبمحاولات للفهم والنظر التاريخـي. وتُنبِّهنـا فـي بدايـة الكتـاب إلى الحذر من السـيرة التـي قدمها محمـد عبـده، وجورجي زيدان عن الأفغاني، وتمـزج الروايات ببعضها؛ حتى تقدم تصورًا لكل مرحلة من حياته.

البدايات: السنوات الغامضة

تبـدأ الكاتبـة بدراسـة السـنوات السـبع والعشـرين الأولـى مـن حيـاة الأفغانـي بيـن عامي (١٨٣٨-١٨٦٦)، وهي السـنوات التي لا تتوفر فيها وثائق كافية يمكن التعويل عليها. تميل كيدي إلى أن جمال الدين وُلد في إيران في قرية أسد أباد قُرب مدينة همذان، وأنه تجنَّب ذكر ذلك؛ حتى لا يتم ربطه بالمذهب الشيعي، وقد عُرف بالذكاء والنبوغ منذ الصغر، وكان لديـه ولعٌ بالكتب. اصطحبه والده إلى النجف، وتعلم فيها بعض الوقت. وتُنبِّهنا المؤلفة إلى ولعه بدراسـة الفلسفة منذ شبابه. وبعد ذلك غادر إلى الهند في أواخر سـنوات المراهقـة، وتوضِّح كيدي أن تجربة الهند تركت أثـرًا فـي شـخصيته؛ حيث رأى الاحتـلال البريطاني. والأمـر الثاني الذي

عرفه في الهند هو العلوم الحديثة والمعارف الغربية. وبعد الإقامة في الهند ذهب في رحلة إلى مكة، ومرَّ بالعديد من البلدان مثل إيران، وفي هذه الزيارة التقى والده وغيره من الأقرباء، وطلبوا منه الاستقرار، وكان ردُّه: «أنا مثل الصقر، طيار المسافات الطويلة؛ يرى فضاء الكون الشاسع يضيق عن طيرانه؛ فكيف تريدون إذن أن تقيدوا قدمي وتسجنوني في القفص الصغير؟ أنا مثل الصقر الملكي».

مستشار سياسي في أفغانستان: ١٨٦٦-١٨٦٨

وصل جمال الدين إلى هراة عام ١٨٦٨، وما أن استولى أعظم خان على قندهار، حتى ارتفعت وتيرة نشاط جمال الدين. هنا نرى الظهور الأول لجمال الدين الرومي في الوثائق الإنجليزية؛ الرومي كما لقب نفسه في هذه المرحلة، وأحيانا الإسطنبولي. يأتي ذكر اسم جمال الدين في تقرير المراسل الإخباري للحكومة البريطانية الذي يُبلغ حكومة الهند بالأحداث في أفغانستان. هنا نرى الوثائق تحكي لنا عن مستشار أجنبي لحاكم أفغانستان ينصَحُ الأمير أعظم خان باتخاذ مواقف عدائية من بريطانيا.

في الأرشيف الإنجليزي حكايات عن بدايات أسطورة الأفغاني؛ باعتباره مستشارًا يلتقي الأمير سرًّا، ويمنحه الأمير ٢٠٠ روبية في الشهر إعالة أو ضيافة، ومن الطريف أن الأفغاني كان يرى في الروس حليفًا مناسبًا بخلاف الإنجليز. وتعرض كيدي وثيقة أخرى عن حوارٍ دار بين الأفغاني وعميل بريطاني، ويصفه البريطاني بأنه شابٌّ في الخامسة والثلاثين؛ لديه القدرة على تحليل التحالفات الدولية سياسيًّا، وأوجه

الاختلاف بين روسيا وبريطانيا، ومستقبل أفغانستان. نلحظ هنا غياب السؤال الديني، أو فكرة الجامعة الإسلامية في ذلك الوقت. يبدو لنا جمال الدين ناشطًا سياسيًا، ورجلًا ثوريًا؛ ينتعش في ظلال بيوت الحكم، وفي صناعة المؤامرات، وتدبير أمور السياسية، وإيصال رسائل إلى الحكام. تتساءل الكاتبة: «كيف وصل إلى هذه المكانة وهو في هذه السنّ الصغيرة؟» وكان الجواب هو النبوغ الفكري والكاريزما، وامتلاكه المعلومات السياسية، والاطلاع على الشأن الدولي؛ مما يؤهله ليكون قريبًا من دوائر السلطة.

في هذه الفترة كان جمال الدين يرتدي زي تتر شرق القوقاز؛ يشرب الشاي باستمرار، ويدخن حسب الأسلوب الفارسي، ومُتضلِّعٌ في الجغرافيا والتاريخ، ويتحدث العربية والتركية والفارسية بطلاقة، ولا يتبع مذهبًا معينًا؛ كما لاحظ كاتب التقرير، ويُنبِّهنا كاتب التقرير كذلك إلى أن أسلوبه في العَيش أقرب شبهًا بالأوروبي منه بالمسلم، ويرافقه خادم اسمه أبو تراب.

في صيف عام ١٨٦٨ تدهور الوضع العسكري لأعظم خان، ونجح شير علي في الوصول للسلطة. لم يستطع جمال الدين أن يُكمل دور المستشار في أفغانستان مع تغير الحكم، وطلب الإذن بمغادرة البلاد. إخفاق التجربة في أفغانستان جعله في أشدّ حالات شقاء الفكر وحزن القلب في كابول، وكتب ساعتها نصًا بالفارسية، لفت نظري فيه عبارة: «نُفيتُ من المسجد، ورُفضتُ في المعبد»، ولعل هذه السنوات ساعدته لاحقًا على تصنيف كتابه عن تاريخ الأفغان، وتوظيف مرويات شدّتهم في القتال؛ لإثارة حماسة المسلمين للقتال ضد بريطانيا.

في إسطنبول وفي القاهرة

حاول جمال الدين العودة إلى الهند بعد أفغانستان، لكن البريطانيين طلبوا منه مغادرة الهند. وصل إسطنبول عام ١٨٦٩، وفيها حصل على عضوية مجلس المعارف الرسمي. ألقى خطابًا في افتتاح الجامعة الجديدة في فبراير/ شباط ١٨٧٠؛ نظرًا لصلته مع تحسين أفندي مدير الجامعة، وتقف الكاتبة عند تجربته الأولى في إسطنبول، وانزعاج المؤسسة الدينية منه بعد إلقائه محاضرة، تم تأويل بعض أفكارها ضده. وأصدر شيخ الإسلام فتوى بتكفيره وإبعاده عن إسطنبول. تصحبنا الكاتبة لتوضيح الحالة الثقافية في إسطنبول في تلك الفترة، والصراع بين التغريب والمؤسسة الدينية، وتستعرض آراء المؤرخين الأتراك في سبب هذا الإبعاد.

الخروج من تركيا جعله يفكر في الاستقرار في مصر، وتلك كانت من أنضج سنوات عطائه الفكري وقوته الحركية. اتخذ الأفغاني من مصر مركزًا لنشاطاته بين عامي ١٨٧١ و ١٨٧٩، وكما تفعل المؤلفة، في كل فصل، تشرح لنا الجو العام في البلد التي يعيش فيها الأفغاني؛ لقد وصل في نهاية حكم إسماعيل، وبريطانيا تفكر في احتلال مصر. كانت مدرسة الأفغاني في بيته وفي المقهى؛ يقابل الطلبة والأعيان. اقترب منه في تلك الفترة يعقوب صنُّوع، ومحمد عبده الشاب، وكذلك تعرَّف إليه سعد زغلول. أعجب به محمد عبده إعجابًا شديدًا، وتعامل معه على طريقة الشيخ والمريد كان عبده منبهرًا بمعرفة الأفغاني في علوم التفسير والتصوف.

استطاع الأفغاني أن يمارس تأثيرًا كبيرًا في الرأي العام؛ من خلال توجيه تلاميذه لتأسيس الجرائد، وإلقائه المحاضرات العامة، وتثوير

المجتمع من خلال المقالات، والحديث المستمر عن الحكومة الدستورية، ومثالب الاستبداد. وهنا نرى جذور أفكار الكواكبي عند الأفغاني؛ حينما كتب: «أنت أيها الفلاح المسكين تشقُّ الأرض لتستنبت منها ما يسدُّ الرمق؛ فلماذا لا تشقُّ قلب ظالمك؟».

تفصِّل كيدي الطرق السياسية التي استخدمها الأفغاني؛ بحيث نراه ناشطًا ثوريًّا، وفي هذه الفترة انضم للمحفل الماسوني، وأدخل وليَّ العهد الأمير توفيق معه. ونفهم من الكتاب أن الانضمام كان لأغراض سياسية، ولم يرتبط بأي طقوس أو مؤامرات دينية. تصاعدت أحداث مسيرة الأفغاني في مصر؛ حتى إنه فكر في اغتيال الخديوي إسماعيل، وعرض الفكرة على محمد عبده.

ألمَّت الكاتبة بكل الزوايا الممكنة لشخصية الأفغاني من خلال استنطاق مذكرات تلاميذه الذين تحلقوا حوله في القاهرة على «مقهى ماتاتيا»؛ مثل إبراهيم الهلباوي، وسليم العنجوري، وأديب إسحاق. وفيما يتصل بحياة الأفغاني الشخصية؛ لا نعرف أكثر من روابطه الوثيقة مع تلاميذه ومريديه، ولم يُعرف عنه في مصر علاقته بأي امرأة، ولديه موقف إيجابي من تعليم المرأة.

ملحمة الأفغاني

تستمر الكاتبة نيكي كيدي في تتبع مراحل حياة الأفغاني في باريس حينما أسس **العُروة الوثقى** مع محمد عبده، ثم في إسطنبول حينما عاش فيها بأمر من السلطان. يغوص بنا الكتاب في عالم أواخر القرن التاسع عشر؛ حيث مؤامرات دول الاستعمار البريطاني، والأمة بين تخاذل

نخبتها الحاكمة، وبين الأفكار القديمة، والأفغاني واحد من أوائل من حاول مواجهة مشكلة تكييف التقاليد التراثية الإسلامية للتصدي لمشكلات جديدة، دون أن يقنع بفصل الإصلاح عن الدين؛ بوصفهما مجالين متمايزين.

تشير الكاتبة إلى امتلاك جمال الدين الأفغاني توليفة يصعُب حل لغزها؛ احتوت على التصوف، وميل إلى المزاج الباطني، ونزعة شكوكية في بعض الأحيان. وتنبهنا الكاتبة إلى أن القول إن جمال الدين لم يعبر دومًا عن حقيقته لا يعني لومه أخلاقيًا؛ حيث لم تكن اهتمامات جمال الدين تتعلق بالسيرة الحياتية؛ بل بتحرير المسلمين من التعدّيات الأوربية، وإصلاح حياتهم وسياستهم. قدَّمت نيكي كيدي حياة الأفغاني من خلال العشرات من المصادر، والكثير من النظرات النقدية في الروايات المكتوبة حوله، وجاءت الترجمة سلسة بديعة، واحتوت على أصول الاقتباسات العربية من بطون المجلات والصحف النادرة.

الكتاب قصة تشبه الروايات عن رجل جوَّال مفكر عابر للحدود، وثوري مبكر، ومحرِّض على التغيير، وكاتب سياسي وخطيب، استطاع من خلال بلاغته وذكائه وشخصيته الآسرة، بلوغ مكانة سريعة عند الشخصيات المهمة في كل مكانٍ يصل إليه، وجمهور كبير من القراء والمثقفين.

ختامًا نضع كلمات الأفغاني التي تصف شعوره وفكره حينما كتب للدولة العثمانية العلية؛ يحاول أن يقنعها بتوظيفه مبعوثًا لها في الهند، واستخدامه لأغراض الجامعة الإسلامية؛ قال:

> «حين تأملتُ أوضاع الملَّة الإسلامية، شَقَقْتُ قميص الصبر، ودهمني مخوف الأفكار والرؤى من كل صَوب، ورحتُ كمَن مسَّهُ من الهَول مس، أتفكَّرُ في هذا الأمر آناء الليل وأطراف النهار؛ جاعلًا من سبيل صلاح هذه الملة ونجاتها دعواي وتعويذتي، .... واشتعل في صدري لهيب الحماس، ووجدتُني إزاء تفاني الخراساني وحذقه، أُحرّمُ على نفسي طيب العيش ودِعَته، وعلمت أن استصعاب الصعب لا يتَّأتى إلا من خسة النفس، ولؤم الطبع، وأن الصعب يستحيل سهلًا عند أولي العزم».

حاول الأفغاني أن يكون من أولي العزم، وأن يستلهم تجربة أبي مسلم الخراساني حماسةً منه، لكي يغير العالم، ويقلب التاريخ السياسي في زمنه؛ كما فعل الخراساني في إسقاط حكم الأمويين، والإسهام في صعود العباسيين. هذه دعوة لقراءة الكتاب، والعيش في ظلال هذه الفترة التي عانت الاستعمار والاستبداد والأفكار الجامدة؛ وكأن الأمة تحاول النجاة منذ أكثر من مئة سنة بجهود المصلحين؛ مثل الأفغاني؛ الرجل اللغز الذي اختلف عليه الناس. أما المتفق عليه فهوأنه كان شوكة في حَلق البريطانيين، ومزعجًا للمستبدين في مختلف الحكومات. مات الأفغاني في إسطنبول بعد إصابته بسرطان الفك، وعزا الأطباء السبب إلى كثرة تدخين السجائر وشرب الشاي؛ وذلك بخلاف أسطورة تسميم السلطان له.

(١٦) حياة غير آمنة:
في رثاء جيل الأحلام والإخفاقات

فقدنا في الفترة الماضية الكاتب والمناضل د. شفيق الغبرا، الذي غادر عالمنا، وقد أجمَع الناس على احترامه وتقدير مُنجزه النضالي وتجربته ككاتب ملتزم بقضايا الديمقراطية ومؤمن بعدالة قضية فلسطين.

بعد ثلاثين عامًا من تجربته الثورية، ومشاركته في المقاومة سجَّل د.شفيق الغبرا تفاصيل هذه الفترة في مذكراته: **حياة غير آمنة: جيل الأحلام والإخفاقات**؛ والتي نقرأ فيها عن اللحظة الفارقة التي صاغته، وصاغت جيله في بداية مراهقته، وجعلت منه الشخص الذي عرفناه؛ تلك اللحظة هي هزيمة ١٩٦٧، التي أيقظت فيه عملاقًا مكبوتًا يبحث عن تحرُّر، وإعادة اعتبار لما حصل في نكبة ١٩٤٨ عند قيام إسرائيل.

لقد جعلتْه تلك الحرب يكبر بسرعة، وحوَّلت مراهقته إلى سنوات مليئة بالسياسة والفكر، وحمَّلته عبء تحرير فلسطين. ستعرِّف لحظة يونيو ١٩٦٧ من هم، وتساعدهم على النضج المبكر. هكذا سعى ورفاقه، بوصفهم شبابًا عربيًّا يرتبط بالهُوية العربية والفلسطينية، للردِّ على الهزيمة التي حلَّت بالعالم العربي، ونتج عنها تراجع الأمل في تحرير فلسطين؛ لقد بحث جيله عن طريق لإنضاج القدرة على استعادة الأرض والحقوق الفلسطينية، وإن أمكن عن أشكال من الوحدة العربية، وتحوَّل هذا إلى حلمه الشخصي، وحلم جيل عربي.

لهـذا جذبـت جيلـه «حركة فتـح» التـي تأسَّسـت بقيادة ياسـر عرفات ومجموعـة مـن إخوانه عـام ١٩٦٥؛ فهي التي خاضـت «معركة الكرامة» عـام ١٩٦٨، التـي عُـدَّت أول مواجهـة ناجحة بين العرب وإسـرائيل بعد هزيمـة ١٩٦٧. ومـن أجـل مشـروع تحريـر الأرض واسـتعادى حقـوق الفلسـطينيين؛ انضوى مئات الشـباب والشـابات من ذوي الميول الوطنية اليسـارية، القادميـن من التنظيـم الطلابي لحركة فتح تحت لواء ما سُـمِّي بدايةً بـ «السَّرية الطلابية»؛ والتي تحولت فيما بعد إلى «كتيبة الجرمق».

على مرِّ أيام هذه التجربة الشـاقة التي خاضها شـفيق الغبرا في شـبابه، غيَّـب المـوت المئات مـن رفاقه، وفقد أعـز أصدقائه؛ لكنهـم عدُّوا ذلك جـزءًا مـن ضريبـة صناعة عالمهم، وسـقط المـوت عليهم فـي البداية في أواسـط السـبعينيات مثل حبيبيـات المطـر الخفيف؛ فتقبَّلوه وحسـبوا أن الضريبـة لـن تتجاوز هذه البدايـات، ولكن الموت سـرعان ما تحول إلى زخَّـات مـن المطر الغزير، ومع انتشـار حالات الموت فـي صفوفهم، لم يعـودوا يشـعروا بشـيء؛ إلا بضـرورة الاسـتمرار مـن أجـل من سـقطوا، ولحماية فكرتهم ومبادئهم.

تجربـة شـفيق الغبرا، كما عبَّر عنها فـي مذكراته؛ هي تحول من البراءة إلى الراديكالية، ومن الراديكالية والعنف إلى التساؤل؛ فحاله حال الكثير مـن الشـبان العرب ممـن تحولوا نحـو طريق العنف المسـلَّح في سـبيل القضيـة الفلسـطينية، قبـل أن يكتشـفوا ضـرورة وجـود طرق أخـرى إلى جانـب الثـورة والعنـف، أو بمعـزل عنهمـا. وربمـا تكـون سـيرته الذاتية وتجربتـه هـي قصة جيل كامل لم تفسـده حيـاة العنف، ولـم تحبطه حالة

الدمار التي أحاطت بالحياة في تلك الأيام الغابرة؛ بل جعلته أكثر إصرارًا على الاستمرار في الانطلاق نحو آفاق مختلفة.

أسهم قائد السرية الطلابية معين الطاهر في تشجيع شفيق الغبرا على تدوين التجربة والتحدث عنها بموضوعية، ومن خلال الكتابة الشاقة والمُجهدة استعاد جهاد (الاسم الحركي لشفيق الغبرا في السَّرية الطلابية) التجربة، واكتشف ذلك العالم الذي تركه وراءه؛ كأن السيرة هي إعادة فهم للذات؛ لأنها أحيت في روحه عالمًا حسب أنه لن يغادره حيًّا؛ وإذ به يجد جهاد يعيش في أعماقه، وفي ذكرياته ومخاوفه. تحدث د. شفيق الغبرا مع زوجته تغريد؛ حتى يشارك قصته، وليحصل على موافقتها في مشاركة تلك الحكايات في سيرته الذاتية؛ وهي التي انتقلت معه إلى بيروت من الكويت بعد زواجهم لتعيش واقعًا صعبًا؛ عَّبر عنه بقوله: «شهداء يسقطون كل يوم، رجال يختفون في أعماق البحار وخلف الحدود، وزوج لا تعرف في كل مره تلقاه إن كانت ستراه مرة ثانية».

يحكي شفيق الغبرا عن طفولته، وعن حالة الاغتراب التي شعر بها منذ الطفولة، وهو يتلمَّس طريقه لفهم هويته المتعددة. وعند بلوغه عمر ثمانية سنوات حصل والده د. ناظم الغبرا على الجنسية الكويتية؛ وكان قد انتقل إلى الكويت عام ١٩٥٢ للعمل بها طبيبًا. وقد تنقَّل شفيق الطفل بين عدة بلدان؛ مثل لندن، وهناك شعر باختلافه عن أقرانه، ثم أتى القاهرة، وشعر بالاختلاف مرة ثانية؛ وساعتها اكتشف أنه عربي في الغرب، وأنه يبدو غير عربي في الشرق، لكنه مع الوقت اكتشف أنه الاثنان معًا، وأن جانبًا من الغرب قد صاغه، وأثَّرَ في عقليته، وأن الكثير من الشرق جزءٌ لا ينفصل عن تجربته وإنسانيته. ويحكي لنا موقفًا مع

الشيخ صُباح السالم أمير الكويت عندما حضر لمنزل والده، وأبلغه أنه أصبح مواطنًا كويتيًا، لكن أمام الشيخ صُباح أصرَّ الطفل شفيق على أنه فلسطيني ويحمل قضية، وردَّ الشيخ صُباح عليه: «هذا حقك؛ لك الحق في أن تشعر كما تريد، لا تناقضَ بين أن تكون كويتيًا، وأن تكون عربيًا وفلسطينيًا؛ فأنا أشعر بالارتباط الذي تشعر به تجاه ما حصل في فلسطين»؛ ومن هذا الرد شعر شفيق بسكينة وارتياح، وسكنت في روحه هُويات متعددة.

تميزت تجربة شفيق الغبرا بالثراء، وامتزج فيها النضال مع العمل الأكاديمي، لقد رأى لبنان، وهو في بداية شبابه؛ لبنان الستينيات الذي فيه على كل شيء؛ إنه المكان الذي امتزجت فيه الحياة الفكرية بالثقافة، والسياسة، والموسيقى، والفن، وعايش في هذه التجربة القوميين العرب والفلسطينيين، وشاهد تداخل كل العوالم، قبل أن يهاجر إلى أمريكا للدراسة، وفي غرفة الدراسة بدلًا من أن يضع على الحائط صورة للفاتنة بريجيت باردو أو مارلين مونرو أو المغنِّي إلفيس بريسلي، وضع صور الفدائيين واللاجئين، وعندما جاء الشاب الأمريكي زميله في الغرفة، ورأى تلك الصور فَزِع، ولم يعُد للمبيت في الغرفة. وعندما انتهى من دراسته في جامعة جورجتاون ترك المستقبل المضمون إلى أفق النضال، وعاد إلى بيروت. وهكذا تستمر مذكرات شفيق الغبرا في وصف تجاربه حتى مشاركته في السرية الطلابية، وتعطينا شهادة حية وصادقة عن تلك السَنوات، وعن هذا النضال. ومع رحيل د. شفيق الغبرا عن عالمنا يمكن أن تكون هذه فرصة لاستعادة دروس التجارب التاريخية التي مرَّت بها هذه الأجيال، والتعلم منها؛ فقد دفعوا ثمن تلك الدروس من دمائهم - رحمه الله ورحم كل الشهداء.

(١٧) التغريبة الإسطنبولية: كامل مُروَّة ورفاقه في عام ١٩٤١

عـاش الصحفي كامل مروَّة في بيـروت، وفي أحد الأيام أتت الأخبار بتقـدم القـوات البريطانية-الديجولية إلى الحدود اللبنانيـة الجنوبية، وقد قدِمـت لمهاجمـة القـوات الفرنسـية الفيشـية التـي دانت بالـولاء لألمانيا النازية. خشي كامل أن يُنكِّل به البريطانيون عند وصولهم إلى بيروت؛ إذ كان قـد أيَّد حركة رشـيد عالـي الكيلاني في العراق ضـد بريطانيا، وكتب مقالات ضد بريطانيا، وعمل مراسـلًا لوكالة «ترانس أوسـيان» الألمانية. جهَّـز كامـل حقيبـة سـفره، وقـرر الفرار مـن لبنان، واسـتعرض فـي ذهنه الأماكن التي تصلح للاختباء في زمن الحرب العالمية الثانية.

اختار كامل مُروَّة تركيا لتكون وجهته؛ حصل على تأشـيرة لها، واتجه إلـى حلـب؛ التـي كانـت تعجُّ بالرعايـا مـن دول المحـور علـى اختلاف أشـكالهم، وهـم يتأهبون للعودة إلى بلادهم؛ خشـية أن يدركهم الحلفاء. وكان الوزير الألماني المفوَّض في بيروت «الهر روزر» قد اتخذ من فندق بارون مقرًا له؛ يشرف منه على ترحيل مواطنيه في عربات خاصة وُضعت تحت تصرفهم.

عنـد الظهـر اتجه كامل إلى القطار؛ وفـي القطار رأى رهطًا من معارفه يتجهون إلى تركيا؛ من بينهم: عفاف الطيبي الذي سيعمل نقيبًا للصحافيين اللبنانيين في السـتينيات، والدكتور محمد حسـن سلمان؛ وزير المعارف

في وزارة الكيلاني، والشريف محمد شرف نجل الوصي على العرش العراقي مع عائلة الوصي، وغيرهم من الهاربين من وجه الحلفاء، وتألفت حلقة عربية وسْط القطار الحافل الذي يتجه من حلب إلى تركيا.

راح القطار ينهب الأرض نهبًا، ودخل القطار منطقة إصلاحية أولى المحطات التركية، وأخذ يتسلق جبال طوروس. حينها هدأت نفس كامل من ملاحقة البريطانيين له، وفي لحظة ألقى كامل نظرة لبلاده، ولم يتمالك إلا أن تفر منه دمعة، وهاجس مجهول يهتف في أذنه: إنها نظرة وداع.. وبداية الغربة الطويلة!

يصل د مُروَّة أنقرة في يونيو/ حزيران ١٩٤١؛ حيث يجلس في فندق «جيهان بالاس»، لم يكن حديث عهدٍ بالعاصمة التركية؛ إذ زارها أربع مرات قبل ذلك، ورغم انبهاره بالتحديث الذي أجراه أتاتورك في المدينة؛ فإنه شعر بالضجر منذ الأيام الأولى؛ فهي مدينة موظفين ودبلوماسيين ومدارس.

وصل كامل مُروَّة إلى تركيا زمن الحرب العالمية الثانية، وبعد وصوله بعشرة أيام اضطربت أنقرة ذات يوم، ففي يونيو/ حزيران ١٩٤١، هاجم الجيش الألماني روسيا، وسقط النبأ كالصاعقة على أنقرة، وكانت تركيا تخشى من صراع ألمانيا وروسيا أن تفقد حيادها في الحرب، ويُرغمها المنتصِر أن تكون من غنائم الحرب. وتاريخ تركيا مرتبط بروسيا؛ فهي بحكم الوضع الجغرافي تُعدُّ السد الوحيد الذي يمنع روسيا من التوسع نحو البحار الجنوبية. انطلق كامل مُروَّة في شوارع أنقرة التي عجَّت بالناس على وقع الخبر، ورأى مراسلي الصحف الألمانية والروسية

أصبحوا أعداء حتى الموت، رغم أنهم بالأمس كانوا مجتمعين حول مائدة واحدة في المقهى؛ يضحكون ويسمَرون.

تجول كامل مُروَّة في حي السفارات، ورأى السفارة الألمانية بجانب السفارة الروسية. وبينما كان يفكر في غرابة الصدف في جعل العدوين جارين متلاصقين، لمح كامل سيارة البارون فرانز فون بابن؛ وهو سفير ألمانيا في تركيا، والمستشار الألماني الذي تنازل عن المستشارية لهتلر عام ١٩٣٣؛ انطلق البارون فون بابن متوجهًا إلى الرئيس التركي عصمت إينونو حاملًا رسالة تطمين من ألمانيا لتركيا، وتطور الأمر لعقد تركيا اتفاقًا مع ألمانيا بعدم الاعتداء. ويخبرنا كامل مُروَّة: «هل كان يحلم فون بابن وهو ذاهبٌ إلى مهمته بأن صباح ذلك اليوم سيكون بداية السلسلة التي ستجعله متهمًا في محكمة نورمبرغ لمحاكمة النازيين بعد الحرب العالمية الثانية؟» غير أن المحكمة برَّأته، وقد عاش حتى عام ١٩٦٩.

مع قدوم الصيف انتقل مُروَّة إلى إسطنبول، وشعر بوخزة في القلب؛ لأنه تمنى أن يكون اتجاه القطار جنوبًا نحو لبنان.كانت هذه أول مرة يزور إسطنبول، أو دار السعادة، في الصيف، وينبهر بحياة المرح التي تنتشر على جانبي البوسفور، والسفن تطفو فوق مياهه في فصل الصيف. يتجول مُروَّة في أحياء إسطنبول، ويطوف في «حي باي أوغلو»؛ حيث تقطن الطبقات المنعَّمة، والجاليات الأجنبية، ويرى منازل إسطنبول القديمة؛ التي بُني أكثرها من الخشب، وكان كلَّما ألقى أحدهم سيجارته المشتعلة على الأرض؛ هدَّد المدينة بحريق كبير. ولم تكن أخبار الحرب لتعكِّر صفو أهل إسطنبول؛ وفسر مُروَّة ذلك بأن أهل إسطنبول اعتادوا

مع الزمن على القلق؛ لأنهم يعيشون منذ أكثر من ألف سنة حياة الإمبراطورية والحروب.

بدأت تركيا تستقبل نخبة من العرب الهاربين من الحلفاء في الشرق؛ ها هو الأمير عادل أرسلان (شقيق شكيب أرسلان) يصل إلى أنقرة، وينتقل إلى إسطنبول، ثم يتبعه الناشطون العرب؛ مثل نبيه العظمة، وعادل العظمة، وهم من رجالات السياسة السورية. وسجَّل نبيه العظمة في إحدى أوراقه، ذكرياته عن تلك الفترة في تركيا؛ حيث ترك حلب عندما كانت طلائع الجيش الإنجليزي تدخلها، وبعد أن فهم أن رشيد الكيلاني، والحاج أمين الحسيني، وقادة الجيش العراقي تركوا بغداد، وتوجهوا إلى إيران، ثم إلى تركيا. ومن فلسطين وصل عزة دروزة، وأكرم زعيتر، وواصف كمال، وهو رجل أعمال فلسطيني تولى لاحقًا رئاسة البنك العربي في دمشق في الخمسينيات، ومن العراق طه باشا الهاشمي، والزعيم رشيد عالي الكيلاني.

كانت إسطنبول فرصة لهؤلاء الزعماء لالتقاط الأنفاس، وللتفكير في الخطوة السياسية القادمة. وهكذا أصبحت المدينة في أقل من أسبوعين مجمعًا للناشطين العرب الذين آثروا الغربة على البقاء، وأصبح اللسان العربي في مقدمة اللغات التي يسمعها المارة في شارع الاستقلال، ولم يخلُ مقهى أو مطعم أو فندق من العرب؛ حتى قال أحد الأتراك لكامل مُروَّة: «كأننا في عهد مجلس المبعوثان؛ يوم كان النواب العرب يفدون إلى إسطنبول في مواسم معينة؛ فيملؤون العاصمة على قلَّة عددهم عروبةً وعربًا».

كان السؤال الذي يشغَل بال مُروَّة آنذاك: لماذا لم تقدِّم ألمانيا المساعدة الجدِّية لحركة الكيلاني ضد بريطانيا؟ والإجابة يشرحها في

كتابه: برلين بيروت برلين الذي سجَّل فيه سيرة هذه المرحلة، وهو أنها كانت مشغولة بالإعداد لحربها مع روسيا. استطاع كامل مُروَّة الاتصال بعدد كبير من السفراء؛ مثل السفير الألماني الذي دعاه إلى مقر القنصلية الألمانية.

وأهمُّ ما كان يشغل بال المغتربين العرب في إسطنبول في تلك الأيام مصير المفتي الحاج أمين الحسيني ورفاقه، بعد الهجوم البريطاني الروسي على إيران، ورحلة هروب المفتي إلى ألمانيا. في تلك الأثناء، وصل رشيد عالي الكيلاني إلى تركيا بعد أن التجأ إلى طهران حين فشلت حركته، وطلب اللجوء السياسي في تركيا، ووافقت الحكومة في أنقرة، وطلبت منه أن يُوقِّع كتابًا يتعهَّد فيه بالامتناع عن كلِّ عمل سياسي؛ حتى تحافظ تركيا على حيادها؛ لكن الكيلاني فرَّ إلى ألمانيا؛ حتى يجتمع بالقيادات العربية التي أخذت تجتمع هناك؛ مثل فوزي القاوقجي وغيرهم، وعلى إثر مغادرة الكيلاني بدأ العراقيون في التوجه إلى ألمانيا، وانتهى العمل السياسي العربي المنظم سريعًا.

لم يشعر كامل مُروَّة بالغربة في تركيا؛ كما يخبرنا في كتابه، لكنه كان تحت رقابة البوليس؛ خوفًا من أي تحركات سياسية تُحرج حيادَ تركيا، وكانت إسطنبول في تلك اللحظة من الحرب العالمية الثانية مركزًا للجاسوسية يجتمعُ فيها الصحفيون والمراسلون ورجال المخابرات؛ لأنها كانت السدَّ الفاصل بين الطرفين المتحاربين.

يكمل كامل مُروَّة حكاية تجاربه في إسطنبول، حتى أوقفته الشرطة؛ خوفًا من أي اتصالات بينه وبين سفارات أجنبية، ولكونه صحفيًّا يعشق الأخبار ومصادر المعلومات؛ أوقعه هذا الأمر في ربقة شكٍّ من الجهات

الرقابية، وفي أثناء الجلوس في قسم الشرطة قابل يهوديًا قادمًا من ألمانيا؛ دخل تركيا بلا جواز سفر، وهو ينتظر تأشيرة للدخول إلى سوريا، وجلس يحدثهم عن مغامراته من برلين إلى إسطنبول، وهز واصف صديق مُروَّة رأسه وقال: «سبحان الله! هو ذا يهودي هارب من أوروبا إلى سوريا، ونحن عرب هاربون من سوريا إلى أوروبا؛ وكلاهما يلتقيان في هذه الحجرة، ما أغرب المصادفات وأقدار التاريخ!» انتهى التوقيف بأن يخرج كامل مُروَّة من تركيا إلى ألمانيا؛ لينضم لنواة العرب الذين انتقلوا إلى هناك. خرج من تركيا وهو يشعر بأنه أدَّى بمهمته في دعم القضية العربية، ولم يترك شخصية تركية أو محورية أو حليفة إلا اتصل بها.

على حدود بلغاريا في إدرنه، قابل مُروَّة شابًا عربيًا يبيع الشاورما، وسأله مُروَّة عن قصته؛ وكان من حمص، واسمه خالد الموسر؛ خدم في الجيش التركي في عهد سفر برلك، وحارب مع إخوانه الثلاثة في معركة إدرنه سنة ١٩١٢؛ فقتلوا جميعًا فيها، ولما كان إخوانه آخر من بقي على وجه الأرض من أحبائه وأهله، أقسم أن يقضي بقية أيامه في أدرنة، وأن يُدفَن إلى جانبهم، وروى الرجل القصة لكامل مُروَّة، ودموعه تنهمر من عينيه، والزبائن يَفِدُون إلى المحل، ويصرفهم بالإشارة.

عندما خرج كامل مُروَّة من بيروت، توقَّع غربة تدوم ثلاثة أشهر، وبعدها يعود إلى لبنان؛ لكن الغربة أصبحت بالسنوات؛ لأنه شتان بين حسابات مُروَّة وحسابات القدر؛ فكَّرَ وهو متكئٌ على حافة النافذة في القطارِ الذي يغادر تركيا في قول الشاعر:

مشيناها خُطًى كتبت علينا

ورغم أن الفترة التي قضاها في إسطنبول قصيرة نسبيًّا؛ فقد كان في اجتماعه مع الناشطين العرب فرصة للهرب من ملاحقات بريطانيا لهم.

(١٨) زكي كِرام: تاجر سلاح عثماني-ألماني بعد الحرب العظمى

أرسل لي صديقي صورة غلاف كتاب صادر عن دار الكتب والوثائق القومية المصرية بعنوان: **وثائق تجارة السلاح في الجزيرة العربية: قراءة في أرشيف زكي كِرام**، تأليف د. عمر رياض، وفكَّرتُ: من يكون زكي كِرام، وما هي علاقته بتجارة الأسلحة في الجزيرة العربية؟ بحثتُ عن الكتاب، وجلست أطالعه حتى أفهم محتويات أرشيف هذا الرجل.

اكتشاف أرشيف زكي كِرام

يحكي لنا د. عمر رياض قصة تعرُّفه على زكي كِرام؛ ففي عام ٢٠٠٤ كان يعد رسالته للدكتوراه عن **مجلة المنار**، وعندما عاد للأرشيف الخاص بالشيخ محمد رشيد رضا، الذي كان في حَوزة أحد أحفاده، وقعت عيناه على بعض الخطابات الموقَّعة بيد شخص غير معروف تحت اسم الدكتور زكي حشمت بك كِرام في برلين. وفي الرسائل يُحدِّث كِرام الشيخ رشيد رضا عن حوادث وعلاقات مهمة له في برلين، ويطلب منه الشيخ رضا أن يترجم، ويلخِّص له أعمالًا استشراقية ألمانية عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وتخبرنا الرسائل عن طلبٍ تقدَّم به كِرام للشيخ رشيد رضا أن يتوسَّط له عند الملك عبد العزيز آل سعود وابنه الأمير فيصل في بعض الصفقات التجارية.

عاد الباحث د. عمر رياض إلى مكان عمله في كلية الأديان في جامعة لايدن، وبدأ رحلة البحث عن هذا الشخص. بحث في دليل الهواتف الخاص بألمانيا على الإنترنت؛ لعله يجد أحدًا من عائلة كِرام، أو أحفاده؛ وبالفعل وجد ثلاثة أشخاص يحملون نفس الاسم العائلي في ألمانيا كلها؛ تواصل مع أحدهم، وسمع صوتًا رخيمًا لشخص قد بلغ من الكبر عِتيًّا، وسأله بالألمانية: «هل هذه عائلة زكي حشمت كِرام؟» فأجاب الشخص: «نعم أنا ابنه»، ومن هنا انهالت المفاجآت التاريخية، وسافر الباحث لزيارة هارون الرشيد؛ ابن زكي كِرام، البالغ من العمر ٨٨ عامًا، والذي يسكن قرب مدينة شتوتجارت؛ حيث يحتفظ بوثائق والده.

وُلد زكي حشمت في مايو/ أيار ١٨٨٦ في سوريا، وعاش فترةً شهِد فيها العالم العربي حركة قومية قوية؛ وقفت في وجه الاستعمار. بدأ كِرام دراسته العسكرية الأولى طالبًا عسكريًّا في إحدى المدارس العسكرية في دمشق، ومنها انتقل إلى إسطنبول؛ حيث أكمل دراسته في الأكاديمية العسكرية العثمانية، وفي سنِّ الثامنة عشرة عُيِّن ملازمًا في الجيش العثماني؛ حيث أُرسل إلى البلقان لقيادة كتيبة مكونة من ٨٠٠ جندي مسلم لمحاربة الميليشيات الصربية هناك، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى عُيِّنَ قائدًا لقوات البدو في العريش في شِبه جزيرة سيناء؛ حيث أصيبَ في أواخر عام ١٩١٦ بجروح خطيرة في ساقه اليسرى من شظية بالقرب من قناة السويس، وبعد عدة عمليات جراحية فاشلة في القدس، انتقل للعلاج في برلين في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧؛ حيث كان هناك تحالف بين الدولة العثمانية، وألمانيا في الحرب العظمى.

زكي كِرام في برلين

يخبرنا د. عمر رياض أن كِرام كان يقتل وقته، في أثناء علاجه في برلين، في كتابة مذكرات خاصة، وقد وجدها الدكتور عمر عند ابنه؛ وكان زكي يحكي فيها عن حياته وسط المرضى والأطباء، وانطباعاته عن مدينة برلين، في تلك الأثناء؛ حدثت نقطة تحول جذرية في حياته التي تكلم عنها بشكل مُوسَّع في مذكراته؛ وهو طلَب الطلاق الذي تقدمت به زوجته الأولى التركية جمنية؛ التي كانت تنتمي إلى عائلة ميسورة الحال في إسطنبول؛ لكنها طلبت الطلاق من كِرام بعد ضغط من عائلتها؛ وذلك بسبب إعاقته وغيابه الطويل في برلين. كان زكي يكتشف مدينة برلين، ويزور القنصلية العثمانية؛ ليحصل على معاشه الشهري، وانضم إلى جمعية الطلاب العرب في برلين.

أكثر زكي من التردُّد على متجر كتب مقابل المستشفى، وكانت تعمل فيه جروترود نيوندورف؛ وهي السيدة التي سيتزوجها عام ١٩٢٠. نستمر في قراءة المعلومات التي يقدمها د. عمر رياض من خلال أوراق زكي كِرام وأرشيفه، معلومات تتكشَّف أمامنا؛ مثل الروايات التي تزداد فصولها إثارةً كلما تقدمت فيها.

أخذت أتذكر الأرشيف الذي حصل عليه توم ريس من ناشر كتب ليف نوسمباوم الذي أسلم، وأطلق على نفسه اسم قربان سعيد، وعاش في ألمانيا في فترة قريبة من فترة زكي كِرام؛ وقد اعتمد توم ريس على هذا الأرشيف في كتابة سيرة لقربان سعيد في كتابه المهم والممتع: **المستشرق: في فض حياة غريبة وخطيرة.**

الأرشيف يساعدنا على رؤية زوايا التاريخ الغامضة؛ كنت أمضي في قراءة هذه الأوراق، وأنا أحاول الربط بين تاريخ حياة زكي كِرام وبين حياة رشيد رضا الذي اهتممت به وبرحلاته، وكتبتُ عنه قبل ذلك؛ محاولًا الوصول لتواصلٍ بين زكي كِرام وشكيب أرسلان؛ والذي كشف وليم كليفلاند في كتابه المهم عن سيرة حياته نصوصًا نُشِرَت لأول مرة من الأرشيف الأمني البريطاني والفرنسي الذي تتبَّع حياة أرسلان، وراقبه عن كثب؛ بل إن الأمن السويسري كان حريصًا على مراقبة هاتف هذا الناشط الذي يعيش في جنيف.

جمعت كِرام صداقة بالأمير شكيب أرسلان في أثناء إقامة الأخير في برلين، ويبدو أن شكيب أرسلان كان من الأسباب الرئيسة وراء الدور السياسي والعسكري الذي لعبه كِرام منذُ هجرته إلى برلين. وألَّف كِرام في سنوات إقامته في برلين أعمالًا باللغات: العربية والألمانية والتركية، لكن معظمها لم ير النور، وقد فشل في نشر هذه الأعمال بسبب عدم قدرته على الحصول على تصريح للنشر والطبع.

التقى الشيخ رشيد رضا بزكي كِرام أول مرة في الثالث عشر من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢١ في برلين أثناء زيارته الوحيدة إلى ألمانيا، بعد حضور أعمال المؤتمر السوري / الفلسطيني أمام عصبة الأمم في جنيف، ونمَت علاقة تواصل ومراسلة بين رشيد رضا وزكي كِرام، واستمرت هذه المراسلات والنقاشات بينهما؛ وكان بعضها استفسارات من زكي عن أمورٍ في الدين الإسلامي.

كِرام وبيع السلاح للإمام يحيى في اليمن

احتاج الإمام يحيى إلى تسليح قواته في اليمن؛ حيث كانت لا تملك إلا بعض البنادق التي تركها الأتراك وراءهم، واشترى الإمام من شخص يُدْعى إسرائيل الصبيري؛ وهو من يهود اليمن، ووكيل لإحدى الشركات النمساوية - كميات من البنادق والرشاشات والمدافع، واشترى أسلحة خفيفة من زكي كِرام، وقد حمل سلاح الماوزر/ بندقية الجرمل، اسم زكي كِرام في اليمن إلى الآن، ونرى في الكتاب اقتباسًا طريفًا لأحد الرحّالة الإنجليز في اليمن في رحلته عام ١٩٣٨ قائلًا: «إذا رأيت ألمانيًا في الشرق الأدنى؛ فهو إما يسجل أغاني الجرامافون، أو يبيع الأسلحة إلى المتحاربين في تلك البلاد».

بناءً على دعوة من الإمام يحيى؛ سافر زكي كِرام إلى صنعاء في عامي (١٩٣٠-١٩٣١)؛ من أجل التحضير لصفقات الأسلحة المستوردة من ألماني. وقد رشَّح شكيب أرسلان زكي كِرام للتعامل مع الإمام يحيى في رسالة إلى الإمام يحيى؛ ليثق به؛ لأنه مسلم صادق وخبير في مجال العسكرية.

في يوليو/ تموز ١٩٣٠ عقد كِرام أول اتفاق مع الحكومة المتوكلية؛ ويُلزم هذا العقد زكي كِرام باستيراد عشرة آلاف بندقية ماوزر ألمانية طويلة، وألف بندقية قصيرة لصالح الحكومة اليمنية، وفي زيارته عام ١٩٣٦ إلى اليمن طلبت الحكومة اليمنية من كِرام توريد عشرة آلاف بندقية، وعشرة ملايين خرطوشة من الماوزر؛ مقابل ثلاثة جنيهات فضية عن بندقية.

في عام ١٩٣٦ أرسل القاضي عبد الله العمري رسالة إلى كِرام يُبلغه برغبة الإمام يحيى في التعاقد معه مرة أخرى على توريد عشرة آلاف قصبة ماوزر جديد. كانت هذه الصفقات بعلم السلطات الألمانية التي يتواصل معها كِرام. يشتكي كِرام في أحد رسائله إلى الألمان من أن الكل أصبح يريد عمل صفقات؛ بل ومنهم من يريد أن يصبح مليونيرًا بسرعة كبيرة؛ ويضرب المثل في ذلك بالابن الأصغر للإمام. ويبدو أن السوق اليمني للسلاح كان واعدًا؛ حيث دخل تاجر آخر اسمه توماس ونافس زكي كِرام؛ بل إنه احتال احتيالًا كبيرًا على الحكومة المتوكلية في اليمن؛ حيث حصل على دفعة كبيرة من المبلغ مقدَّما، ثم تعاقد على شحنة سلاح، وبدَّل وجهتها إلى الموالين الشيوعيين الأسبان. وكانت عملية احتيال على اليمن، جعلت حكومة الإمام لا تدفع أي مبالغ نقدية مقابل الأسلحة إلا عند وصولها إلى الموانئ. وفي إحدى الرسائل يطلب كِرام من الإمام يحيى أن يدفع له ثمن السلاح شحنةَ بُن يمني لاختبار السوق في أوروبا.

زكي كِرام وآل سعود

عمل كِرام على الاتصال بمملكة الحجاز، وملحقاتها (المملكة العربية السعودية فيما بعد)؛ لإقناعهما بأهمية السلاح الألماني في تسليح الجيش العربي؛ تواصل كِرام، كما يتضح من الكتاب، بالأمير (الملك لاحقًا) فيصل بن عبد العزيز، واتصل كِرام أيضًا بفؤاد حمزة ويوسف ياسين؛ وهما من المستشارين والخبراء في حكومة الملك عبد العزيز، ولعبا دورًا في العلاقات الخارجية أثناء تأسيس المملكة.

أرسل زكي كِرام رسالة إلى فؤاد حمزة في عام ١٩٢٩؛ يخبره فيها عن تفاصيل البنادق الألمانية، وطلب منه حمزة عشر بنادق لاختبارها. وفي أثناء زيارة الأمير فيصل بن عبد العزيز إلى برلين في مايو / أيار ١٩٣٢، كان كِرام من مستقبليه الرسميين في المطار وأحد مرافقيه، وفي أغسطس / آب ١٩٣٤ أهدى كِرام الملك عبد العزيز شخصيًا بندقية إنجليزية؛ بل إنه عرض فكرة بيع صوف الأغنام السعودي في السوق الألماني، وأرسلت له الحكومة السعودية اثنين كيلو من الصوف في طرد لعرضها على الشركات الراغبة في ذلك، وتعثَّرت صفقات السلاح بين الطرفين؛ على عكس تجربته الناجحة مع اليمن، وتواصلت معه الحكومة السعودية؛ ليحصل لها على عروض أسعار الماكينات، وبعض المنتجات الصناعية، لكن يبدو أن الحكومة كانت تتواصل مع أكثر من شخص للحصول على أسعار مختلفة، وانزعج زكي كِرام من إسناد الأمر لشخص غيره، وطلب من رشيد رضا التوسط لدى الحكومة السعودية؛ لتعتمده وكيلًا لها.

كِرام ومحاولاته لعقد الصفقات مع دول أخرى

في مارس / آذار ١٩٢٨ اتصل كِرام بالديوان الملكي العراقي في بغداد؛ يستفسر عما إذا كانت لدى الحكومة العراقية رغبة في إبرام صفقات للتسلح عن طريقه في برلين، وبعد فترة اتصلت به وزارة الدفاع العراقية تطلب منه إرسال كتالوجات سلاح؛ لكنها اعتذرت له سريعًا بأن الجيش العراقي ليست لديه حاجة إلى جلب أي من هذه المعدات.

نرى في الكتاب محاولات زكي كِرام التواصل مع الأمراء العرب؛ مثل تواصله مع أمير الكويت أحمد جابر الصباح؛ لعقد صفقات تسليح

مـع بعـض الشـركات الألمانيـة؛ طلب الأمير نـوع الماوزر عيـار ٩٢/ ٧، وأرسـل كِـرام ثـلاث بندقيات، لكن الأميـر لـم تعجبه، وأرسـل ثمنها عبر حوالـة بريديـة، وطلـب زكي كِرام جواز سـفر كويتيًّا يمكّنه من السـفر في البلاد العربية، وقد اعتذر له الأمير عن هذا الطلب.

يوضـح د. عمـر ريـاض وجود وثيقة في أرشـيف كِـرام العائلي تحت توقيـع القنصـل الأفغانـي فـي برلين؛ تُفـوّضُ كِـرام بالنيابة عـن الحكومة الأفغانيـة بإنهـاء صفقـة شـراء ٥٠٠٠ بندقيـة من نـوع لي إنفيـد، مع ألف خرطوشة، ويحق لكِرام التفاوض باسم الحكومة الأفغانية في الاتفاقات.

بعـد ذلـك عمل زكـي كِـرام مذيعًا فـي إذاعـة برلين، ونشـأت علاقة صداقـة بينـه وبيـن يونس بحـري، وطبقًـا لرواية يونس بحـري عن زكي كِرام؛ فهو يراه عميلًا للبريطانيين، ويُخْرج المعلومات عبر سـفارة فيينا، وحكـى قصـة طويلة في مذكراته عن تشـكُّك الألمان فـي ولائه، ويقول إنـه بقـى تحت المراقبة طيلةَ الحرب، لكن العجيب عدم اعتقال الألمان لـه؛ مـع تيقُّنهم مـن عمالتـه للبريطانيين كمـا يقول بحري؛ وبسـبب هذا الشـك فُصل من إذاعة برلين، ونكتشـف من وصف يونس بحري لزكي كِـرام أنـه كان شـدُيد البُخـل، وأنه ما إن يسـمع باسـم زعيـم عربي حتى يكتـب له رسـائل ويتواصل معـه؛ ليعقد لـه الصفقات، ويقـوم بعمليات السمسِـرة.ونرى فـي أحد حواشـي الكتـاب معلومةً طريفةً عن تسـجيل صوتي لزكي كِرام عبارة عن إعلان لشـركة سـيمنز الألمانية؛ يحثُّ فيها الشـرقيين علـى شـراء منتجاتهـا؛ للجمـع بيـن روحانيـة الشـرق ومادية الغرب.

كانت نهاية حياة كِرام درامية مثل محطات حياته؛ حيث تم اعتقاله من قبل القوات الأمريكية التي دخلت برلين، بعد نجاح قوات الحلفاء في هزيمة ألمانيا؛ ويوضح الكاتب أن سبب اعتقال كرام غير واضح، لكن يبدو أن عمله في تجارة الأسلحة، وعمله مترجمًا في إذاعة برلين، وعلاقته مع وزارة الشئون الخارجية في الحكومة الألمانية جعلته من المطلوبين، وفي المستشفى أرسل بعض الرسائل لأصدقائه؛ مثل محب الدين الخطيب، والإمام يحيى في اليمن.

كانت قراءة هذه الأوراق مثيرة للحسّ التاريخي، وشعرت بالجهد الذي بذله د. عمر رضا في تفسير ملابسات كل وثيقة، وتوضيح سياقها التاريخي، والعودة إلى المصادر لفهم الأحداث؛ تكشف الوثائق عن بعض التحالفات من المفكرين العرب في ذلك الوقت؛ مثل: رشيد رضا، وشكيب أرسلان، وأمين الحسين)؛ الذين كانت نشاطاتهم تتعدى الجانب الفكري، وإصدار المجلات، ونشر المقالات؛ بل تعدت إلى تكوين شبكة علاقات سياسية، ومصالح بين الدول والحكام في هذه الفترة، ولا شكَّ أننا نشعر بأهمية قراءة أحداث وجدالات تاريخ المنطقة من خلال سيرة شخص وُلد في سوريا، وبدأ حياته جنديًّا عثمانيًّا، ثم أنهاها موظفًا في ألمانيا النازية، تُلاحقه اتهامات بالعمالة لبريطانيا.

(١٩) مغامرات جبرائيل ورد:
الجندي السوري في ثلاث حروب

سهرتي الليلة مع كتاب عجيب بعنوان: **الجندي السوري في ثلاث حروب**؛ وهو كتاب نادر حقًّا؛ فهو سيرة لشخص يدعى جبرائيل إلياس ورد، من مواليد طرابلس في لبنان، إذا كتبتَ اسمه على جوجل، لن تجد له ذكرًا، ولن يظهر لك إلا عنوان هذا الكتاب، أما قصته وتجربته الطريفة؛ فلن تعثر عليها.

عاش جبرائيل شبابه في أمريكا، وسجَّل مذكراته عام ١٩١٩، وطُبع الكتابُ على نفقة سليم أفندي ملوك؛ أحد التجار السوريين في نيويورك، وحكى جبرائيل في الكتاب قصة تطوُّعه في الجيش الأمريكي، واشتراكه مع الأمريكان في ثلاث حروب؛ هي الحرب الإسبانية الأمريكية ١٨٩٦، وتدخل القوات الأمريكية في الفلبين ١٩٠٥، والحرب العالمية الأولى ١٩١٤.

يخبرنا جبرائيل في المقدمة أن هذا الكتاب لا يُعالج المواضيع الاجتماعية والفلسفية؛ بل الكتاب بمنزلة «اختبارات اختبرتُها، وغرائب شاهدتُها، وأهوال صادمتني وصادمتها إبان ثلاث حروب كنتُ فيها محاربًا؛ دفعتني الرغبة لبسط حقائقها ووقائعها أمام قراء العربية». ويؤكد مرارًا أنه ليس بكاتبٍ، ولا يحاول أن يعظ الناس؛ بل قصده أن يُدوِّن

حوادث، وعوامل نفسية؛ لا يراها ولا يشعر بها إلا من خاض المعامع، وسمع دوي المدافع، وشهد لمعان الحراب؛ على حدِّ وصفه.

يبدأ الكتاب بتحية للراية الأمريكية، والكتاب أقرب إلى الدعاية للجيش الأمريكي. لكن خلال الكتاب نرى الكثير من القصص عن حياة الجنود. وتميزت لغة جبرائيل إلياس بالفخامة والجزالة، ويشرح لنا جبرائيل سياق الحرب الأمريكية الإسبانية حول كوبا، وتدخل الحكومة الأمريكية في الحرب، وانضمام فرقة من أصدقائه للتطوع في الجيش، وعن مراحل التقدم والاختبارات؛ وصولًا إلى الانتقال لجبهة القتال.

في الثلاثين من شهر مايو/ أيار من عام ١٨٩٨، أقلعت السفينة من مرفأ تامبا تحمل خمسة عشر ألف جندي، وكان منهم الكاتب جبرائيل، الذي يصف لنا وصولهم إلى جزيرة كوبا، وحالتهم البدنية عندما وصلوا إلى الجزيرة، وقد أنهكهم الجوع، فأخذوا يأكلون الفاكهة، ويشرح لنا طعام الفطور؛ حيث وُزِّعَت عليهم فاصولياء محفوظة في عُلب، وعُلبتان من البندورة المحفوظة، وعشرون قطعة من الخبز المُقدَّد، وساعدته قدرته على التحدث بالإسبانية على التميُّز في صفوف الجيش الأمريكي؛ حيث قدم خدماته في الترجمة. تعرف جبرائيل على القائد العسكري ثيودور روزفلت بسبب معرفته، أي جبرائيل، بالإسبانية، وروزفلت قائد هذه الحرب سيصبح رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك (١٩٠١-١٩٠٩).

نجد في سرد الجندي لقصة أيامه في الجيش الأمريكي الكثير من المواقف؛ مثل ارتباكه من صوت الرصاص، وشعوره بالخوف والتردد،

ثم تعوده على القتال؛ حتى أصبح صوت الرصاص أقرب إلى الضجة في مهرجان عُرس، وهو يحكي مواقف عجيبة؛ مثل موقف قَتل إسباني لزميله في الجيش الأمريكي، وعندها طعن جبرائيل الإسباني في عنقه؛ مات على إثرها هذا الجندي، وهو يخبرنا بشعوره بعد هذا القتل بأنه: «طابت نفسُه، ووجد في هذا الانتقام السريع لذة فائقة».

بعد إصابة جبرائيل في إحدى المعارك أُغشي عليه، ثم استفاق ليجدَ نفسه في عناية الصليب الأحمر؛ وجبرائيل محبٌّ للغزل والفتيات؛ لا يفوّت فرصةً؛ حتى وإن كانت نادرة لظهور سيدة أو فتاة التقى بها؛ إلا ويحكي عنها، ويتغزَّل في جمالها؛ يقول عن الممرضة: «كانت صبية أشبه بالملائكة منها بالبشر؛ يزيِّن صدرها صليبٌ أحمر، فتطلَّعت فيَّ بنظرة ملئُها الحنان والشفقة، وهي تبتسم ابتسامةً أَنْسَتْنِي آلامي وأوجاعي؛ لأنها كانت ابتسامة بعيدة عن كل غشٍّ وخداع».

سرد جبرائيل يتميز بالصدق الفني في التعبير عما جرى له؛ نرى شخصية تشبه شخصية المغامرين والشطَّار، وفيها شيء من أخلاق الفهلوة والنصب، نراه يدخن سيجارته وهو عائدٌ من الحرب جالسًا في القطار، وتحرق السيجارة القبعة العسكرية دون أن ينتبه، وتُحدث عدة ثقوب فيها؛ حتى يخيل للناظر فيها أن القبعة خاضت غمار المعركة معه. وفي رتشمند في فيرجينيا، يرى حفاوة الجمهور بأبطال كوبا، وجاءه أحد الأثرياء، وسأله عن القبعة: «هل شاركتْ في القتال معك؛ فإن أثر الرصاص ظاهر في جوانبها؟» فأجاب جبرائيل: «نعم! إن رصاص موقعة سان جون قد فعل ذلك»، وباعها جبرائيل بخمسة وعشرين دولارًا، وفي

رحلة العودة بالقطار اشترى جبرائيل قبعات بعض الجنود، وجلس يثقبها بنار السيجارة؛ ليبيعها للأمريكان في المحطات التي يتوقفون فيها.

نتوقف في النص على نظرات الإعجاب من الفتيات له، وعندما قابلته صبية يصفها بأنها من حور الجنان، وتقدمت له وقالت له: أرى أن يدك مجروحة؛ فهل تسمح لي أن أقطع اللحم لك؟ وجلست تطعمه وهو يتعلل بأن اليد الأخرى مشلولة بالروماتيزم؛ فجلست إلى جانبه تُلقِمُه؛ كما تُلقم الأم الرؤوم رضيعها، ثم يخبرنا أن على القارئ أن يتصور كيف كان طعم ذلك الطعام في فمه، وأمنية جندينا أن يكون له بطن الحوت الذي بلع النبي يونس، وأن تتولى تلك الحسناء ملئه.

وصل القطار إلى واشنطن، واستقبلهم الرئيس الأمريكي ماكنلي، ووزعت على الجنود علب السجائر وصناديق الحلوى، وفي إحدى المرات اقترب منه أحد الأثرياء وسأله: «هل أنت من سكان كوبا؟» فردَّ جبرائيل: «بل أنا سوري»، ورد الأمريكي: «يا مسكين، وما شأنك بالحرب؟»، ويردُّ عليه جبرائيل بمرافعة عن شرف الراية الأمريكية الظافرة، وجلس الأمريكي يُردِّدُ كلمة: «مسكين مسكين»، ثم سأله الرجل الثري عن أحد زملائه من الجنود؛ فقد كان هذا الرجل هو والد الجندي الأمريكي، وقد قُتل ابنه في الحرب، وكان جبرائيل يعرفه.

نتعجب من صدق جبرائيل وصراحته؛ فهذا الجندي الذي قُتل كان جبرائيل يلحُّ عليه لكي يشاركه السجائر، ويخبرنا أنه عندما رفض هذا الجندي إعطاء جبرائيل السجائر دعا عليه قائلًا: «إن شاء الله؛ أنك تموت غدًا»، ووقع المقدَّر في اليوم التالي، ولا يخجل جبرائيل من حكاية أنه مدَّ

يده إلى ملابس الجندي المقتول، وأخرج علبة الدخان وأشعل سيجارة، وهو يلتفت إلى جثة زميله المطروحة أمامه ويقول: «رحمك الله يا من فرَّجت كربي، والله لا أبدل هذا الدخان بثقله ذهبًا!»

كان جبرائيل يردد في كل مكان أنه جندي سوري غريب في بلاد ليس له فيها أحد؛ حتى إن صحيفة كتبت خبرًا عنه، وأنه لا يوجد لديه مال، فاستلم تبرعات من بعض الأثرياء؛ لكي يسافر إلى نيويورك.

في حالة السِّلم نرى نشاطه السياسي؛ نرى مجتمعًا للسوريين العرب في نيويورك، وجمعية باسم «المنتدى السوري الأمريكي» تقيم احتفالًا بعودة بعض الجنود المشاركين في الحرب، وعقب الاحتفال جلس بعض أعضاء الجمعية، وتناقشوا حول ظهور جمعية «تركيا الفتاة» ضد السلطان عبد الحميد الثاني، وقرر المجتمعون، ومنهم جبرائيل، إنشاء جمعية باسم «سوريا الفتاة» تعارض الدولة العثمانية من أمريكا، وتنشر المقالات في الصحف؛ بل تنظِّم بعض المظاهرات ضدها. انزعج السفير العثماني في الولايات المتحدة من هذه الجمعية، ونشر في بعض الجرائد الموالية له مقالات تردُّ على أفكار «سوريا الفتاة». من العجيب أن هذه المذكرات تنقل لنا صورة من النقاشات المحتدمة بين أنصار الدولة العثمانية ومعارضيها في بلاد المهجر، وقد امتدَّ نشاط الجمعية لاستقبال الكاتب سليم سركيس الذي سافر إلى أمريكا، بعد طلب الحكومة التركية من مصر تسليمها إياه.

اعتزل جبرائيل الجندية فترةً بعد عودته إلى أمريكا، وبعد مدة طلبت منه الحكومة مرافقة البعثة التي سترسلها لإحضار رُفات الجنود الذين

صُرعوا في الحرب الأمريكية الإسبانية، وعاد جبرائيل مع أول باخرة من كوبا إلى الولايات المتحدة تنقل ٧٠٠ جثة في التوابيت، بعد أن مقتت نفسه تلك المناظر الرهيبة، والروائح القذرة؛ قرر التوقف عن العمل وعاد إلى نيويورك، وعندما عاد التقى أحد القادة الذي عرض عليه التطوع للذهاب لجزر الفلبين؛ وفي الفلبين لم تكن هناك معارك كبيرة؛ بل صراع أقرب إلى الحرب الخاطفة، أو حرب العصابات، ونراه يسرد بعضًا من مغامراته وحيله في الفلبين، وكيف تنكر كبائع يحمل المنتجات على كتفه ليعتقل أحد المطلوبين، وقضى جبرائيل ثلاث سنوات في الفلبين، وعاد إلى واشنطن، وتعلم قيادة السيارات وتصليحها، وقضى في هذه المهنة ثماني سنوات؛ ولَيته حكى لنا عن سنواته خارج الجندية ورؤيته للمجتمع الأمريكي.

في سبتمبر/ أيلول عام ١٩١٤، سمع جبرائيل بالحرب العظمى؛ أي الحرب العالمية الأولى؛ وتزامن ذلك مع خسارته بضاعته في محل صغير التهمته النار، ورأى في خسارته المادية دليلًا على وجوب التطوع في الجيش، ويحكي لنا القلق الذي لازم الجنود فيما يعبرون المحيط الأطلنطي على إحدى السفن، يساورهم القلق من هجوم الغواصات الألمانية، وظلوا ستة أيام في عرض البحر وشبح الموت مُصوَّرٌ أمامهم، إلى أن بلغوا ميناء ليفربول بسلام، وفي إبريل/ نيسان ١٩١٦، سافر من إنجلترا إلى فرنسا، وشارك في معركة السوم الشهيرة.

تبدو قيمة الكتاب عندما يستغرق جبرائيل في وصف حياة الخنادق وطرق العيش فيها، ونشاطهم اليومي في الخنادق؛ وهنا نلتقط صورة جندي عادي بعيدًا عن الدعاية السياسية للدول؛ يصف لنا تاريخ الحرب

مـن أسـفل، وهو يصـف تلك المشـاعر بقلـم رهيف؛ يقول عـن الجندي الذي يحتاج لنور الشـمس بسـبب رطوبة الخنادق. إن هذا الجندي الذي يخـرج من الخندق ليلتمس الدفء والهواء النقي «يبقى أليف الهواجس، وسمير القلق؛ إذ لا يعلم متى يهجم الأعداء مباغتين؛ فتستعر نار المعركة، وقد يكون جسده أول الوقود لها».

يذكـر جبرائيـل أن أشـهى سـاعات الجنـود فـي الخنـادق في السـاعة السابعة صباحًا؛ حينما يوزَّع عليهم شراب الرم، والذي يصف شعوره بعد شـربه؛ إذ يتجرعـه الجنـدي فيشـعر بتولد الحـرارة في جسـمه، وبقوة في عضلاتـه، وتجـدُّد في قواه؛ بـل إن بعض الجنود يدخلـون موجةَ ضحكٍ ومجون، وينسون أنهم في ساحة المنايا، ولا يعلمون متى تفارق أرواحهم أجسـادهم، ويصف لنـا فرحة الجنود بوصول الرسـائل مـن أهلهم، وهو يصف وجوه الجنود في الخنادق بأنها أشبه بوجوه الرهبان الشرقيين منها إلى سِحْنات الغربيين؛ فكلها مكسوة بالشعر والملابس؛ لا يتم تبديلها إلا كل فترة طويلة؛ حتى إنه كتب: «لو زُرع الفجل على ملابسنا لوجد له تربة ليتأصـل وينمو». ويحكي عن القمل المنتشـر بيـن الجنود، وعن الخوف مـن سـطوة الجـرذان التي يخافون منهـا أكثر من الألمان؛ بسـبب عضَّات أسـنانها، ونجد في أحد سـطور الكتاب حديثًا عن جنود عرب من سكان الجزائر التي كانت تابعة لفرنسا؛ لكنه يحكي عن شدة قتالهم في المعارك لدرجة قطعهم آذان الألـمان، ونظم تلك الآذان في عقود.

هكـذا نمضـي مع المؤلف فـي رحلته وتجربته وما شـاهده؛ تمنيتُ لو حكـى أكثر عن سـنواته في أمريـكا، ومصادر ثقافته؛ لغتـه العربية جميلة، وهـو يستشـهد بالشـعر كثيرًا، وينقل شـعر إيليا أبـو ماضي فَرِحًا بسـقوط

الخلافـة، ويتابـع الصحـف العربيـة التـي تصـدر فـي أمريـكا الجنوبيـة والبرازيـل، وقـد شـعرتُ بنُـدرة هذه الشـهادة مـن جندي مقاتـل في بلادٍ بعيدة، وتذكرتُ ما دَّونه الجندي إحسـان الترجمان في كتاب **عام الجراد** عن سـنواته في الحرب العالمية الأولى في القدس، أو مذكرات الجندي عبـد الله دبـوس، الضابـط البيروتـي فـي الجيـش العثمانـي، وغيرهـا من شهادات الجنود في المعارك الكبرى؛ لنرى نظرة مختلفة عن تنظير القادة ورأيهم في الحروب؛ نظرة تصف الحياة اليومية للجنود ومتاعب الجندية.

(٢٠) زلماي خليل زاد:
من فتى في مزار شريف إلى البيت الأبيض

طالعتُ على شاشة الهاتف خبرًا عاجلًا: «زلماي خليل زاد يؤكد تنحِّيه عن منصب المبعوث الأمريكي الخاص لأفغانستان. قرأتُ الخبر، وطافت في خاطري قصَّة هذا السفير فوق العادة، وحكايته الطويلة مع الملف الأفغاني.

زلماي اسم بشتوني يعني فتًى. وُلد زلماي في مزار شريف، ورأى القصر الرئاسي لأول مرة عندما كان لا يزال فتى يافعًا يزور كابل بعد مغادرته قريته؛ في ذلك الحين كان القصر لا يزال القصرَ الملكي للملك ظاهر شاه لم يكن زلماي يتصور أن يصبح ذلك القصر مقرًّا لمفاوضاته، ولقاءاته مع السَّاسة الأفغان لاحقًا.

كيف تحوَّل هذا المواطن الأفغاني إلى سفير للولايات المتحدة في أفغانستان والعراق، ومبعوث خاص يمثِّلها في هذا الملف؟

تبدأ القصة عندما سافر زلماي إلى الولايات المتحدة للدراسة عام ١٩٦٦، وهناك التقى زميله في المنحة أشرف غني، الذي ينحدر من عائلة أفغانية بارزة؛ أصبح أشرف لاحقًا رئيسًا لأفغانستان قبل فراره منها مؤخرًا بعد سقوط كابل في يد طالبان.

حدث انقلاب على الملك ظاهر شاه عام ١٩٧٣، وحصل زلماي في

الفترة نفسها على منحة لدراسة الدكتوراه في جامعة شيكاغو؛ تلك المنحة التي ستكون طريقه ليصبح مواطنًا أمريكيًا؛ بل سفيرًا للولايات المتحدة في أفغانستان.

جاء اللقاء الذي غيَّر حياة زلماي عندما سمع عن محاضرات للبروفيسور ألبرت وولستيتر؛ أثار الأستاذ انتباه زملاء زلماي؛ عندما كان يحكي عن وزير الخارجية هنري كيسنجر باسمه الأول هنري، وعندما ذكر الرئيس جون كينيدي وصفه بـ «جون»؛ ما يعني معرفته الشخصية والقريبة منهما، حضر زلماي بقية المحاضرات.

كان ولستيتر أستاذًا للعلوم السياسية، وكان يملك شركةاسمها «بان هيوريستيكس» في كاليفورنيا تنفِّذ مشاريع بحثية لصالح الحكومة الأمريكية. وقد وصفه زاد في مذكراته بقوله: «لم يكن تحليل مؤسسات ولستيتر السياسي يتأثر بمَن يدفع الفواتير»، وكان ولستيتر يعقد حلقات بحثية لطلابه عن الانتشار النووي؛ انضمَّ زلماي إليها.

أفاد زلماي من قُربه من هذا الأستاذ الذي أدخله قلب السياسة الأمريكية؛ حتى إنَّ زلماي قدَّم استشارة لوزير الدفاع جيمس شليسنجر في عهد الرئيس فورد. في هذا النقاش، عبَّر زلماي عن توقعه مقاومة الأفغانَ للسوفييت، وقال للوزير: «أنت لا تعرف الأفغان»، وردَّ وزير الدفاع: «لن يخرج السوفييت؛ أنت لا تعرف الروس!»

عيَّن ولستيتر زلماي مساعد باحث في هذه الشركة التي تقدِّم خدمات بحثية للحكومة الأمريكية؛ وللمفارقة لم يُسمح له بقراءة الأبحاث كاملة؛ لأن المعلومات صُنِّفت على أنها سرية من الوكالة الحكومية للحدِّ من

الأسلحة النووية، ولم يكن له من التراخيص الأمنية بصفته طالبًا أجنبيًا ما يسمح له بالاطلاع عليها.

تزوَّج زلماي من سيدة أمريكية مسيحية رغم أنه مسلم، وعُقد قرانهما في الكنيسة، وتزوَّج زميله أشرف غني من لبنانية مسيحية. وفي تلك الفترة ١٩٧٨، كتب زلماي عدة مقالات عن أفغانستان تحت اسم مستعار؛ خوفًا على عائلته؛ وكانت تلك المقالات السياسية تُحلِّل الوضع في أفغانستان بعد وصول حزب شيوعي للحكم.

اتصل أحد مساعدي بريجنسكي (مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر) بزلماي قائلًا: «لقد علمنا أن المقالات تعودُ إليك؛ هل تودُّ تقديم المساعدة للإدارة الأمريكية بتحليل الوضع في أفغانستان؟» فرحَّب زلماي بأن يكون مستشارًا بخصوص أفغانستان؛ وهو أستاذ مساعد في جامعة شيكاغو.

يبدو أن لعبة السياسة بدأت تغوي زلماي؛ ففي عام ١٩٧٨ بعد انقلاب أفغانستان، قرَّر وزوجته زيارة باريس؛ وفي باريس سمع عن التظاهرات ضدَّ الشاه، وهناك بحث عن شخص إيراني يُدعى إبراهيم يزيدي؛ لينسِّق معه اللقاء بالخميني. كان الخميني يعيش في قرية اسمها «نوفل لو شاتو»؛ ذهب زلماي إلى تلك القرية بالقطار، ولم يكن يعرف البيت، لكنه سار بجانب الإيرانيين المتوجِّهين إلى إحدى الضواحي، وهناك التقى الخميني. طلب الخميني من أحد مساعديه أن يخبر البروفيسور الأمريكي أنهم يريدون الديمقراطية وحقوق المرأة؛ فهذا ما يودُّ الأمريكان سماعه؛ ابتسم زلماي لأنه يعرف الفارسية وفهم عبارة الخميني.

حـاور زلماي الخميني عن شـكل الحُكم المرجـوّ بعد الثورة، وانتهى اللقاء بشـعور زلماي أن النظام القادم في طهران اسـتبداديٌّ دينيٌّ، وعندما أخبر زملاءه الإيرانيين في شيكاغو بتحليله للوضع، أبوا القبول به بسبب الرومانسية الثورية الحالمة، لكن بعد عدة أشهر نجحت الثورة الإسلامية في إيران، وعاد الخميني إلى طهران.

خرجت عائلة زلماي إلى باكستان؛ وهنا قرر أن يدعو للمقاومة العلنية للغـزو السـوفييتي في مقالات باسـمه، وهنا انتبهت له وكالـة المخابرات الأمريكية التي رتَّبت له جولة حول العالم؛ لإلقاء محاضرات حول الغزو السـوفييتي، والـردود الأمريكية المحتملة، وتلقَّى دعوات من مؤسسـات بحثية في واشـنطن، وشـارك مع برنارد لويس في حلقة نقاشـية في جامعة برنستون.

أصبـح زلمـاي مـع الوقـت شـخصية لها وزنهـا فيمـا يتعلَّـق بالملف الأفغاني؛ قدّم شهادة أمام لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس؛ مفادها وجوب الموافقة على صفقة تُباع فيها طائرات (F16) إلى باكستان؛ مقابل تسـهيلات مـن باكسـتان لوصـول الأسـلحة إلـى الأفغـان؛ وبسـبب هذه الشهادة، دعا الجنرال إعجاز عظيم، سفير باكستان في الولايات المتحدة زلمـاي إلـى زيـارة باكسـتان؛ خصوصًـا أنَّ ضيـاء الحـق رئيس باكسـتان أعجبه ذلك الرأي. وفي مذكرات زلماي حكاياتٌ عن حيرته من الذهاب إلى هناك بسـبب اعتراضه على ملف حقوق الإنسـان في باكسـتان، لكنه غلَّـب المصالح السياسـية، ورأى أن باكسـتان يجب دعمهـا حتى لا تقع فريسة للسوفييت أيضًا.

اعتمدت الإدارة الأمريكية على زلماي حينما لم تكت تستطيع التعامل مـع قـادة الأفغان؛ تحدثت معـه إدارة الأمن القومي، حينمـا زار حكمتيار نيويورك لحضور جلسـة للأمم المتحدة عام ١٩٨٥؛ كانت المشكلة التي تواجههـم أن حكمتيـار يرفض مقابلـة الرئيس ريجان؛ أتـى زلماي ليقنعه وردَّ حكمتيـار: «تريدني أن ألتقط الصور مع ريجان، وتضيَّع سـمعتي في العالـم الإسـلامي؟!» المـرة الثانيـة استُدعي عنـد زيارة يونـس خالص، ولعدم وجود مترجم بين ريجان ويونس؛ جلس زلماي للترجمة، وكانت أول عبارة يترجمها دعوة يونس ريجان للدخول في الإسلام.

استـمر زلماي بعد ذلك باحثًا في «مؤسسـة راند»، واسـتمر في تقديم المشـورة والاقتراحات لـلإدارة الأمريكية بشـأن الملـف الأفغاني. انهار النظام الشـيوعي عام ١٩٩٢ في أفغانسـتان، وكان اقتراح زلماي انخراط أمريكـي أكبـر في أفغانسـتان، واسـتمر التواصل بينه وبيـن حامد كرزاي، وتحالف الشمال لتقويض حركة طالبان.

عندمـا وقعت أحداث ١١ سـبتمبر / أيلـول، كان زلماي يعمل ضمن الفريق الرئاسي مع جورج بوش؛ تذكر الناس أشياء كثيرة؛ لكن أقلها هي أصول زلماي الأفغانية؛ كان أمريكيًا في منصب كبير وقريب من الرئيس. شارك زلماي في كتابة خطاب بوش بعد هجمات سبتمبر / أيلول، والذي ورد فيه وصف للحياة في أفغانسـتان. هكذا عاد زلماي كدبلوماسـي بعد هجمات ١١ سـبتمبر / أيلول، واعتاد الوصول إلى أفغانسـتان بعد الغزو الأمريكـي على طائرة (C17) الضخمة؛ بصحبة عربات مقاتلة تُشـحَن في طريقها إلى قاعدة باغرام الجوية، أو قندهار.

شارك زلماي في كل الخطوات الخاصة باحتلال أمريكا لأفغانستان. وكان موضع الخلاف بينه وبين الرئيس بوش ووزير الدفاع رامسفيلد حول مسألة المشاركة في خُطة بناء مؤسسات الدولة في أفغانستان؛ كان ردُّ بوش: «لسنا هناك من أجل حلِّ مشاكلهم»، لكن زلماي ردَّ بقوله: «لا يمكننا حل مشاكلنا دون مساعدتهم على حل مشاكلهم».

كانت سنوات زلماي في أفغانستان محاولةً لجعله بلدًا طبيعيًّا؛ لقد رأى وطنه منهكًا من الحروب والصراع بالوكالة بين القوى الإقليمية، وتنامي تجارة الأفيون، وأعداد ضخمة من اللاجئين في دول مجاورة؛ لذلك كانت سنوات عمله محاولة لمساعدة القادة الأفغان على مساندة الحكومة الهشَّة، والتوسط في النزاعات مع أمراء الحرب؛ فكَّر كرزاي في اعتقال دوستم أكثر من مرة بسبب تجاوزات ميليشياته، لكن زلماي طلب منه تأخير هذا القرار؛ حتى لا يؤثر على تحالف الشمال.

لا نلمس في شهادة زلماي ندمًا على معالجة الإدارة الأمريكية للملف الأفغاني، أو كشف الأخطاء والسياسات النزقة، أو عدم وجود رؤية إستراتيجية، ونرى في قصته نفسها القدرة العالية لدولة مثل أمريكا على إدماج المهاجرين، وإمكان وصولهم إلى مناصب مهمة وحساسة في الدولة.

شارك زلماي في اتفاقيات السلام بين الولايات المتحدة وطالبان، ثم أعلن الاستقالة من منصب المبعوث الأمريكي الخاص إلى أفغانستان؛ تلك المهمة التي عمل فيها منذ وصل إلى الولايات المتحدة، واستُفيد فيها من معرفته اللغة وشبكة العلاقات مع القادة الأفغان.

(٢١) دار العودة: حياة ناشر بين الشعر والشعراء

لفتَني العنوان: **عباقرة النغم: حياتي بين الشعر والشعراء**، فسارعتُ إلى اقتناء الكتاب؛ حتى أعيش في رحاب حكايات القصائد. أسَّس المؤلِّف محمد سعيد محمدية «دار العَودة للنشر»؛ التي اهتمت بنشر الشعر، واشتهرت كدار نشر، وكانت جواز مرور لمَن ينشر فيها من الأدباء. نشر فيها نزار قباني، ومحمد الفيتوري، ومحمود درويش. وصعدت الدار زمنًا، ثم أفل نجمها مع تغير الحال، ورحيل صاحبها إلى أمريكا، وركود سوق الشعر. وصل محمدية إلى سنِّ الخامسة والسبعين، وفكر أن يكتب قصة حياته مع الشعراء، وعلى الرغم من أنه يعلم كثرة ما كُتب عنهم؛ فإنه أراد أن يحكي عن الحياة الشخصية لبعضهم؛ بحكم قربه منهم.

بدأت فكرة الدار مع سأم محمدية من العمل الصحفي؛ فقرر أن يبدأ مشروع دار نشر، وعرض الفكرة على الرئيس السوداني محمد أحمد محجوب، وتحمَّس لها الرئيس المثقف، وأعطاه أول كتاب ليُنشر في الدار، وهو مطولة شعرية بعنوان: **الأندلس المفقود**. وفكَّر محمدية أن يطلق على الدار اسم دار فلسطين، لكن محجوب اقترح عليه اسم «دار العودة»؛ لأن العودة مليئة بالمعاني، وهذا يُبعد عنه الشبهة السياسية، دون أن يحرمه ظلال ما يفكر فيه. كان ذلك عام ١٩٦٨؛ فأسَّس محمدية دار النشر في بيروت في السبعينيات، حينما كانت في ذِروة زهوها بين المدن العربية، وقد اجتمع فيها المثقفون والشعراء.

جمع محمدية دواوين كثير من الشعراء؛ فقد سافر إلى تونس ليحصل على قصائد أبي القاسم الشابي، وإلى مصر ليحصل على موافقة بنات الشاعر الرومانتيكي إبراهيم ناجي. وقد جمع كلَّ شعره رفقة صالح جودت، وطلب من الشاعر أحمد رامي أن يُصدر ديوانه كاملًا في مجلَّد واحد، وعندما ناقش محمدية تفاصيل العقد مع الشاعر أحمد رامي؛ قال رامي: «اكتب في العقد ما تشاء، وادفع ما تيسَّر لك»، فألحَّ محمدية على رامي أن يحدِّد مبلغًا فأبى. وعندما رجاه محمدية أن يفعل، ردَّ رامي بأبوَّة وحنان وقال له: «يكفي أن تأتي من بعيد لتفكّر فيَّ». وهذا من نُبل رامي، رغم أنه لم يكن ثريًا؛ فقد تعيَّش رامي على ما يأتيه من الوظيفة، وكان يتقاضى جنيهين عن كل أغنية يكتبها أو ينظمها لمحمد عبد الوهاب أو غيره، ولكنه كان يرفض أن يتقاضى فلسًا من أمّ كلثوم، وتلحُّ عليه فيرفض بكبرياء.

نشر محمدية الكثير من الكتب دون دفع حقوق للمؤلِّفين، لكنه لا يحكي عن هذه التجاوزات في سيرته؛ بل يحكي عن الصلح والإذن من المؤلِّفين بعد اللقاء؛ كما فعل مع الطيب صالح، ومحمود درويش، ويعتبر أن ذيوع الكاتب، وانتشاره عن طريق داره هو أكبر مكسب للمؤلِّف.

تخبرنا رنا قباني في أحد مقالاتها عن اللقب الذي أطلقه محمود درويش على محمدية؛ وهو النصاب الظريف. وعندما زار درويش بيت محمدية قال له بتهكُّم لاذع: «أظن أن هذا الكرسيَّ المذهَّب (المنسوب إلى لويس الخامس عشر) الذي أجلس عليه هو يدي اليُمني، وهذه الثريا الكريستال التي تنوِّر الغرفة بشكل مبالغ فيه - وأنا مثل أكثر أهل بيروت

أعيش في العتمة ـ هي لحمُ كتفي!». لكن محمدية عرف كيف ينتقم من محمود درويش بحكاية تفاصيل حياة درويش الشخصية، وقصة طلاقه من رنا، والعبارات الشنيعة التي تلفَّظ بها درويش في لحظة الخلاف. ولعل أخبار النميمة التي حشا بها محمدية كتابه جعلته يقدم لنا صورة واقعية، بعيدًا عن رومانسية حياة الشعراء.

بدوي الجبل يطلب المخابرات من أجل ديوان شعر

من القصص التي جذبت انتباهي في الكتاب، حكاية الشاعر بدوي الجبل مع محمدية. تبدأ القصة عندما حضر محمدية مهرجان الشاعر أبي تمَّام الذي أُقيم في الموصل عام ١٩٧١، والتقى محمدية الأديب أحمد الجندي، وتحدثا عن الأدب والنشر والطباعة، وقادهما الحديث إلى شعر بدوي الجبل؛ فاقترح محمدية على الجندي كتابة شيء من الآراء التي يعرفها عن بدوي الجبل، ووافق الجندي، وأرسل الكتاب إلى دار العودة. لم يكن محمدية يعرف أن هذا الكتاب سيجلب له المشاكل!

ففي صباح أحد الأيام، دخل ثلاثة من عناصر المخابرات السورية إلى بناية الريفييرا في كورنيش المزرعة في بيروت، وبلا سلام أو تحية، قالوا: «أحمد سعيد، تفضَّل معنا إلى شتورة». وشتورة هي مركز مخابرات الجيش السوري، وهي المكان الذي أصبح ذكره يصيب القلب برجفة، والعقل باضطراب في التفكير. وقد سأل محمدية العناصر أن يُسمح له باستخدام الهاتف ليخبر أهله، فرفض الضباط وزجروه. دلف إلى السيارة في حالة رعب وفزع. وكان الناس إذا أرادوا أن يذكروا الحكم السوري

بكلمة سوء، يتلفَّتون يمنةً ويسرة؛ وكأنهم يحسُّون أن الجدران لها آذان، ويهمسون بكلمتهم همسًا خفيضًا.

الطريق إلى شتورة ساعةٌ وبضع دقائق، لكن الطريق طال أكثر من ذلك، ووصل محمدية إلى فيلا، ودخل إليها، ووقف محمدية أمام ضابط المخابرات، وناشِرُنا يرتجف من الخوف؛ لا يدري ما الجرم الذي ارتكبه لتحقِّق معه المخابرات السورية، وتأخذه من بيروت. مضت دقائق؛ ظنَّها محمدية ساعات طوالًا، حتى سُئل: «أنت صاحب دار العودة؟»، فردَّ بالإيجاب، فردَّ المحقق: «ولا حقير؛ كيف تجرؤ على طباعة ديوان الأستاذ بدوي الجبل؟» وأراد محمدية أن يقول إنه ليس حقيرًا، لكن الخوف ألجمه، ثم قال بصوت متلعثم: «لم أطبع الديوان». وردَّ المحقق: «مَن طبع هذا الكتاب لبدوي الجبل، وأخرج كتاب أحمد الجندي عنه؟» فشرح محمدية للضابط أن هذا الكتاب دراسة في شعر بدوي الجبل وليس الديوان، وأراد محمدية أن يكمل بلغة شبه أدبية تعريفًا بالكتاب، ولكن المحقِّق نهره قائلًا: «حاج فزلكة، ولا شو فاكر نفسك أستاذ؟ خذوه للأستاذ البدوي، ودعوه يقرر ماذا يفعل به، وإن شاء الأستاذ لا يكون راضي عليك حتى تعلم ماذا نفعل بك!» انصرف محمدية مرعوبًا، وهو يبصقُ في داخله على المحقق الأمِّي.

نقلت قوات الأمن السوري الناشر محمد سعيد محمدية من شتورة إلى حي أبي رمانة في دمشق، ووقفوا أمام بوابة بيت الشاعر بدوي الجبل، وإذا بالشاعر بدوي الجبل يقترب من محمدية، وهو ينظر إليه قائلًا: «كيف تطبع ديواني؟!» فقال محمدية: «لم أطبع الديوان»، وحكى قصة دراسة الجندي عن شعر بدوي الجبل، التي صنعت كل هذا اللغط، فاقتنع

بدوي الجبل، وأمر جنود المخابرات بالانصراف، فقال الجنود: «لا بد من الاتصال بالعقيد»؛ فرفع بدوي الجبل عقيرته بالنداء على ابنه منير، ودخل منير، ومعه زوج أخته العقيد محمد معروف، وقال بدوي: «يبدو أننا ظلمنا الرجل، اتصل يا محمد بابن أختك، قائد المخابرات في لبنان، وأخبره أن يعتق الرجل، وأنه بريء». وطلب بدوي الجبل من محمدية أن يزوره مرة أخرى بلا قوات أمن، ولا استدعاء. وفي الزيارة الثانية أخبره أنه يريد أن يطبع ديوانه معه؛ رغم أن الفريق عبد الغني طلاس عرض على بدوي الجبل أن يطبع له الديوان بالكمية التي يريدها. كانت حُظوة بدوي الجبل كبيرة لدى الدولة في سوريا؛ فعندما علم بموضوع نشر ديوانه اتصل بإلياس سركيس رئيس لبنان، وبحافظ الأسد الذي حرَّك أجهزة المخابرات، وكانت تجمعه بحافظ علاقة.

في صُحبة شاعرة الرجال لميعة عباس

ومن الفصول الجميلة في الكتاب حكايات محمدية عن الشاعرة العراقية لميعة عباس؛ التي عرفها عن قرب في أثناء إقامتها في بيروت، وحاول أن يصف حياتها الشخصية ونوازعها النفسية، وحكى عن تودد الشاعر عمر أبو ريشة لها؛ إذ كان يغازلها، ويبدي شوقًا كي يراها، ويشحذ نفسه بالكلام الجميل ليقوله لها. وفي إحدى الليالي دارت النشوة برأس أبي ريشة، وعرض على لميعة سيجارة؛ فردَّت بأنها لا تدخِّن، فعرض عليها كأسًا من الخمر فتحشَّمت وقالت: «لا أشرب»، وعرض عليها مازحًا أن تغنِّي فقالت إنها لا تُحسن الغناء، فكتب لها على ورقة بعد كل مغازلاته: «لا تأكلين، لا تشربين، لا تدخنين، لا تصاحبين أو تحبين، ولا تغنين، فلماذا إذن تعيشين؟!»

فـردَّت عليه لميعـة بعد يومين بقصيدة؛ دلَّلت له فيها على أنها ليسـت كغيرها من النساء، وأنها رفيعة الشأن، فقالت:

«تدخنين؟

لا

أتشربين؟

لا

أترقصين ؟

لا

يا أنت

جمعُ لا

أنا التي تراني

كل عطور الشرق في أرداني

فما الذي يشدُّ رجليك إلى مكاني؟

يا سيدي الخبيرَ بالنسوان

إنّ عطاء اليوم شيء ثانِ

حلّقْ !

فلو طأطأتَ...

لا تراني».

هكـذا تنقلنـا سـيرة محمدية إلى أجواء الشـعراء؛ فنـرى لميعة عباس، التـي كان أحبَّ شـيء إليهـا -بعد الثناء- أن يُطلب منهـا إلقاء قصيدة من اختيارها على مسـامع الحاضرين، وكانـت تتمنَّع تمنُّع القبول، حتى تجد صوتًا ملحاحًا؛ فتتفرَّد وتنشـرح وتبدأ بإلقاء قصيدة تنقر فيها بإيقاع جميل سَمع الناس العاديين، بصوتها الغنوج الهامس الملتاع كما سمعه محمدية، ووصفـه لنـا في جلسـاتها، وهي تغشـى دار العودة. وفي إحـدى المرات انصرفت من سهرة في بيت الشاعر العراقي بلند الحيدري، عندما وجدت من في السهرة يُبدون إعجابًا بزوجة بلند؛ فغارت أن ينصرف المديح إلى غيرها. وطلبت لميعة من محمدية أن ينشـر ديوانها الكامل مقابل عشرين ألف ليرة لبنانية في فترة الحرب الأهلية اللبنانية؛ أي ما يعادل نحو عشرة آلاف دولار، فاعتـذر محمديـة؛ لأنـه لا يملـك هذا المبلـغ. ومن قصص الاتفاقات المالية أيضًا اتفاقُ محمدية مع ممدوح عدوان على نشر أعماله الكاملة قائلًا له: «تذكَّر أنها تسعة عشر عملًا وليست سبعة عشر»، فعرض محمديـة ثلاثـة آلاف دولار، وفاوضـه ممـدوح عـدوان قائـلًا: «ظروفي تسمح بأن آخذ منك خمسة آلاف دولار». وعن اضطرار ممدوح عدوان إلى العمل بالترجمة؛ ليسدَّ حاجات حياته، رغم أن الترجمة تسلبه الكثير، وهذه قصة مكررة عن البؤس الذي يعيشه المثقف العربي في البحث عن لقمـة العيش، وبيع كتبـه بثمن بخس، والدول تلاحقه بدلًا من أن تدعمه. وهـذا يذكرنـي بسـيرة عايـدة الشـريفة التي كتبـت فصلًا بعنـوان: «هؤلاء الكتَّاب وأجورهم المتواضعة».

تجعلك سيرة محمدية تعيش أجواء جلسات الشعراء والأدباء؛ تتعرف فيهـا علـى ظرف كامل الشـناوي، وخفـة ظله مع ثقل وزنـه، وتتعرف إلى

محمود درويش وهو شابٌّ؛ يزوره محمدية في موسكو قبل أن يسافر درويش إلى القاهرة، وترى درويش في شقته البيروتية ينهار زواجه من رنا قباني، وينفر درويش من معين بسيسو لأسباب يحكيها محمدية. ثم تسير في الكتاب وتتعرف على تناقضات الشعراء وعيوبهم، وبعض من النميمة الأدبية؛ مثل عداوة المهنة، وأولاد الكار الواحد بين محمدية ودار العودة، وسهيل إدريس ودار الآداب، ثم الصلح والتوافق بينهما. ونرى في الكتاب مغامرات الشاعر حسن عبد الله القرشي، التي فضحه بها محمدية، وحكى عن علاقاته مع الغواني والممثلات، وتلك الحكايات ذكَّرتني بـ **كتاب النميمة**، للكاتب سليمان فياض؛ الذي قرر فيه حكاية آرائه عن الأدباء بصراحة ودون مجاملة. ولعل الكتاب من صنف نادر دوَّن فيه ناشر حكايته مع المؤلِّفين، وهي فكرة أرجو أن تنتشر؛ بأن يكتب الناشرون قصصهم مع الحكومات، والرقابة، وسقف الحرية، ونفسيات المؤلِّفين وأمزجتهم، وحكاية قصة النشر وصعوباته؛ لأنها جزء من تاريخنا الثقافي. وأذكر من هذا النوع النادر من التدوين مذكرات قاسم الرجب؛ صاحب «مكتبة المثنَّى» في بغداد، الذي حكى قصته مع الكتب.

(٢٢) حمدي قنديل يروي قصته بقلم رصاص

كنتُ أرتِّب كتب دار الشروق، وأسترق النظر للعناوين التي تُؤرِّخ لمصر، وللسِّير الذاتية التي أصدرتها الدار؛ مثل مذكرات نوبار باشا، ورحلة المسيري الفكرية، ورحيق عمر جلال أمين، وحياة والده أحمد أمين. وصلت لغلاف كتاب: **عشتُ مرتين** لحمدي قنديل، وشعرت بالزهد في الكتاب، هذا إعلامي مشهور؛ فماذا سيكتب عن حياته؟ لم أفكر في شراء الكتاب لكي ينضم لأصحاب السِّير الذين أصحبهم في رحلة الحياة، إلى أن حكى صديقي عن الكتاب ومدحه، وكعادة القارئ الذي يكتشف قيمة كتاب عند مدح الناس له، عُدتُ واشتريته وسهرت معه.

جلست أقرأ، وأقطع أشواطًا في الكتاب، وأنا أشعر بالاندماج في حكايات قنديل؛ لقد أمسك بقلمه الذي تربى في حرم الصحافة، وجلس يكتب للقارئ حكاية حياته، وهو يصارحه أنه طيلةَ حياته لم ينظر إلى الوراء، وأنه دائمًا ما كان يتطلع إلى المستقبل، ويجد في غموض المستقبل بريقًا يحفزه على الاقتحام. جعل اسم سيرته **عشتُ مرتين**، وعندما علم أن الفنان يوسف وهبي له مذكرات بعنوان: **عشتُ ألف عام**، حمدَ الله أنه لا تزال لديه بقية من تواضع؛ ليحسب حياته بحياتين لا أكثر، وعندما اشتريت الكتاب قال زميلي البائع: «بالطبع هو محظوظ؛ عاش مرتين لأنه تزوج الممثلة نجلاء فتحي».

فكَّر قنديل وهو مقبلٌ على كتابة سيرته في عيوب كتابة السير الذاتية والمذكرات؛ يقول: «قرأتُ ما قرأت من مذكرات الآخرين بشكٍّ كبير دائمًا؛ ذلك أن أصحابها -وهم عادة من المتقاعدين- غالبًا ما يضخِّمون من أدوارهم، وينزلقون مثل كل كبار السن إلى تفاصيل يضيع فيها الخيط الأساسي.. وجدتُ العديد منهم يزيفون التاريخ، أو يصفُّون حسابهم معه، أو يحدثوننا عن بطولاتهم، ويتأففون من التلميح إلى سقطاتهم، أو يفعلون مثلما فعل المفكر الكبير عبد الرحمن بدوي عندما نضحَت مذكراتُه بكل مراراته بعد ما لاقاه في حياته من تجاهل وظلم، أو ينتزعون من قاع الذاكرة بعض ما رسب فيها من وقائع سمجة يظنونها طريفة، أو يسهبون في حوارات يقولون إنهم أجروها مع كبار القوم وصناع القرار؛ لا لشيء إلا ليوهمونا بأنهم كانوا شركاء في صناعة سياسات؛ أغلب الظن أن الكثير منها أودى بنا إلى المجهول».

لذلك قرر قنديل كتابة سيرته وهو يحاول ألا ينزلق إلى إعطاء الدروس، وإن كان له دور في الحياة يمكن أن يزهو به؛ فهو دور الصحفي لا دور السياسي. يبدأ الكتاب بحكايات عن بيته الذي يعرف ربنا، وعن طفولته في طنطا، وصداقته في المدرسة مع الصحفي جمال بدوي، وعمرو موسى الذي أصبح وزيرًا للخارجية، وأمينًا عامًّا للجامعة العربية، وعن سنواته الأولى الجامعية في القاهرة، وتعرُّفه إلى شلَّة بريئة؛ دعوه ذاتَ مرة وصارحه صديقه أنهم سيدخنون أجدع حشيش في مصر، ولم يمانع قنديل؛ لكي يثبت أن الأفندي لا يهزه الحشيش؛ فدخن بدلًا من السيجارة ثلاثًا، ولكنه عندما غادرهم مبكرًا ضاع في مسالك القلعة وحواريها؛ وهو يبحث عن محطة الأوتوبيس.

كانت بداية تعرُّف قنديل على العالم خارج مصر عن طريق اتحاد الطلبة العالمي في براغ؛ حيث تلقَّى دعوة من أحد الأصدقاء للسفر لحضور المؤتمر عام ١٩٥٥، وطلب منه زميله أن ينسق مع الشاب ياسر عرفات الذي سيحضر المؤتمر هو الآخر، ولم يكن ياسر عرفات شخصية معروفة عندئذٍ؛ كان مجرد طالب يدرس في كلية الهندسة بجامعة القاهرة، ولم تكن الحكومة في مصر تشجع على تلك الصِّلات بين المنظمة الطلابية؛ بسبب خوفها من تسلل الخطر الشيوعي إلى مصر في ذلك الحين؛ لذلك سافر قنديل دون إخطار الحكومة، وسافر معهم صلاح خلف الذي اشتُهر فيما بعد باسم أبو إياد، ورافق عرفات في مسيرته في «حركة فتح»، وزهير العلمي الذي أصبح رجل أعمال.

وصل قنديل إلى براغ، وحضر المؤتمر الطلابي، وفيه تلقَّى دعوة لزيارة الاتحاد السوفييتي، وهناك التقى مع الشاب يفجيني بريماكوف؛ شاب روسي يعمل في القسم العربي في الإذاعة الروسية، وبعد ذلك سيصبح هذا الشاب، بعد سنوات، وزيرًا لخارجية روسيا، ثم رئيسًا لحكومتها في عهد يلتسين. وفي روسيا حصل على فرصة عمل في الإذاعة العربية، وتردد في قبولها، وتوجه للسفارة المصرية ليسأل السفارة عن رأيها في عمله في الاتحاد السوفييتي، وطلبوا منه عدة أيام لسؤال القاهرة، وجاء الرد سريعًا في برقية صغيرة تقول: «خالك بيقولك عُد فورًا إلى القاهرة»، وكان خال حمدي قنديل المقدِّم صادق حلاوة يشغل المنصب المناسب للرد على هذا السؤال؛ إذ كان رئيس قسم مكافحة الشيوعية في وزارة الداخلية.

من الفصول الجميلة في الكتاب ذكريات حمدي قنديل مع الصحافة

وهو شـاب وتجربته فيها، وعن سنوات دراسته للصحافة، وعدم حضوره للمحاضـرات، واللـفّ علـى الصحف، حتـى إن الدكتور خليـل صابات أسـتاذ الصحافـة كان يمـازح قنديـل بعد ما ذاعت شـهرته قائـلًا له: «هذا حمدي قنديل.. فلَح لأنه لم يحضر محاضرة واحدة لي».

الكتـاب مُقسَّـم على طريقة الموضوعات، ولا يلتـزم الترتيب الزمني؛ هناك فصل عن ذكريات قنديل مع سـوريا، وسـفره الدائم لها، وعمله مع الصحفي نصوح بابيل في دمشق. بعدها يصحبنا في رحلة عن ذكرياته في التلفزيـون المصـري في السـتينيات، وبدايته مع برنامج **أقـوال الصحف**؛ الـذي توقف أول مرة بسـبب إذاعة خبر عن الرئيـس عبد الناصر في نهاية الحلقـة، والمعتـاد إذاعـة الأخبـار المتعلقة بالرئيـس في البدايـة، وذهب قنديل إلى سـامي شرف سـكرتير الرئيس، وعرض عليه الأمر، وجاء الرد منـه قائـلًا: «الريِّس بيقولك خـد الجرايد، وروح على الاسـتوديو بتاعك علـى طـول من غير ما تكلم حد». وهنا نكتشـف هذا القرب بين مؤسسـة الرئاسة في عهد عبد الناصر، والعديد من الموظفين عبر تقديمهم شكاوى للرئيـس؛ للتدخـل فـي مشـاكل مـن قبيـل تعييـن معيـد؛ مثلما فعـل جابر عصفـور عندمـا حُرِم مـن التعيين، وطلـب تدخل الرئاسـة، وحصل على الوظيفة.

مـن هـذه القصة نكتشـف حب قنديل للنظـام الناصري؛ قـدَّم في أحد فصولَ الكتاب مرافعة دفاعية عن العهد الناصري؛ ليبرز محاسنه والمباهج التي تمتع بها في زمن السـتينيات، وهو يحكي عن غلبة السـعادة عليه في هذه السنوات، وأن الراتب المتواضع كان يكفي، وأنه اشترى سيارة نصر مـن راتـب التلفزيون، وعن فرحتـه بالعمل كمذيع. لكنـه ارتبك ذات مرة

عندما غاب زميله، وتقرَّر أن يقدم حفل أم كلثوم الذي يحضره عبد الناصر؛ هنا وقف على المسرح، وقال أيها السادة: «إليكم أم كلثوم»، وغادر منصة المسرح، ورأى أم كلثوم وهي تتقدم، وقالت له: «ده كل اللي ربنا فتح بيه عليك؟»، ولم يتمالك قنديل نفسه، وبكى وهو يذيع جنازة عبد الناصر، ومعه المذيع جلال معوض؛ ومن أجل مواكبة الحدث، وروح النكتة أطلق عليهما زملاؤهم في التلفزيون لقبين للتندر: حمدي منديل، وجلال معيط.

يعترف قنديل بأن لثورة يوليو أخطاء بلا شك؛ وفي مقدمتها مصادرة الحريات، وسيطرتها على الإعلام، ويقدِّم في سيرته اعتذارًا للإخوان المسلمين عن الأحاديث التي أجراها مع معتقلين منهم في السجن الحربي عام ١٩٦٥؛ خصوصًا بعد ذهاب عنفوان الشباب، وفي لحظة حساب مع النفس، أيقن قنديل أنه ارتكب خطأً مهنيًّا وأخلاقيًّا باستجواب معتقلين قُيدت حريتهم فاعتذر. ليس هذا هو الاعتذار الوحيد في الكتاب؛ هناك مراجعة لحديث صحفي أجراه قنديل بعد حرب ١٩٧٣ مع الكولونيل عساف ياجوري صاحب أعلى رتبة بين الضباط الإسرائيليين الذين أسرهم الجيش المصري، كان قائد اللواء ١٩٠ مدرع؛ أجرى قنديل الحوار، وعاد للمنزل، ورأى قنديل والدته التي عاتبته، ونظرت له بوجهٍ عابس، وقال لها: «لماذا العتاب؟» قالت: «كيف تحاور أسيرًا؟» وهنا أفحمته بإجابتها وقالت له: «ماذا تتوقع لو أسر الإسرائيليون أخوك ماجد قنديل، وخرج في حوار مع التلفزيون وهو أسير؟» وهنا ندم قنديل على إجراء هذا الحوار.

يستمر قنديل في حكاية ذكرياته في الكويت؛ خصوصًا زيارته المبكرة

لهـا بعد حرب الخليج، ودخول قوات صدَّام، ويصف المشـهد، ويحكي عـن صداقاتـه مع الكويتييـن، ثم يسـرد ذكرياته عن الجزائـر، ونرى ولعه بالسـبق الصحفي منذ شـبابه، وتسـجيله لحظة دخول بن بله إلى الجزائر، وعن تسـجيله حوارًا طويلًا مع بوتفليقة لمدة ٣ سـاعات؛ أذاع التلفزيون المصري النصف الأول منه فقط، وعندما استفسر قنديل من وزير الإعلام صفـوت الشـريف قـال لـه: «ده الرئيـس مبـارك عمره مـا طلـع يتكلم في التلفزيون ٣ ساعات».

تسـتمر سـيرة قنديل فـي حكاية كواليـس تغطياته الصحفيـة في اليمن والعراق وغيرها من الدول، ثم شعوره بالضيق من مصر في عهد السادات، وانتقالـه للعيـش في باريـس؛ حيث عمل في اليونسـكو، ويحكـي لنا عن حياته الباريسـية، وعن تفاصيل العمل في هذه المؤسسـات، وعن زيجاته الثـلاث فـي ثنايا الحديث، وعن دخوله مجال العمـل بالأقمار الصناعية، ومحاولاتـه المتكررة ليصبح رجل أعمال، والتي باءت جميعها بالفشـل؛ حتـى إنـه عمل على أكثـر من مشـروع تلفزيوني مع الشـيخ صالح كامل، لكـن الملـك فهـد اعتـرض على ظهـور قنديل فـي إحدى القنـوات؛ لأنه هاجم الملك فيصل في التلفزيون في الستينيات.

تصـل السـيرة إلـى حكايات برنامـج رئيـس التحرير، وقلـم رصاص؛ عندما ظهر على شاشة التلفزيون، وهو في عمر الستين، بعد انقطاع لمدة عشـريَن عامًا عن الشاشـة، ويحكي لنا عن حـالات التضييق التي تعرض لهـا مـن التلفزيون المصـري، ويُقدِّم صورة قريبة لشـخصية وزير الإعلام صفوت الشـريف، ويسمِّيه المعلم، ويشـرح المزايا والمواهب التي تمتع بهـا صفوت الشـريف؛ ليديـر وزارة الإعـلام، ويقدم إعلامًـا يرضي نظام

مبارك، ويصف مقابلته مع مبارك وولعه بالمقالب، وحب مبارك لحكايات النميمة بين صفوت الشريف وفاروق حسني، وحبه لرؤية الصراعات بين وزرائه، والتي كان يراها مادة للتسلية، وعن انزعاج مبارك حينما وصف قنديل الإسرائيليين بالسفلة.

الكتاب يتميز بالسلاسة، والتجربة الثرية في عالم الإعلام؛ خصوصًا لأن قنديل كثيرًا ما شعر بأنه رجل محظوظ على الرغم أنه لم يُرْزَق بولد، ولم تخلُ حياته من مفاجآت مقيتة؛ لكنه يخبرنا أن الله رزقه الرضا وهِبة النسيان، ومكانة مرموقة بين أقرانه، وحب كثير من الناس، ومنحه الله الفرصة للتجول في العالم، وفي إحدى المرات جمع عدد مفاتيح الغرف الخاصة بالفنادق التي زارها، ووجدها ١٦٣ مفتاحًا موزعة على خريطة العالم. هذه دعوة لقراءة تفاصيل تلك التجربة الإعلامية الثرية، وعلاقاته الكثيرة مع السياسيين والمشاهير، وقد تجذبك تفاصيل قصة زواجه من الممثلة نجلاء فتحي كما حكاها في الكتاب، والكتاب مادة ثرية للحديث عن تمويلات القنوات التلفزيونية وسقفها السياسي، وتدخلات السلطة عند تجاوز الخطوط الحمراء.

(٢٣) خيارات هيلاري كلينتون الصعبة

نقرأ مذكرات الساسة الأجانب فيما يخص قضايانا العربية؛ لأن السياسي والمسئول العربي لا يكتب عن تجربته؛ فهو لا يبالي بأن يوضح للناس ما فعل وبماذا قام؛ لأن المحاسبة السياسية مفقودة؛ فلا داعي لكتابة قصته للناس.

هيلاري وفلسطين

زارت هيلاري كلينتون إسرائيل للمرة الأولى في ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٨١، في رحلة كنسية برفقة زوجها بيل كلينتون؛ أمضت عشرة أيام في إسرائيل، وتقول أن الشعب الإسرائيلي نال إعجابها بمقدرته وبمثابرته. تردّد هيلاري الحديث المكرور عن إسرائيل واحة الديمقراطية، وتمدح بطولات الشعب الإسرائيلي المزعومة. كوَّنت صداقة متينة مع إسحاق رابين وزوجته ليا؛ على الرغم من أن إسحاق رابين لم يسامحها على طردها إياه إلى شرفة البيت الأبيض للتدخين، لكنه احتجَّ ذات مرة قائلًا: «إن عدم السماح له بالتدخين في البيت الأبيض يُعطِّل مسار السلام»، وساعتها سمحت له. تصف هيلاري شخصية نتنياهو وأفكاره التي تعرفها عنه؛ مثل تشكيكه في فكرة الأرض مقابل السلام، أو حلِّ الدولتين؛ فضلًا عن عدم قبوله اتفاقية أوسلو، وتركيزه المطلق على التهديد الإيراني لإسرائيل. تُرجع هيلاري شخصية نتنياهو إلى أنها تشكَّلت في أثناء عمله في الجيش الإسرائيلي، وكذلك مقتل

شقيقه يوناتان، الضابط في القوات الخاصة عام ٧٦، وتأثير والده بنزيون المؤرخ المتطرف الذي يحبِّذ إقامة دولة يهودية تشمل الضفة وغزة كاملتين منذُ ما قبل ولادة إسرائيل.

ترى هيلاري أن عرفات ارتكب خطأ فادحًا عام ٢٠٠١؛ برفضه الانضمام إلى رئيس الوزراء إيهود باراك في قبوله اقتراحات كلينتون، وتُكيل الاتهامات لحماس، واصفةً إياها بالإرهابية، وتمدح السلطة تارةً في مقابل ذمِّ قطاع غزة، وتشرح تفاصيل تدهور العلاقة بين أوباما ونتنياهو، وخلافهما المستمر حول قضية وقف بناء المستوطنات التي يصرُّ عليها أوباما، ويعترض عليها نتنياهو ويتجاهلها. أحيانًا، لعبت هيلاري دور الشرطي لتأنيب إسرائيل، لكن الكتاب طافحٌ بالتفهم المزعج لمخاوف إسرائيل، والتزام هيلاري بأمن إسرائيل، وقناعتها بكلِّ حُججها. وتحكي لنا عن اتصال إيهود باراك عند مهاجمة الإسرائيليين السفينة التركية؛ قال لها: «لسنا مسرورين بالنتائج؛ ولكن توجَّب علينا اتخاذ خيارات صعبة، لم نستطع تفادي ذلك». أتى داود أوغلو لزيارة هيلاري كلينتون، وتحدث لمدة ساعتين، وكان منفعلًا أشدَّ الانفعال، وهدد بأن تركيا قد تعلن الحرب، وأن الهجوم على السفينة يشبه هجوم ١١ سبتمبر / أيلول، وقال لهيلاري: «كيف يمكنك ألا تهتمي؟ أحد القتلى مواطن أمريكي!»، وطالب أوغلو بتعويض الضحايا والاعتذار لتركيا، ورفض نتنياهو الاعتذار، وطلبت هيلاري من هنري كسينجر الضغط على نتنياهو للتواصل مع تركيا والاعتذار، وفعلها أخيرًا بمكالمة مع أردوغان للاعتذار عن الإجراءات المتخذة في أثناء العملية.

فـي المذكـرات وصفٌ لعملية السـلام المتعثرة في الشـرق الأوسـط، واجتماعات محمود عباس والإسـرائيليين، ودعوة مبارك اللجنة الرباعية لشرم الشيخ، وتتوقف قليلًا عند وصف منتجع شرم الشيخ، وتقول إنه في عملها الدبلوماسي كثيرًا ما تكون الاجتماعات في أماكن تتميز بالرفاهية؛ مثـل جزيـرة بالي وهاواي، لكنها تكون في هذه الأماكن السـياحية أسـيرة بيـن الغرفـة، وقاعـة الاجتماعـات، ولا يُتـاح لهـا الوقـت للتمتـع بالمياه الجميلة أو رفاهية المكان، ثم تلمز مبارك في سطر، وتقول: «على الرغم من أن مبارك كان مستبدًّا؛ إلا أنه كان حريصًا على حل الدولتين والسلام في الشرق الأوسط».

مصر والربيع العربي

نجـد فـي مذكرات هيـلاري كلينتـون حديثًا عـن لقائها بعلـي عبد الله صالـح الرئيس اليمني؛ الذي تصف علاقـة الأمريكان به بأنها رمز للخيار المحيِّر الذي تعانيه السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط؛ لقد كان فاسدًا ومسـتبدًا، لكنه التزم بمحاربة تنظيم القاعدة؛ لذلك قررت إدارة أوباما أن تتغاضـى عمـا يزعجها في سياسـة صالـح مقابل خدماته الأمنيـة، وعندما ألحَّت هيلاري على صالح للحديث عن ملف حقوق الإنسان في زيارتها لليمن، تشاغل بعرض بندقية أثرية قدَّمها إليه الجنرال نورمان شوارزكوف قائـد حـرب الخليج. الأمن مقابل الديمقراطية حجـة تدافع عنها هيلاري كثيرًا، وتحاول أن تقول للقارئ الشـكَّاك أنهم ليسـوا براجماتيين إلى هذا الحـدِّ، والدفـاع المبالـغ فيـه عـن النفس يشـكِّك القارئ فـي جميع تلك الحُجج، ويوضِّح له أن السياسة براجماتية؛ وإن تزيَّنت ظاهريًّا بالقيم.

تشـرح هيـلاري أحـداث الثـورة المصرية مـن وجهة نظرهـا، وتصف مبارك بأنه حكم مصر مثل فرعون بسـلطة شـبه مطلقة طوال ثلاثة عقود، وأنـه قمع الإسـلاميين والمعارضين الآخرين قمعًـا صارمًا، ثم توضح أن الاحتجاجـات في مصـر وضعت إدارة أوباما في موقف دقيق؛ لأن مبارك حليف إستراتيجي للولايات المتحدة، وتحكي عن محاولتها التهرب من الإجابـة عند سـؤالها عـن موقفها من الأحـداث في مصـر، والتي أجابت عنها بأن النظام مستقر، ثم تحكي عن مشاركة أوباما في اجتماع جرى في ٢٨ ينايـر/ كانـون الثانـي ٢٠١١؛ ضمَّ فريق الأمن القومـي للحديث عن الوضـع في مصر، وأُعيد النقاش في الأسـئلة التي حيَّرت صناع السياسـة الأمريكيـة عبـر عـدة أجيـال: كيف يمكـن تحقيق التـوازن بيـن المصالح الإستراتيجية للولايات المتحدة، وبين دعمها للمبادئ والقيم والحريات؟ هـل يمكـن عندما يتـم تغذيـة الديمقراطية ودعمهـا تحمُّل فاتـورة ذلك، وتكبُّد عواقب سلبية غير مقصودة؟

انجـرف مسـاعدو أوباما فـي البيت الأبيـض، في جمال لحظـة الثورة ودراميتها، مع تدفق الصور القادمة من ميدان التحرير في تأييد الثورة، ثم توضح هيلاري أنها شـاطرتهم الانبهار باللحظة ثم قلقت؛ لأنها شـعرت أن الأمريـكان يتخلـون عن شـريك قديـم، وأنهـم بقبول اللحظـة الثورية يسـلِّمون مصـر وإسـرائيل والأردن والمنطقـة ككل إلـى مصيـر مجهـول وخطـر! ثـم تُعـدِّد مزايـا مبـارك، ودوره فـي تكريـس العـداء مـع إيـران، والتضييق على القاعدة، أو فتح خطوط الملاحة في قناة السـويس؛ فضلًا عـن الحفاظ على أمن إسـرائيل؛ رجلهم فـي المنطقة لم يقصِّر في أي من الطلبات؛ فلماذا نتخلى عنه بعد ثلاثين عامًا من التعاون؟!

كانت هيلاري مع التمهل ووجوب التزام الحذر وعدم الاندفاع في تأييد الاحتجاجات، وظهرت على التلفزيون، وتحدثت عن الانتقال السلمي والمنظم إلى النظام الديمقراطي، وقالت: «استعملتُ كلمة منظَّم بدلًا من فوري عمدًا»، وطالب البعض في فريق الرئيس أن تُلمح إلى تنحّي مبارك لكنها رفضت، ثم أوصت هيلاري الرئيس أوباما بإرسال مبعوث خاص للتحدُّث مع مبارك، وعرض خطوات للإصلاح، واقترحت عليه فرانك ويزنر؛ أحد الدبلوماسيين المتقاعدين، وكان سفيرًا للولايات المتحدة في مصر بين عامي ١٩٨٦ -١٩٩١، وجمعته بمبارك علاقة صداقة قوية. سافر ويزنر إلى القاهرة، والتقى مبارك في ٣١ يناير/ كانون الثاني، ونقل إليه رسالة الأمريكان، استمع إليه مبارك؛ لكنه لم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة كما تعبر الوزيرة. شاهدوا خطاب مبارك الذي خرج فيه وهو يقول إنه لن يترشح ثانيةً، لكنه لم يرفع قانون الطوارئ، أو يعدُ أن ابنه لن يكون من المترشحين، وكان خطابًا مخيبًا لآمال الحشود في الساحات، وحتى للأمريكان. قال أوباما: «لن يكفي هذا لوقف الاحتجاجات». اتصل أوباما بمبارك ليعبر عن الأمر بنفسه، ثم خرج بيان من أوباما يدعو للانتقال السلمي للسلطة، وأن يبدأ ذلك الانتقال فورًا.

تواصلت هيلاري كلينتون مع وزير الخارجية أحمد أبو الغيط؛ الذي بدا أقل تفاؤلًا من المرات السابقة، وكان واضحًا شعوره بخيبة الأمل، واشتكى لها من دفع الولايات المتحدة مبارك خارج الحكم بشكل غير رسمي، ثم لوَّح بورقة الإيرانيين وسرورهم بسقوط مبارك، وكذلك قال إنه يتخوَّف من وصول الإسلاميين إلى الحكم، وقال لها في تذلل وسُخف: «لديَّ حفيدتان، وأُريدهما أن تترعرعا لتكونا مثل جدَّتهما

ومثلك، وليس لترتديا النقاب مثل السعودية، وأن هذا هو كفاح حياته»؛ العجيب هو لجوء رجال النظام المصري لهذه الحُجج لمغازلة الدعم الأمريكي. يوضح الكاتب بلال فضل في برنامجه عصير الكتب أن هيلاري كلينتون في مذكراتها السابقة **تاريخٌ مُعاش**، والتي لم تُترجم إلى العربية، قد عبَّرت في وصلة مديح عن إعجابها بمبارك وزوجته سوزان، ووصفتهما بالثنائي المبهر، وأن مبارك يحمل ملامح فرعون عتيق، وأنها دافعت عن مواقفه السياسية.

خرج مبارك من الحكم، وزارت هيلاري القاهرة بعد نحو شهر، وسارت في ميدان التحرير، وصاح بعض المتظاهرين: «أهلًا بكم في مصر الجديدة»، ثم تحكي عن لقائها بعض الطلَّاب والناشطين الذين أدَّوا أدوارًا قيادية في التظاهرات، وأخذت تسألهم عن خططهم للانتقال من الاحتجاج إلى العمل السياسي، واقتراحاتهم بخصوص الدستور. لم ترقها الإجابات، ووصفت الناشطين بأنهم مجموعة غير منظَّمة، وغير مستعدة لخوض الانتخابات أو التأثير في أي شيء، وأنهم لا يملكون الخبرة السياسية، ولا يعرفون طريقة تنظيم الأحزاب، وإدارة الحملات؛ تجادلوا فيما بينهم في الاجتماع، وألقوا اللوم على الولايات المتحدة. خرجت من الاجتماع، وقد ساورها القلق من تسليمهم البلاد للإخوان المسلمين أو الجيش نتيجة تقصيرهم، ثم تُردف: «وهو بالضبط ما حدث». وعندما طالعتُ هذه الفقرة تعجبتُ من استئساد هذه الدبلوماسية الأمريكية على مجموعة من الناشطين حُرموا العمل السياسي مدة ثلاثين عامًا في عهد مبارك، وقد ضُيِّق في عهده على كلِّ محاولة لممارسة السياسة، ومُنعت الصحافة الحرة؛ فمن أين سيأتي هؤلاء بخبرة سياسية؟!

تحكي هيلاري عن مقابلتها مجموعة من الأقباط المسيحيين، وسؤالهم حول ما يتردد عن مساعِدتها «هوما عابدين»، وكونها تنتمي للإخوان المسلمين، وتضايقت هيلاري من انتشار تلك المعلومة المغلوطة التي روَّج لها بعض أعضاء الكونجرس، وتكمل هيلاري حديثها بنقد تجربة مرسي، واتهامه بأنه تصادم مع القضاء، وسعى إلى تهميش خصومه السياسيين، لكنه فاجأ بعض المشككين بالإبقاء على معاهدة السلام مع إسرائيل، ومساعدة هيلاري على التفاوض على وقف إطلاق النار في غزة في نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٢.

لا نجد في المذكرات أي شيء عن التعاون مع الإخوان لإخراج داعش وغيرها من الشائعات التي نُسبت إلى هيلاري كلينتون. تُواصل هيلاري شرح مواقفها مما حدث في احتجاجات البحرين، وأن الملحق العسكري في الرياض أبلغها بتحرك القوات السعودية للمشاركة في عملية عسكرية في البحرين. تواصلت مع وزراء الخارجية، ولم تر دول الخليج ضرورةً لإبلاغ الولايات المتحدة، أو سؤالها، أو سماع رأي الإدارة الأمريكية في ذلك.

تبدأ هيلاري كلينتون، وزيرة الخارجية الأمريكية حديثها عن سوريا في مذكراتها خيارات صعبة باقتباس عبارة كوفي عنان الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة في جنيف؛ إذ يقول: «التاريخ قاضٍ ماكر، وسيحاكمنا جميعًا في قسوة؛ إذا ثبت أننا عاجزون اليوم عن السير في الدرب الصحيح»، قالها في نهاية يونيو / حزيران ٢٠١٢، في اجتماع من أجل إيجاد حل للقضية في سوريا.

تروي هيلاري قصة الثورة، وخروج المتظاهرين للتظاهر ضد نظام بشار الأسد الاستبدادي، ومواجهة قوى الأمن لهم، ولجوء السلطة إلى الاعتقالات الجماعية. وتحكي أيضًا عن علاقتها بالملف السوري، والتي بدأت باقتراحها الدبلوماسي المتمرس روبرت فورد؛ ليكون سفيرًا للولايات المتحدة في سوريا. وصل فورد إلى سوريا، وباشر أعماله سفيرًا، وأكمل الأسد منهجه المتعمَّد في القتل، والاعتداء على المدنيين، ونشر الدبابات في كل مكان. أدانت الولايات المتحدة ما يحدث، وفي يوليو / تموز ٢٠١١، أقدم محتجون موالون للنظام على اقتحام مجمع السفارة، وتحطيم النوافذ، والكتابة على الجدران.

في هذه الظروف توجَّه السفير الأمريكي إلى حُماة؛ حيث كانت وقعت أحداث دامية عام ١٩٨٢، والتقى بالمتظاهرين؛ مؤكدًا تضامن الولايات المتحدة، وتعاطفها مع المحتجين. قُدِّر تصرف روبرت تقديرًا كبيرًا داخل الإدارة الأمريكية، وثُبِّت في وظيفته سفيرًا من قبل مجلس الشيوخ؛ لأنه ذهب خارج جدران السفارة لينفذ مهامه.

تذكر هيلاري كذب وعود الأسد المتكررة، كما تذكر نداءات جامعة الدول العربية؛ وصولًا إلى اجتماعات الأمم المتحدة، وتشرح رفض الروس القاطع لكل ما يمكن أن يشكل عامل ضغط على الأسد، وأنهم عزموا على عدم تكرار تجربة ليبيا، التي أفضت إلى تدخل حلف الناتو. كما تصف هيلاري الدعاوى الروسية المتعلقة التمسك بالسيادة، ومعارضة التدخل الأجنبي في سوريا بالكاذبة؛ ففيما بين عامي ٢٠٠٨ و ٢٠١٤ لم يتوان بوتين عن إرسال قوات إلى جورجيا وأوكرانيا؛ مغتصبًا سيادة هاتين الدولتين؛ فقط لأن الأمر يخدم مصالحه.

ما تنقله هيلاري عن أحاديثها مع سيرجي لافروف؛ وزير الخارجية الروسي يدل على حالة من المراوغة الروسية؛ ففي ميونخ رفض الحديث عن تدخل عسكري في سوريا، ثم سألها: «ولكن، ما هي نهاية اللعبة؟»، وتكرَّر استخدام روسيا والصين حق النقض في مجلس الأمن، ومنعتا العالم من إدانة العنف؛ تقول هيلاري: «إنهم بهذا التصرف يتحملون مسئولية الفظاعات المرتكبة في سوريا؛ الأمر الذي وصفته بالحقير».

تروي بعد ذلك ملابسات تشكيل ما عُرف بأصدقاء الشعب السوري، وظهور أحاديث خلف الكواليس عن تسليح الثوار؛ تنسب هيلاري هذه الفكرة لدول الخليج، وتبرر السبب بأن الخليج كان يشاهد جرائم ذبح الثوار السنة والمدنيين عبر قناة الجزيرة، وبدأ صبرهم ينفد؛ رأى وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل أن تزويد الثوار بالأسلحة فكرة ممتازة، وكانت هيلاري تخشى وصول هذه الأسلحة للمتطرفين. بعد ذلك توجَّهت لمقابلة الأمير سعود الفيصل والملك عبد الله، وتكرَّر الحديث عن خطر إيران وضرورة التدخل في سوريا، وكان ردُّ الأمير سعود الفيصل أن الأسد لن يتراجع عن نهجه في القمع وممارسة العنف، وأن والدته لن تسمح له بالتراجع، وأن الأسد سيتبع نهج والده في قمع الثورات. كان الأمير يشير إلى ما حدث في حماة عام ١٩٨٢ . ثم توجهت هيلاري إلى إسطنبول، والتقت مع ممثلين من تركيا والسعودية والإمارات وقطر، واستمعت الرسائل نفسها عن ضرورة تسليح الثوار.

حاول كوفي عنان، كما تشرح هيلاري كلينتون، اقتراح حلول، لكن الأسد لم يتخذ أي خطوة صادقة لتطبيق ما اتفق عليه من خطة عنان، ووقعت في أثناء ذلك مجزرة الحولة، وكان الضحايا نصفهم من الأطفال،

واضطر العنف المترامي، والمستمر في سوريا الأمم المتحدة إلى تعليق عمل المراقبين الأمميين.

توجهت هيلاري، رفقة أوباما، إلى لوس كابوس في المكسيك؛ حيث التقيا بوتين، وجلسوا نحو ساعتين. استحوذت سوريا على مجمل المحادثات؛ ادَّعى بوتين أنه لا يحب الأسد شخصيًّا؛ لأنه كان يسبِّب الصداع لموسكو؛ زاعمًا أنه لا يملك نفوذًا حقيقيًّا عليه، ثم حذَّرهم بوتين من المتطرفين؛ مشيرًا إلى الفوضى التي أعقبت سقوط القذافي. واستفاضت هيلاري في شرح كل تلاعبات لافروف في المفاوضات، ولعبه بالكلمات، واختلاف أحاديثه أمام الكاميرا عما يقوله في الاجتماعات المغلقة، واستخدامه الثغرات؛ لتثبيت وضع الأسد ما أمكنه ذلك، ورفضه خروج الأسد من المشهد السياسي، ورفض الروس ممارسة ضغوط على نظام الأسد؛ بل لقد شاركوا نظام الأسد في جرائم الحرب المرتكبة بحقٍّ السوريين.

قدَّم كوفي عنان استقالته في اشمئزاز تامٍّ، وقال لهيلاري: «فعلتُ ما في وسعي، وفي بعض الأحيان لا يأتي الأفضل على المستوى المطلوب»، فأجابته هيلاري: «لا أعلم ماذا كنت لتفعل أكثر وسط عناد الروس في مجلس الأمن؛ لا أستطيع تصور عمل يفوق ما قمنا به؛ أقله عملنا في جنيفِ على هيكلية، لكنهم كانوا ثابتين في آرائهم».

بدأت هيلاري تطلق على سوريا صفة المعضلة الشريرة؛ وهي عبارة يلجأ إليها خبراء التخطيط، لوصف التحديات المستعصية. توضح هيلاري موقفها من قضية تسليح الثوار، وتحكي عن القلق من انفجار

صندوق الشرور الذي يمكن أن ينتج عنه متطرفون، وعن القلق من خيارات ما بعد رحيل الأسد، وتردد كلمة لويس الخامس عشر: «من بعدي الطوفان»؛ دلالةً على تفكير نظام الأسد. فكرت أيضًا في دعم قوى ثورية غير متطرفة؛ تمدها بالسلاح، وتُسهم في طرد الأسد، واختارت الجنرال ديفيد بتريوس مدير وكالة الاستخبارات لمناقشة هذا الخيار. كانت قصة المجاهدين الأفغان ماثلة دائمًا في أذهان الإدارة الأمريكية؛ تخوفًا من تكرار التجربة، وتبدُّل اتجاه البندقية ناحية الغرب وأمريكا بعد سقوط الأسد. وانتهى النقاش برفض أوباما اقتراح تسليح الثوار، ثم تصل إلى نهاية فترة ولايتها، وخروجها من العمل الدبلوماسي، وتحكي عن تحركات جون كيري، وأوباما مع الروس لنزع الأسلحة الكيماوية، وتنهي حديثها عن سوريا بالقول: «يستحيل على المرء أن يكتفي بالفُرجة على المعاناة في سوريا، وإن كان مواطنًا عاديًّا، من دون أن يسأل ما إذا كان يمكنه القيام بأكثر».

(٢٤) سوريا في مذكرات وزير الخارجية الأمريكي جون كيري

حصلتُ على مذكرات جون كيري وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية المعنونة: **كل يوم هو إضافة**. يخصِّص كيري أكثر من موضع في المذكرات للحديث عن ملف سوريا؛ ففي عام ٢٠٠٩ تولى كيري مسئولية رئاسة لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ. أصبح رئيسًا للجنة نفسها التي أدلى فيها بشهادته عن حرب فيتنام في عام ١٩٧١؛ وهي اللجنة التي شارك فيها من أصبحوا رؤساء فيما بعد؛ من جاك كينيدي إلى باراك أوباما، ومن أصبحوا نواب رؤساء من هيوبرت همفري إلى جو بايدن.

في أثناء تولِّيه هذا المنصب شارك في نقاشات كثيرة من بغداد إلى كابول، لكنه يأتي على ذكر الأسد عندما تحدَّث عن زيارته لسوريا لكي يلتقي به في أثناء تولِّيه منصبه؛ ففي سنوات إدارة جورج بوش الابن أمدَّت سوريا العراق بالمقاتلين؛ لذلك عدَّتها إدارة بوش من الدول الراعية للإرهاب. وفي بداية عهد أوباما أراد كيري أن تكون الزيارة محاولة لمعرفة نوايا سوريا فيما يخصُّ قضية السلام مع إسرائيل. رأى كيري أن سوريا بمنزلة «برميل بارود ديموغرافي ستصعب إعادة تجميع أجزائه إذا انفجر»؛ لذلك شجَّع أوباما كيري على التعرُّف على نوايا الأسد. كان كيري قد التقى حافظ الأسد قبل ذلك، لكنه كان اللقاء الأول

مع بشار الأسد؛ باستثناء وقفة قصيرة في دمشق عام ٢٠٠٥. لم يكن أحدٌ في البيت الأبيض يثق في بشار، حتى كيري؛ لكنه أراد المحاولة، وكان الهدف الرئيس من ذلك إخراج سوريا من زواج المصلحة مع إيران، والبدء في مفاوضات مع إسرائيل.

التقى كيري بشار في عام ٢٠٠٩، ونوقشت في اللقاء مسألة محطة الطاقة النووية السورية التي قصفتها إسرائيل، وطلب كيري من بشار أن تتفقد الوكالة الدولية للطاقة الذرية المحطة النووية. نظر الأسد في عين كيري قائلًا: «إنها ليست منشأة نووية». عدَّ كيري كلام الأسد كذبةً تافهةً لا أكثر. في الزيارة الثانية كان البيت الأبيض قد أطلع كيري على مسألة تهريب السلاح عبر الحدود إلى حزب الله. ذهب كيري، وأطلع الأسد على هذا الموضوع، وكان الردُّ هي الإنكار. لذلك طلب كيري من المساعدين الخروج ليتسنَّى لهالانفراد ببشار، ثم بدأ كيري بالقول: «هذا ليس جدالًا، لقد رأيتُ الأدلة؛ الأمرُ يحدث، ونعلم أنه يحدث»، فأجاب الأسد: «كل شيء قابل للتفاوض»، وأشاح بوجهه عن كيري. ثم يكمل كيري وصف شخصية بشار: «إن التناقض في الكلام تصدر عن حاكم مستبدٍّ يفتقر إلى النضج، وهو يتفوه بكذبة واضحة، وكانت لحظة كاشفة أفادتني بعد سنوات في المعضلة السورية؛ فالرجل الذي يكذب في وجهك مباشرة، وهو على بُعد أقدام منك، لن يصعب عليه أن يكذب على العالم بعد أن قتل شعبه بالغاز المسموم».

سأل الأسد كيري عن إمكانية الانخراط في مفاوضات لاستعادة الجولان، ونصحه كيري أنه لو كان جادًّا فعليه أن يقدم اقتراحًا خاصًّا على هيئة رسالة من الأسد إلى أوباما يطلب فيها الدعم الأمريكي

لمحادثات السلام مع إسرائيل. في اليوم التالي سافر جون كيري إلى إسرائيل، والتقي مع بنيامين نتنياهو، وأطلعه على رسالة الأسد؛ فُوجِئَ نتنياهو من الرسالة، ومن استعداد الأسد للذهاب إلى ذلك الحد، نقل كيري الرسالة إلى وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون.

بعد ذلك اختبرت الولايات المتحدة الأسد؛ من خلال توجيه عدة طلبات إليه؛ بعضها بسيط يمكن تنفيذه؛ مثل طلب فتح مركز ثقافي أمريكي، أو تعيين سفير في لبنان؛ لإرسال رسالة عن عدم نية سوريا التدخل في الانتخابات اللبنانية، وبعضها كان متابعةً لتصرفات الأسد على الحدود، وكانت النتيجة أنه لم يكفَّ عن التعاون مع حزب الله. ثم يحكي كيري عن نقاشات خاضها مع الأسد؛ وعد فيها بتنفيذ الطلبات الأمريكية، وعن شعوره بالضغط بسبب مئات الآلاف من الخريجين الذين لا يجد لهم وظائف، وأوضح لكيري أن البديل سيكون الحركات الإسلامية، ثم تحدَّث معه عن الحنين لعصر كان أكثر علمانيةً، وأطلع بشار كيري على صورة لوالدته في المسجد الأموي مرتدية تنورة متوسطة الطول، ومن دون حجاب، ثم علَّق وزير الخارجية السوري: «إذا لم نجد سبيلًا لتأمين المزيد من الوظائف لشعبنا، فسوف تعود بعد عشر سنوات، وتجده الملا أسد»، وضحك الأسد قائلًا: «سأكون بشار الملتحي». كان التلويح بخطر الحركات الإسلامية ورقة الأسد مع الأمريكان، لكن المفارقة كانت في تلويحه بالاستعانة بإيران من أجل الوظائف للشعب، لكنه استعان بإيران فعلًا لتأتي بالمليشيات لتحصد أرواح شعبه، وليس لجلب الوظائف!

سوريا الجرح المفتوح

يأتي جون كيري للحديث عن سوريا التي يسميها «الجرح المفتوح»، بعد أن أصبح وزير خارجية، وبعد قتل الأسد أكثر من مئة ألف في تلك الفترة، وفي ٢٠١١ قال باراك أوباما: «إن على الأسد التنازل عن السلطة». بعد ذلك رسم خطًّا أحمر شهيرًا؛ وهو استخدام الأسلحة الكيميائية، لكن الأسد تجاوز ذلك الخط الأحمر. ويصف كيري في المذكرات مشهد أطفال سوريين تعرضوا للغازات السامة، وقال إن بعض هؤلاء الأطفال من عمر أحفاده، ومع وصول الأخبار إلى كيري شعر بالغثيان والحنق على الأسد.

برغم أن كيري توجه إلى روسيا للقاء بوتين قبل ذلك؛ عندما وصلت معلومات إلى الحكومة الأمريكية عن نية الأسد استخدام غاز السارين في بعض المناطق، التقى كيري بوتين، ويهمنا أن نرى وجهة نظر بوتين التي ذكرها لكيري؛ والتي عبَّر فيها بوتين عن أسفه عن تخلي أمريكا عن الحكام في مصر وليبيا؛ يقصد مبارك والقذافي؛ فهؤلاء، برأي بوتين، يمكن التعويل عليهم، وهناك موجة تطرف برزت في ليبيا بعد سقوط القذافي. هكذا أخبر بوتين وزير الخارجية الأمريكي، وأوضح له هذا ما يحدث عندما يسقط الحكام الأقوياء دون إعداد بديل، ثم يوضح كيري أنه «وجد بوتين متلونًا، ويتهرب من النقاش حول مسألة انتقال السلطة في سوريا؛ بحُجَّة أن هذا ليس وقت إجراء هندسة اجتماعية في البلدان ذات السيادة، وأنه يخشى من انهيار سوريا، وسوء تصرفات الأسد».

ذهب كيري إلى أن توجيه ضربات عسكرية للنظام ردٌّ مناسبوضروري على استخدام الأسلحة الكيمياوية، وقد تفاءل كيري بتصور أن هذه الضربات قد تفتح مسارًا للتفاوض مع النظام، وتشكُّل حكومة انتقالية تتكون من عناصر النظام الأكثر قبولًا إلى جانب ممثلي المعارضة العلمانية. نقل كيري هذه الأفكار للبيت الأبيض في ثلاث ساعات ونصف في أحد الاجتماعات، واتفق الحضور على أن الضربات العسكرية هي من الضرورة بمكان للردِّ على تجاوزات الأسد، وقد دعم مارتن ديمبسي رئيس هيئة الأركان المشتركة، وتشاك هاغل، وزير الدفاع، هذه المقترحات. كانت ثمة حُجج لبعض المعترضين؛ منها أنِ في ذلك تكرار نموذج ليبيا الذي لم تكن نتيجته مرضية، أو أن هناك قلقًا من تدفق اللاجئين للبلدان المجاورة.

لم يتوقع كيري ردَّة فعل أوباما، ويشرح كيف أن أوباما كان يطلب تحليلات شاملة للعواقب المحتملة على أي قرار سياسي، ثم يذكر كيري كيف انزعج أحد الموظفين في البيت الأبيض عندما قال كيري في أحد الاجتماعات: «إن إعلاننا دعم المعارضة وضرورة رحيل الأسد، مع عدم تقديم دعم حقيقي لهذه المعارضة هو عجز لا أكثر». لكن العبارة لم تنجح في جعل الإدارة الأمريكية أكثر حماسة في ملف سوريا؛ وذلك بسبب أن الأمريكان كثيرًا ما تدخلوا في الدول؛ لكي لا يظهروا بمظهر العاجز والضعيف، وأتت إدارة أوباما عازمةً على ألا تجعل لهذه الحُجَّة تأثيرًا على أيِّ قرار من قراراتها.

في الاجتماعات التالية اقترح مارتن ديمبسي إطلاق صواريخ توماهوك من المدمرات المنتشرة في البحر المتوسط على أهداف للنظام؛

علمًا بأن البنتاغون كان قد جمع بالفعل قائمة بالأهداف المحتملة قبل أسابيع، تضمنت منشآت عسكرية. وكان الاجتماع التالي بحضور أوباما، وتعثرت المناقشات في هذا الاجتماع بسبب الذريعة القانونية للتدخل العسكري؛ كان الاستدلال بتجربة تدخل كلينتون في كوسوفو سابقة يمكن الاعتماد عليها؛ فأمريكا التي تعلم أن روسيا ستمارس حق الفيتو للاعتراض على أي قرار من مجلس الأمن؛ قد وجدت في مشروعية العمل الإنساني مهربًا من سؤال مجلس الأمن.

بدأ أوباما باقتراح إشراك الكونغرس في قضية سوريا، وأوضح كيري أنه لا يطلب تدخلًا عسكريًا، وقصفًا مستمرًا لشهور؛ بل فقط ردًّا سريعًا ومباغتًا يجعل الأسد يدرك عاقبة فعلته. ومما يذكره كيري أنه عندما تواصل مع الحكومات لحشد قرار بالضرب، فقد دعم الأردن قرار التدخل، وكذلك السعودية. ثم كانت محادثة روسيا التي يصفها كيري بالمحادثة العجيبة؛ إذ اعترض سيرغي لافروف وزير الخارجية الروسي، وادعى أن الثوار هم من قاموا بتجميع المواد الكيميائية، واستخدامها لحشد التعاطف الدولي، ورد كيري بطلب السماح بلجنة دولية للتفتيش في تلك المناطق التي تعرضت للقصف، ورد الروس بالرفض.

كانت المكالمات مستمرة بين كيري ووزير الخارجية البريطاني وليام هيغ، الذي وعد أن ديفيد كاميرون رئيس الوزراء ملتزم بالخطوات الأمريكية؛ لكن المفاجأة كانت طلب كاميرون من البرلمان البريطاني الموافقة على عمل عسكري، والذي توقع أن يحصل على الموافقة بسهولة، لكن أحداث التدخل البريطاني في العراق كانت ماثلة في أذهان البرلمان، ورُفض المقترح بسبب تعاون بلير السابق مع بوش إبان حرب

العـراق؛ وهـو مـا ألقـى بظلاله علـى قـرارات البرلمـان، وأبلـغ كاميرون الأمريكان عن التزامه بقرار البرلمان.

مـرت ثمانيـة أيام علـى الهجمات الكيماوية التي شـنها النظام دون ردٍّ مـن المجتمـع الدولـي. شـعر كيـري بالقلـق من تضييـع الـروس الوقت، وطلـب الإفصاح عن تقرير سـري يتعلق بدور النظام فـي الهجوم؛ ليطَّلع الـرأي العام علـى ما اقترفته يدا النظام السـوري، لكن خطاب كولن باول القديم الذي يصفه كيري بالمخزي في مجلس الأمن بشأن وجود أسلحة دمـار شـامل فـي العـراق - كان ماثلًا في الأذهـان، واسـتخدمت الدعاية الروسية هذه الأحداث للقول إن معلومات الأمريكان خاطئة مثلما كانت خاطئة في العراق.

أجـرى أوبامـا اتصـالًا مـع كيـري؛ ليخبـره عـن نيتـه طلـب قـرار مـن الكونجـرس، لـم يكن كيـري يتوقع ذلك، وعندها شـعر بشـخصية أوباما المتـرددة في الملف السـوري، وعـن تغييره قناعاته فيها. توقعت سـوزان ريـس، مستشـارة الأمـن القومـي، أن الكونجـرس لـن يوافق، ولـن يمنح الجمهوريون أوباما أي تفويض للقيام بأي شيء، وكانت أحداث التدخل العسـكري الأمريكي في العراق ماثلةً فـي الأذهان، وجعلت الكونجرس يخشـى التصويت على التدخل العسـكري، كما أن هنـاك بعض الأعضاء تبلدت أحاسيسهم تجاه ما يحدث في سوريا؛ كما يقول كيري.

العجيب أن بعض المتظاهرين من منظمة كود بينك المناهضة للحرب كانـوا يرفعـون لافتـات في جلسـات الاسـتماع تحمل شـعار «لا تقصفوا سوريا»، و«لا تلطخوا أيديكم بالدماء»، ويعلّق كيري أن هذا ذكَّره بسنوات

قضاها كناشط سياسي، لكنه تساءل: «أين اللافتات التي تحمل صور الأطفال الذين ماتوا بسبب أسلحة الأسد؟ ألا يشعرون بالغضب من الأسد؟!»

تزامن ذلك مع وجود أوباما في سان بطرسبرج لحضور قمة مجموعة العشرين مع بوتين؛ أقنع الأخير أوباما أنه يمكن ضمان تأمين مخزون الأسلحة الكيماوية الموجودة لدى النظام، ونقلها للخارج. وتواصل كيري مع لافروف لمناقشة التفاصيل التقنية بخصوص إخراج الأسلحة الكيماوية، ونجد في الكتاب وصفًا لشخصية وزير الخارجية الروسي؛ فهو «يتمتع بالذكاء والحذر واستخدام الحيل الذهنية، أو أساليب يحصل بها على نقاط على طاولة المفاوضات»؛ من ضمن هذه التصرفات التي عدَّها كيري فظَّة هو تجهيز الوفد الروسي حقائب سفره عند باب الفندق للإيهام أنهم يتجهزون للرحيل دون الوصول إلى اتفاق، وردَّ كيري: «هل نضيع وقتنا هنا يا سيرغي، أم نحن بصدد اتفاق؟» وفشلت لعبة لافروف، وأشعل سيجارته، واستكملوا النقاش.

ومن المضحك أن النظام حاول أن يطلب بعض المعدَّات العسكرية؛ بحجة استخدامها في نقل الأسلحة الكيماوية؛ مثل مركبات لنقل الدبابات، وكانت المشكلة هي الحصول على دولة للقيام فيها بتدمير الأسلحة؛ رفضت تركيا والأردن المشاركة في العملية، ووافقت ألبانيا، ثم مع ضغط المتظاهرين تراجعت، ورفضت روسيا أن يتم ذلك على أرضها؛ وكان الحل هو التخلص منها في البحر عن طريق خبراء الأسلحة الكيماوية، وهكذا تم التخلص من ١٣٠٠ طن من الأسلحة الكيميائية. لم ينجح كيري في إقناع أوباما بتوجيه ضربات للنظام السوري. ويستكمل

الكتاب الحديث عن ظهور داعش، وبرغم قول كيري: «إن الأسد هو مغناطيس جاذب للإرهاب»، لاحقت الإدارة الأمريكية داعش دون معالجة سبب ظهور داعش نفسها؛ ذلك بعد حادثة مقتل الصحفي الأمريكي جيمس فولي؛ والتي وجَّه أوباما بعدها ضربات لداعش، ونسَّق كيري مع الحكومات العربية للمشاركة في تحالف لضرب داعش. يذكر كيري غضب السعودية من عدم توجيه أوباما ضربات لنظام الأسد، لكنها شاركت مع الدول العربية الأخرى في التحالف الدولي ضد داعش. يشرح كيري كل محاولاته التوصل إلى اتفاق مع روسيا للهدنة، وتواصله المستمر مع سيرغي لافروف، ومدى كذبه هو وبوتين، ويذكر ردَّه على لافروف في اجتماعات الأمم المتحدة بالقول: «كيف يمكن للناس أن يجلسوا إلى طاولة المفاوضات مع النظام الذي يقصف المستشفيات، ويُلقي بغاز الكلورين مرارًا، وتكرارًا، ومرارًا وتكرارًا؛ ويتصرف وكأنه سيفلت من العقاب؟!».

ثم ينتهي حديث كيري بذكر اجتماع جنيف الذي تضمن مناقشة إخلاء حلب ويقول: «لم أشعر يومًا بالعبثية قدر شعوري ذلك اليوم». تنتهي شهادة كيري بأن الجهود الدبلوماسية الأمريكية لإنقاذ سوريا قد ماتت، وأن الجرح ما زال مفتوحًا.

أخيرًا، نحن في حاجة إلى قراءة جميع شهادات من شارك في تلك الفترة من زعماء أو مسئولين دوليين؛ للوقوف على كواليس المجتمع الدولي، وعن عدم تحمله مسئولية الوضع في سوريا بشكل جاد.

(٢٥) القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية

تُضفي المذكرات والسِّير الذاتية روحًا على الفترات التاريخية التي تتناولها؛ هكذا شعرت وأنا أطالع كتابًا بعنوان: **القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية: الكتاب الثاني من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية ١٩١٨-١٩٤٨**»؛ تحرير وتقديم: عصام نصار وسليم تماري، عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

في هذه المذكرات يصف واصف جوهرية حالة القدس بعد سقوط العثمانيين، وابتداء فرض الانتداب البريطاني على فلسطين. ما يميز هذه المذكرات هو أنها تكشف وتهزأ وتحتفل في الوقت نفسه بمجموعة من الممارسات الاجتماعية، لكن سليم تماري يلفت نظرنا إلى أن الأهم هو البوح؛ فهو السرُّ الكامن وراء قيمة هذه المذكرات. لقد ركَّزت هذه المذكرات على الجانب الخفي من الحياة الخاصة لوُجهاء القدس وأعيانها، وعلى سلوكيات النخبتين العثمانية والبريطانية من عسكر وسياسيين، وعلى فضائح وبطولات الناس العاديين الذين وُلد بينهم واصف جوهرية وكَبُر. تسهم المذكرات في إزالة الغمامة عن طبيعة تلك الحقبة؛ خصوصًا الفترة التي يسميها سليم تماري «السنوات العتبية»؛ تلك التي تلت سقوط العثمانيين في شتاء ١٩١٧، وبداية الانتداب البريطاني ١٩٢١.

كانت الأعوام الثلاثة التي سبقت سقوط القدس من أحلك وأقسى الحقب التي مرت على المدينة؛ إذ اجتمعت عليها قسوة الحرب

والمجاعات، وأصبح الافتقار للمواد الغذائية هاجس الناس. ويحكي واصف جوهرية بأسلوبه الساخر كيف تحولت الأغاني الشعبية للحديث عن الأطباق الشعبية التي خلت حياة الناس منها. وقد ساهم هو بإحدى هذه الأغاني، وانتشرت أنشودة المجاعة في القدس، وشرع الناس ينشدونها في الشوارع، وهم يستحضرون الأكلات الشهية التي حُرموها بسبب الحرب:

كرشات كرشات كرشات محشية

بيضات بيضات بيضات مشوية

يا سمك يا سمك يا سمك مقلي

واسكب، واشرب، وغني، واطرب

يحكي واصف حياته الشخصية، ويصف سنوات عزوبته التي كانت قبل دخول الإنجليز فلسطين، وهو يصف نفسه ويقول: «تارةً أكون في سهرة في محلة بيت حطة، وعند الصباح أكون في شطحة ضمَّت أرقى العائلات وأعيان القدس، ثم جلسة خاصة في بيت من زوايا القدس مع القبضايات والزعران».

مع دخول الإنجليز انهار النظام العثماني عسكريًا وسياسيًا، وكان الحكم الكولونيالي البريطاني يحاول أن يوطد مؤسساته. يقول الكولونيل ستورز حاكم القدس العسكري: «عشنا في دولة من الجهل، وكلمتي كانت القانون». وتم تعليق العمل بجميع القوانين المدنية لصالح الأحكام العُرفية التي أصدرها الحاكم العسكري، ومرَّت فلسطين بفترة لم يكن

فيها محامون ولا قضاة ولا محاكم ولا صحف؛ كما تقول بيان نويهض الحوت.

من التفاصيل التي يذكرها واصف جوهرية نستطيع أن نرى أثر السلطات الانتدابية على التخطيط المدني على أيدي المهندسين المعماريين ماكلين وريتشموند وآشبي، وعلى أيدي جورج البشر؛ خصوصًا في تخطيط الجنائن الذي تبناه آشبي؛ لوضع الحد الفاصل بين البلدة القديمة والأحياء الجديدة. لقد أراد آشبي تقسيم المدينة إلى نطاقين؛ أولهما: البلدة القديمة؛ بتحويلها لمَعلم تاريخي مخصص للمحافظ الأثرية؛ وكأنه متحف ضخم، وجدَّد سور المدينة، مع وجود مسارات للسير حول منطقة البلدة القديمة؛ لتستحضر في أذهان الزائر شعورًا دينيًّا وعاطفيًّا، وتم وضع المقاعد الخشبية في مواقع إستراتيجية حول تلك المزارات، والنطاق الثاني البلدة الحديثة في شمال المدينة وغربها، وقد تم تطبيعها للنمو.

هناك أحد السمات لتلك الفترة العتبية؛ وهي الحالة الرخوة للحدود السياسية؛ لقد بقيت الحدود بين فلسطين وشرق الأردن ولبنان وسوريا في وضعها العثماني المنفتح؛ ففي صيف عام ١٩٢٢ قرر واصف أن يمضي إجازته مع أخيه خليل في ربوع سوريا ولبنان؛ مرورًا بالحدود في شمال فلسطين. يُدوِّن واصف جوهرية ذكرياته عن عبوره للحدود من منطقة رأس الناقورة من دون أي التفاتة، وكأنه يمر من منطقة إلى أخرى داخل البلد نفسه، ويمر مرة أخرى بعد ثلاثة أعوام مع عروسته فيكتوريا بالسهولة، والانسيابية نفسه؛ هذه النقطة الحدودية التي ستتحول إلى نقطة عبور دولية شديدة الإحكام بعد عشرة أعوام من هذه الواقعة.

تبوأ واصف مركزًا حسَّاسًا في سلك الموظفين الانتدابي؛ وبالتحديد في دائرة الأراضي، وكان من مهمات الطاقم الذي عمل معه تقنين وتخصيص نظام ملكية الأراضي الفلسطيني، ولقد سجل لنا التفاصيل القانونية التي أدخلها الإنجليز على نظام تمليك الأراضي؛ مما أدى إلى تسهيل نقل حيازة الأراضي المدنية والزراعية إلى اليهود؛ إذ شمل إلغاء ضريبتي العُشر والويركو؛ وهي ضرائب كانت تُفرَض في حال نقل ملكية الأراضي.

تسجِّل المذكرات كذلك انتهاء شهر العسل بين المواطنين والسلطات البريطانية، وظهور مواجهات؛ يذكر منها مسيرة احتفالات النبي موسى التي أقام الجيش فيها قوات دفاعية هائلة، وعندما وصل الموكب المندفع والهائج إلى باب الخليل المغلق والمليء بالعساكر - قرر الحاكم العسكري رونالد ستورز الانسحاب بالقوات البريطانية؛ تجنبًا للمواجهات مع جموع الشباب، وأشاوس جبل الخليل أو جبل النار؛ كما يحكي واصف.

تساعدنا المذكرات على تصور مرحلة التحديث في مدينة القدس، وظهور المقاهي والنوادي الاجتماعية والأدبية، وبروز ثقافة الترفيه في المدينة. وانتشرت أغنية «الفؤاد مخلوق لحبك»؛ رغم أنها كانت موجهة في الأصل للملك فؤاد، ثم أخذت الأغنية تدل على انتصارات مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، وكان الطلب على أسطوانات هذه الأغنية كثيرًا في تلك الفترة.

يحكي واصف قصة حبه لفيكتوريا، ووقوعه في الغرام ثم خطوبته

وزواجـه بهـا، وقصة مغامراته في شـهر العسـل فـي القاهـرة، وتعود هذه المصارحـات الشـخصية للظهور مرة أخرى قـرب نهاية الكتاب عند وفاة زوجتـه، ونـراه كاتبًا سـاخرًا؛ حيث يحكـي لنا، وهو يسـتقبل المعزِّين في بيـت ابنته يسـرى فـي بيروت؛ فقد ظهر رجل لـم يلحظه واصف من قبل، ورآه يتلـو خطـاب رثـاء طويل؛ يعدِّد فيـه مناقب المرحومـة بعاطفة قوية، وأخـذ واصـف يبكي وينتحـب، ثم انتقل هذا الشـخص إلى وصف عائلة واصـف جوهرية ومدحها، ثم يقترب منـه ويعرف واصف أن هذا الرجل من فئة ممتهني حضور الجنائز؛ الذين ينتقلون من مناحة إلى أخرى بهدف الارتـزاق، ويصحو واصف من أحزانـه مؤقتًا، ويضع في يد الرجل بعض الليـرات، وهو يقول له: «يكفي أرجوك، مزعت قلبي... فهذا يكفي»، أما الرجـل فيرتبك، ويعطـي واصف الورقة التي يقرأ منهـا؛ فيردُّ عليه: «لا يا أخي، دعها لك؛ فقد تلزمك أكثر مني، وتقرأها لغيري».

(٢٦) نجيب المانع: ذكريات عمر أكلته الحروف

وُلد نجيب المانع في قرية الزُّبير القريبة من البصرة. يحكي عن طفولته بطريقة مشوقة؛ إذ رأى عالمين من عوالم الطفولة في قريته؛ عالم الأطفال الذين يتعلمون العلوم الشرعية، ويحفظون القرآن، ويفهمون أدق قضايا النحو العربي، ويتبحَّرون في الشعر وأوزانه وتفعيلاته، ويمارسون المحاسبة، ويدرسون الفقه والتفسير، وهناك الأطفال الذين يذهبون للمدرسة الابتدائية في البصرة، ويلتزمون بدروس وزارة المعارف؛ تلك الدروس التي يصفها بأنها «تلمس جرف الماء دون العوم فيه». وينبهنا إلى أن رؤيته لهؤلاء الأطفال في الزبير الذين يدرسون تلك العلوم الصعبة جعلته يُكذِّب ما يتداوله علماء التربية من ترهات حول ضرورة التعليم المناسب للسنِّ. حتى في الغرب كانوا قبل حمَّى الشهادات يحفظون الإلياذة والأوديسة في عمر مبكر، والسِّير القديمة ملأى بأناسٍ مثل هؤلاء.

غادر نجيب البصرة لدراسة الحقوق في بغداد، وفي بغداد اكتشف أثر الحرب العالمية الثانية على نفوس العديد من شعرائها، والذي أنبت في العراق أورادًا أخَّاذة الشكل، والتلوينات ذات أشواك لذيذة فاخرة. يلاحظ نجيب المانع أن هؤلاء الشعراء احتضنوا الأسى والمعاناة، وكتبوا -وهم شباب في العشرينات من أعمارهم- كتبًا ودواوين تَشي بأنهم شيوخ أثقل كواهلهم الهمُّ الأكبر؛ همُّ الوجود الثقيل، ومن عناوين دواوينهم المنبئة عن شعورهم بالغثيان، أو استيائهم، أو اسوداد دنياهم:

أزهار ذابلة لبدر شاكر السياب، و**خفقة الطين** لبلند الحيدري، و**أغاني المدينة الميتة** و**أباريق مهشَّمة** لعبد الوهاب البيَّاتي. وفي العراق ظهرت موجة رومنطيقية ثانية بعد الموجة الأولى لجماعة أبولو خلال الثلاثينيات في مصر، ويصفها بأنها ترى الصحة في المرض، وترى الاضطراب النفسي هو الطريق المؤدي لمتانة الروح وبهائها، وكان من بين رافعي راية هذا التشويش الشاعر حسين مردان.

سيرة نجيب المانع مختلفة وشيقة؛ ليست سيرة ثرثارة أو مملة؛ فهو لا يسجل فيها إلَّا اللَّافت والمشوِّق؛ يقلِّل كاتبها من الحكي عبر خط مستقيم من الولادة والطفولة إلى الشباب والشيخوخة؛ يقفز بين فترة وفترة بخفة ورشاقة؛ يسجل ما يفكر فيه دون أن يهتم بالتتابع الزمني؛ يقف وقفة مع قلَّة تَغنِّي الشعراء بجمال نهر دجلة، وقلَّة اللوحات التي صورت النهر، وينتقل بعدها إلى عدم تلذُّذه بالمقام العراقي في الموسيقى؛ فهو عسير على مشاعره، ولا يستجيب له، على عكس أنواع الموسيقى الأخرى، ثم يحكي عن فشله في المحاماة.

السيرة الذاتية مخاطرة في منطقتنا؛ فالكاتب يشعر بالحساسية، ويتعذر عليه الحديث عن الأحياء، ومطلوب منه أن يسكت عن الأموات؛ فتأتي السيرة باهتة، ويبقى للكاتب استعراض الذات؛ مما يجعل القارئ يسأم منه. من هذا التخوف ينطلق نجيب المانع محاولًا كسر حاجز الخوف من الصراحة في تدوين السيرة الذاتية.

صداقة مع السيَّاب

إذا كان نجيب المانع نشأ في في الجانب الصحراوي من البصرة؛ فقد نشأ بدر شاكر السياب في الجانب المائي منها؛ هناك قرب نهر شطِّ العرب

العريض. لذلك يفسر نجيب جريان الماء في شعر السياب مثل جريان المجد في شعر المتنبي. وفي بغداد توطَّدت العلاقة بينهما؛ يحكي لنا نجيب المانع عن قدرة السياب على حكاية النوادر الخاصة بأسرته وقريته جيكور التابعة لقضاء أبي الخصيب؛ وهي قدرة يصفها بأنها نادرة عند نظرائه من الكتاب والشعراء؛ لا سيما في العراق. وكان السياب مهما كرَّر حكايته؛ فهي تُروى رواية جديدة كل مرة، ويتفنَّن السياب في وصف ديوانية جدِّه وزوَّاره، ويعرِّفنا المانع على وجه آخر للسياب الشاعر الحزين الذي كان يمتلك قدرة فكاهية بديعة لا تكشف عنها أشعاره. عمل المانع والسياب بعد نيلهما الشهادة العالية في شركة نفط البصرة، وكانا يعملان في أدنى درجات الوظيفة الكتابية؛ إذ لم يأبه الإنجليز بشهادتيهما، وعدُّوهما مجرد ساعيين للحصول على مورد شهري. كانوا يطلبون منهما أن ينتظرا اللوريات التي تقلهما للشركة في الفجر، والشمس لم تشرق بعد، وكانا في الطريق يريان لوريات أخرى تحمل خرافًا؛ فكان المانع يقول: «إن الخراف على الأقل تُذبَح مرة واحدة؛ أما نحن فنُذبَح كل يوم»، كان عملهما يرتكز في قسم المخازن، ويتَّسم بالملل الشديد. ولنتصور شاعرًا مثل السياب ثري الإحساس، مُفعَمًا بالحياة يعمل في مهنة متعبة، وفي الردهة شخص إنجليزي يُشرف عليه. في تلك الردهة الصامتة؛ إلا من وشوشة البطاقات، وطرقعة الطابعات، كان السياب يعثر على الصوت الذي لا يسمعه إلا الشعراء. وفي المذكرات فصل بديع يصف فيه المانع عبد اللطيف الشواف، ويمدحه مدحًا رائعًا في كرم أخلاقه ومروءته، وقد سعى الشوَّاف إلى مساعدة السياب في أثناء مرضه؛ فهو الذي جعل عبد الكريم قاسم يمنحه نفقات السفر، والعلاج في

إنجلترا، لكن السياب لمَّا سمع بمقتل قاسم كتب قصيدة شامتة؛ ليست من شعره الجيد، ويعلق المانع: «المشاعر الرديئة لا تنتج فنًّا جيدًا».

بين العقاد وطه حسين

تعرَّف نجيب المانع على كتابات العقاد وطه حسين، ومع الوقت، وجد عيوبًا وثغرات لديهما؛ كلا الزعيمين الفكريين ينقصه أمران؛ الأول أن كلًّا منهما بعيد عن المدرسة الأخرى؛ فطه حسين مثلًا لم تهطل على أراضيه أمطار شكسبيرية، والعقاد لم يغترف كثيرًا من عطايا فرنسا؛ الأمر الثاني أن طه حسين نقل لنا شك ديكارت، وسار على منوال الناقد الفرنسي إميل فاجيه الذي كان شعاره: «ما ليس واضحًا ليس فرنسيًّا»؛ لذلك أكثر الأدب الفرنسي المعروف عن طريق طه حسين ينحدر من الواضحين؛ أمثال ديكارت وموليير وفولتير، أما المزاج الباسكالي وأدب الظلال والزوايا المعتمة؛ مثل لغة رامبو وبروست ـ فلم يذكرهم طه حسين؛ لذلك لم يكن سفيرًا وافي السفارة، أما التيار الأنجلوساكسوني؛ والذي يمثله العقاد؛ فيأخذ عليه المانع أنه محصور داخل أسوار كارلايل، وكتَّاب النثر الإنجليز في القرن التاسع عشر بالدرجة الأولى؛ قرن الثقة بالنفس؛ الثقة بدوام الأشياء والحرص على تحسين الأمور. والعقاد حذا حذو الواثقين المتعالين؛ هكذا يحلله المانع في لمحات نقدية مميزة، ويصفه بأنه لا يحاور القارئ. ثم يقول نجيب المانع: «إذا كان طه حسين ديكارتيًّا؛ فهو لأنه يعطي القارئ فسحة في كتابته: كان يدعو القارئ إلى مائدته الفكرية، أما العقاد فيأكلُ طعامه الفاخر وحده؛ تاركًا القارئ يشمَّ الرائحة. إنني أتصور العقاد ملاكمًا قديرًا لا يرضى أن ينازله أحد؛ لكي

يظل ملاكمًا قديرًا وحده». وفي الكتاب مساحة لأخطاء العقاد لمن أراد التوسع فيها، وهذا لا يقلل من كون العقاد ناقدًا فذًّا مثلما يظهر في كتابه عن ابن الرومي. وينتقد المانع لغة الزيات التي يراها باردة، ويرى نفسه يبتعد عنها؛ كما يبتعد المرء عن انهيار ثلجي إن استطاع.

في الكتاب آراء للمانع في شعر الرصافي، وحديث عن رواية **الحرب والسّلم** لتولستوي، وكفاحه في تعلم الإنجليزية والفرنسية؛ ليقرأ بهما الأعمال الأدبية الكلاسيكية، وحديث عن البصرة، وأماسي الأعظمية، وحديث مُطوَّل عن المجرم البريء دستويفسكي؛ هذا الذي وجد فيه المانع ترحيب بعض المدن بغُزاتها المحرِّرين؛ ففي علاقته بالمبدعين لم يقدم المانع مفاتيح المدينة إلا لاثنين: المتنبي، ودستويفسكي؛ وعقدة المتنبي في نظر المانع هي كبرياء الوجود مع كبرياء الإنجاز؛ فأودع لديه كبرياء الوجود وحدها، وترك كاتبنا محاولًا الإنجاز.

الكتاب أقرب للسيرة الفكرية من السيرة الحياتية التفصيلية؛ تتمتع فيها بالنثر الجميل والوصف المميز، وقد نستعير من صلاح نيازي وصفه لنجيب المانع في سيرته: «حين يتحدث نجيب يغمر المقابل بطوفان؛ فإذا استطاب فكرةً، يصغي كأنه لا يعرف شيئًا؛ يصغي إصغاء جاهل فضولي».

(٢٧) الفصول الأربعة:
معن زيادة يرثي قاهرة الستينيات

وقفت أمام رفّ كتب السير الذاتية والمذكرات، أبحثُ عن سيرة أعيش معها تجربة مختلفة، وأتعرَّف عن طريقها على عالم جديد؛ رأيت كتابًا بعنوان: **الفصول الأربعة: سيرة حياة للكاتب معن زيادة**؛ صدر عن دار رياض الريِّس. أخذت السيرة إلى البيت، وشرعت في قراءتها؛ يلخص الكاتب حياته في مدن أربع، وكأنها فصول أربعة؛ الفصل الأول عن طفولته في طرابلس شمال لبنان، والفصل الثاني عن شبابه في القاهرة، وحياته الجامعية فيها، والفصل الثالث عن مونتريال ودراسة الماجستير بإحدى الجامعات هناك، وفي الفصل الرابع يحكي عن العودة لبيروت. انتهيت من فصول الكتاب الأربعة، ولم أجد في الكتاب فصلًا ربيعيًّا جميلًا مثل ذكرياته في القاهرة. الفصل الأول يستغرق في حكايات عن طفولته، وفي مونتريال يحكي عن النظام التعليمي، وتجربته في الماجستير.

سافر معن زيادة للدراسة في القاهرة، وكان قد انجرف في العمل السياسي مع القوميين العرب، وسافر إلى مصر بالباخرة من اللاذقية إلى الإسكندرية، وكانت الرحلة الوحيدة التي يجربها الكاتب بالباخرة، ويصف مشاعره، وهو يرى ابتعاد المدينة عن النظر، وهو في الباخرة بين الماء والسماء، ويحس بشيء من الغربة يصحبه رهبة.

وصل كاتبنا إلى القاهرة، وأصبح عضوًا في اللجنة المسئولة عن فرع حركة القوميين العرب في القاهرة، وتم تكليفه بالتواصل مع اليمنيين الذين عاشوا في القاهرة في تلك الفترة، وكانت اليمن ما تزال تحت حكم الإمام أحمد، وتعرَّف إلى القاضي أحمد محمد النعمان، والشاعر اليمني محمد محمود الزبيري، أما علاقة الصداقة الوثيقة فربطته مع لاجئ سياسي يمني كان له شأن كبير في السياسة فيما بعد، هو قحطان الشعبي؛ الذي أصبح رئيسًا للجمهورية في اليمن الجنوبي، وكان قحطان الشعبي هو المدخل الذي تعرف عن طريقه معن زيادة بعالم اليمن،التقى أبرز شخصياته التي كانت تعيش في القاهرة. وقد أفاد اليمنيون من المناخ الذي وفرته ثورة يوليو ١٩٥٢، وبثُّوا الدعاية المعارضة لحكم الإمام من إذاعة صوت العرب في القاهرة.

سكن معن زيادة حي الزمالك في القاهرة؛ ونراه يحكي لنا تعرُّفه على مثقفي المدينة في تلك الفترة، وكيف رأى القاهرة مدينة حية بالنشاط الثقافي. يحكي عن آل النقاش، وعن صداقته مع الشاب الناقد وحيد النقاش الذي تُوفي في العشرينات من عمره، وحزن عليه كاتبنا حزنًا شديدًا؛ ويصفه وصفًا جميلًا: «كان ناحلًا جدًّا، وجميل الوجه، أزرق العينين، حنطي البشرة، ولقد وجدت فيه الندَّ المناسب رغم إفلاسه الدائم، واستعانته بي في كثير من الحالات». وكان وحيد ينادي معن بالصدَيق الآسيوي، ثم تعرف على أخيه الناقد الأدبي رجاء النقاش الذي كان يشقُّ طريقه سريعًا، وقد كتب رجاء مقدمة جيدة لديوان أحمد عبد المعطي حجازي مدينة بلا قلب، ولكن عباس العقاد لم يكن يحب حجازي، ولا صلاح عبد الصبور، ولا هذا النوع من الشعر؛ لذلك انتقد

العقادُ رجاءَ النقاش، وكان يشير إليه باسم الآنسة رجاء على سبيل السخرية، ويطلق على أدب هؤلاء الأشخاص الأدب القرمزي إشارة إلى أنهم من اليساريين، وكان يبالغ أحيانًا على عادته؛ فيقول: «أدب الفراش».

يذكر معن زيادة رأيه في الكثير من الشخصيات التي التقى بها في القاهرة؛ فهو يرى أن رجاء أخذته الصحافة كمصدر عيش؛ مما أدى إلى ابتعاده عن الأدب والنقد، وأنه كان مشغولًا بتحسين وضعه المادي؛ خصوصًا بعد أن تزوج ابنة أحد المرموقين (عبد القادر حاتم) الذي عمل وزيرًا للإعلام.

في القاهرة يجلس معن زيادة في مقهى هافانا؛ حيث يجلس رجاء النقاش، والناقد أنور المعدَّاوي، والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، وينضمُّ لهم أحيانًا الدكتور عبد القادر القط الذي يصفه بالمفكر الهادئ والمرموق، وكان دائمًا يحمل الكثير من الأفكار الجديدة.

عن طريق صداقته برجاء النقاش؛ تشجَّع معن لكتابة قصة قصيرة، وعرضها عليه؛ وهي من وحي تجربته في القاهرة، ثم عمل معن مراسلًا لـ **مجلة الحرية** التي تصدر في بيروت؛ وأتاح له عمله الصحفي إجراء مقابلات مع المؤلفين في ذلك الوقت. التقى الصحفي أحمد بهاء الدين الذي أحبَّه كثيرًا، وقد جذبه في بهاء الدين تواضعه، وحسُّ العروبي، وتبنِّيه الفكر القومي، وكان يعدُّ بهاء نجم الصحافة المصرية، وعندما يقارن بين بهاء وهيكل، يقول في الفرق بين الرجلين: «بهاء متواضع ومحبته تشدك إليه شدًا، وهيكل متعال ومعتُّد بنفسه؛ وهذا يجعل من يقابله غير قادر على دخول عالمه بسهولة».

أجرى معن زيادة الكثير من الحوارات؛ مثل حواره مع ساطع الحصري أبي خلدون المفكر القومي، الذي كان يقيم في بانسيون متواضع غير بعيد عن ميدان التحرير، وكذلك قام معن بعمل استفتاء للمثقفين بعنوان: «عاصمة الثقافة العربية؛ بيروت أم القاهرة؟» والتقى نجيب محفوظ وعرض عليه السؤال، فامتدح نجيب محفوظ بيروت، وذكر أسماء مؤسسات وأعلام من لبنان، وكان يميل إلى أن بيروت عاصمة للثقافة العربية. كان نجيب متواضعًا في ردّه، ويصفه معن بالطيبة واللطف، وعندما نشر محفوظ روايته **أولاد حارتنا**، ومُنعت في مصر، أخذ معن سهيل إدريس إلى نجيب محفوظ، وعرض سهيل نشر الرواية في «دار الآداب خارج مصر».

يُرينا معن زيادة حلقة نجيب محفوظ، ومن يحضرها من الأدباء والمثقفين، وكان يزور هذه الجلسة أحيانًا الأديب يحيى حقي الذي يصفه بأنه من أطيب الأدباء وألطفهم وأكثرهم إبداعًا، وكان أدبه الساخر بهدوء ومحبة قريبًا من شخصيته، ويقارن معن زيادة بين سخرية يحيى حقي، وسخرية الكاتب محمود السعدني؛ كتابة السعدني تجعلك تضحك، وأنت تقرأ شتائمه وتشنيعاته ومبالغاته، والواقع أن أدب كل منهما يمثل شخصية الكاتب؛ فأدب حقي هو شخصه الطيب الهادئ المبتسم الساخر البرجوازي، أو الجنتلمان، أما أدب السعدني الساخر؛ فهو أدب ابن البلد الذي يِرفع صوته عاليًا، ولا يتورَّع عن التشابك بالأيدي مع الخصوم، والتناطح بالرءوس عند الحاجة، واستنفاد قاموس الشتائم.

بعد الجلسة في حلقة نجيب محفوظ في مقهى صفية حلمي، يتوجَّه معن إلى كشك لبيع الكتب والمجلات؛ ومن هذا الكشك حصل على

كتب السلاسل الثقافية التي كانت تصدر في القاهرة في ذلك الوقت؛ مثل: «سلسلة المسرح العالمي»، «الألف كتاب»، «أعلام العرب»، وغيرها. وفي بعض الأحيان تنقَّل من حلقة نجيب محفوظ إلى سور الأزبكية؛ بحثًا عن كتاب قديم، وكانت مصدرًا مهمًا لذوي الدخل المحدود.

القاهرة في مذكرات معن زيادة مدينة ثرية؛ تستضيف المعارضين واللاجئين السياسيين، وتزخر بالحلقات، والجلسات الثقافية؛ هناك صالون العقاد الذي لا يحب معن زيارته، ويراه قد انطفأ بريقه؛ فهو يحب العقاد الشاب الذي يصدح بالتجديد، ونقد القديم، ولا يهتمُّ معن بما كتبه العقاد بعد ذلك، وهناك المسارح، والمعارض الفنية، والمحاضرات، والمراكز الثقافية، وكان المسرح المصري في حالة ازدهار؛ نظرًا لرعاية الدولة له، ولجهود وزير الثقافة ثروت عكاشة؛ لذلك قدَّم المسرح القومي أعمالًا مميزة، وبجولات معن زيادة تعرَّف على دور النشر؛ مثل **الهلال** ورئيس تحريرها مصطفى نبيل.

كان معن دائم الزيارة لدار روز اليوسف، وتعرف على إحسان عبد القدوس، وفي دار روز اليوسف تعرَّف على نجوم الكاريكاتير؛ مثل صلاح جاهين، وجورج البهجوري الذي ربطته صداقة طويلة به، ويمدح فنه ورسوماته كثيرًا، ويقصُّ علينا قصة زيارة جورج البهجوري إلى بيروت، واصطحابه الصحفي والمذيع مفيد فوزي الذي أصبح رئيس تحرير **مجلة صباح الخير**. يتَّسم معن زيادة بالصراحة الشديدة في آرائه بمَن يقابلهم؛ فهو يصف مفيد فوزي بأنه: «صحفي تافه، وانتهازي، ويُمثِّل نموذجًا لمدّعي الصحافة الذين يتسلقون، ويصلون عبر السلالم الخلفية».

هناك سمة في حكايات معن عن حياة القاهرة: يذكر من أحبهم من المثقفين، وتعلَّم منهم، وكذلك يهجو من لم يعجبه، ولم يرُق له ما قدَّمه، من الذين يقدرهم كثيرًا الدكتور توفيق الطويل؛ أستاذ الفلسفة المترفع عن الصغائر، وطيب العشرة، وكذلك يمدح أستاذه مصطفى حلمي الذي حببه في التصوف، وأحمد فؤاد الأهواني الذي فتح عينه على بعض المسائل العميقة في الفلسفة الإسلامية، وكذلك يتحدث بتقدير عن يوسف مراد، أستاذ علم النفس.

وقد تعلم معن زيادة على يد زكريا إبراهيم أستاذ الفلسفة الذي كان موضع اتهام دائم من قبل المخابرات؛ فهو قبطي متزوج من فرنسية، ويحكي لنا عن معاناة زكريا إبراهيم المادية، وعن عمله بالترجمة؛ وهذا يذكرنا بما كتبته عايدة الشريف عن المؤلفين، وأجورهم المتواضعة في سيرتها شاهدة ربع قرن.

انعقدت بين معن زيادة وزكي نجيب محمود صداقة خاصة؛ ويحكي لنا عن زيارة زكي نجيب محمود لبيروت، وفي إحدى الجلسات التي حضرها أدونيس، انتقد زكي نجيب محمود شعر أدونيس أمامه، وكان أدونيس يصغي بإمعان، ويناقش، ويقبل النقد، لكن طابور الهجاء في حياة القاهرة ضم العقاد، ومفيد فوزي الصحفي المتسلِّق، ولم يسلَم منه غاليَ شكري الذي يمدح معن مواهبه، لكنه يصفه بالمدِّعي، ويفتح زيادة النار على أستاذ الفلسفة عثمان أمين، ويُرينا الوجه الأكاديمي لهذا المترجم المعروف، وكذلك انتقد الشاعر محمد الفيتوري الذي اتهمه بالإفادة من عطاءات القذافي.

يصوّر معن القاهرة بوصفها ملتقى الطلبة والمثقفين من كل الأقطار العربية؛ فكان يدرس فيها في تلك الفترة علي أومليل الكاتب المغربي، كما تعرَّف معن إلى صدَّام حسين حين أقام في القاهرة، وربطته صداقة مع عدنان الراوي الشاعر العراقي؛ الذي لجأ إلى مصر بعد أن حُكم عليه بالإعدام بعد معارضته حلف بغداد في عهد نوري السعيد، وتعرف إلى هشام الشاوي؛ الذي أصبح وزيرًا لخارجية العراق فترة قصيرة بعد ذلك، ومن الكويت تعرف إلى سليمان العسكري؛ الذي شغل منصب رئيس تحرير **مجلة العربي**، وتعرف إلى الفنان السوري أدهم إسماعيل؛ الذي حصل على منحة تفرغ من وزارة الثقافة المصرية في أثناء الوحدة بين مصر وسوريا. هكذا نرى القاهرة مدينة زاخرة بالنقاشات الثقافية، والشخصيات السياسية، والحياة الأدبية في تلك الفترة. ويستكمل معن شهادته عن عودته لبيروت، وعمله صحفيًّا فيها، وانخراطه في النشاط السياسي، وآرائه في شخصيات عاشت في بيروت، ثم رحلته للماجستير في مونتريال. افتقدت المذكرات للغة الأدبية الرائقة، وكانت أشبه بمقالة صحفية من أربعة فصول عن حياته بين أربع مدن، ونسبة الصراحة والاعتراف بالأخطاء فيها قليلة؛ فالكاتب يتميز بعين نقدية تصل إلى هجاء بعض من تعرف عليهم، ولا يلوم نفسه أو مواقفه كثيرًا، لكنها شهادة على حياة، وتجربة نتعلَّم منها، ولا نسلِّم بكل ما فيها من مدح أو هجاء.

(٢٨) أمين الحسيني: في سبيل الله والفوهرر

ما إن وصلني كتاب **في سبيل الله والفوهرر: النازيون، والإسلام في الحرب العالمية الثانية** الصادر عن مدارات للأبحاث والنشر، بترجمة: محمد صلاح علي، حتى استغرقت في القراءة، والعَيش في الفترة التي يحكي عنها؛ خصوصًا أن المؤلف ديفيد معتدل استغرق في كتابة هذا العمل عشر سنوات، قضاها في البحث في أكثر من ثلاثين أرشيفًا، ودار محفوظات في أربع عشرة دولة، وجمع فيه ثروة وثائقية كبيرة؛ تشمل أوراقًا، وتقارير، وأدلة سياسية، وأوامر إدارية. وقد تجلَّى أثر ذلك في الكمِّ الكبير من التفاصيل الدقيقة التي تتبَّعَها المؤلِّف.

تصدر أهمية الكتاب عن توثيقه لفترة مهمة؛ حيث رصد علاقة النازية بالإسلام، وكيف وظَّفته في الدعاية الدينية لأغراض سياسية، وكيف كانت الدعاية واسعة النطاق في بلدان مختلفة.

انتبهت ألمانيا لدور الحشد الديني في الحروب؛ ففي الحرب العظمى؛ وبالتحديد في خريف عام ١٩١٤، نشأ تحالف بين قادة الدولة العثمانية من حزب الاتحاد والترقي وألمانيا، وأُعلن الجهاد، وطيلة الحرب العالمية الأولى كثَّفت برلين والقسطنطينية جهودهما؛ بُغية تحريض العالَم المحمدي أجمع على «ثورة عارمة»؛ على حدِّ تعبير القيصر الألماني فيلهلم الثاني.

وفي الخامس والعشرين من يوليو / تموز عام ١٩٤٠، وبعد سقوط

فرنسا مباشرة بيد القوات النازية، وبدء معركة بريطانيا - أرسل الدبلوماسي المتقاعد ماكس فون أوبنهايم مذكرة من سبع صفحات إلى وزارة الخارجية الألمانية؛ كان موضوعها «التحريض على التمرد في الأقاليم الإسلامية التي يحوزها الأعداء»؛ وفصَّل القول فيها بأنه حان الوقت لإطلاق إستراتيجية شاملة لتعبئة العالم الإسلامي ضد الإمبراطورية البريطانية. وقد نالت هذه المذكرة بعض ردود الفعل في وزارة الخارجية الألمانية.

ينبِّهنا الكتاب أنه من الناحية الإستراتيجية؛ لم تكُن محاولات الألمان لتعبئة المسلمين ضد أعدائهم ثمرة تخطيط طويل الأمد؛ بل نشأت في أثناء الحرب عندما انقلب الوضع ضد دول المحور؛ فبعد الهزيمة على مشارف ستالينجراد، وانخراط الولايات المتحدة في الحرب عام ١٩٤١، أدرك الألمان فشل إستراتيجية الحرب الخاطفة، وهنا مالت ألمانيا تدريجيًّا إلى الأهداف قصيرة المدى، والضرورات العاجلة للحرب، وسعت مراكز شتى في برلين إلى بناء تحالفات عسكرية أكبر؛ مبدية درجة كبيرة من البراغماتية، وأصبحت العوائق الأيديولوجية أقل تأثيرًا، وغدت الحواجز العرقية -فجأةً- أقلَّ صرامة كذلك. وفي أوائل عام ١٩٣٧، نظَّم الدوتشي بنيتو موسوليني احتفالًا عامًّا في طرابلس (الغرب)؛ حصل فيه على سيف الإسلام المرصَّع بالجواهر؛ ليعلن نفسه -رمزيًّا- حامي حمى العالم الإسلامي، وأعلن أن إيطاليا ستُجِلُّ شريعة النبي، وقد علّق غوبلز في يومياته قائلًا: «يجوب موسوليني إفريقيا مشيدًا بالإسلام، وهو تصرُّفٌ ماكر أشدَّ المكر؛ أثار -من فوره- قلق باريس ولندن».

علـى الرغم من أن أطراف الحرب العالمية الثانية كانت دولًا أوروبية، لكـن أُوَار الحرب امتدَّ ليشـمل أكثر ديار الإسـلام؛ فقبل أن يصل الألمان إلى سـتالينغراد كانوا قد احتلُّوا جميع أراضي أوروبا الشـرقية التي تقطنها أغلبيـات أو أقلِّيـات مسـلمة؛ وصولًا إلـى جزيرة القرم في البحر الأسـود جنوب الاتحاد السوفييتي. تُقدَّر هذه الأعداد بنحو عشرين مليونًا. ودعمًا لحلفائهم الإيطاليين؛ احتلَّ النازيون تونس لمدة وجيزة؛ وصولًا إلى مصر عبر ليبيا، حتى هزيمتهم الشهيرة في العَلَمين على مشارف الإسكندرية.

المفتي أمين الحسيني في برلين

رغم كثرة ما كُتب عن أمين الحسيني؛ فهو حاضر في الكتاب؛ لأنه من أبرز الرموز الدينية الإسـلامية التي وظَّفها الرايخ الثالث، إلا أن ذكره يرِد فـي فصول متفرقة، وبجمع المعلومات التي قدمها المؤلف يمكن تكوين صورة عن دور الحسيني من خلال الوثائق الألمانية.

وُلد أمين في مستهلِّ القرن العشرين لعائلة الحسيني؛ درَس في الأزهر لفتـرة وجيـزة، وسـطَع نجمه في فلسـطين في أثنـاء الانتـداب البريطاني. نصَّبتـه بريطانيـا مفتيًـا للقـدس، وبعـد عامٍ واحـد أصبح رئيسًـا للمجلس الإسـلامي الأعلى، ورئيس لجنة الأوقاف العامة في فلسـطين، وكان كل ذلك دون أن يتوقع البريطانيون أن الحسيني (الناقم) على اليهود، سيغدو عمَّا قريب معارضًا للحكم البريطاني. وقد رأى الحسيني أن التحالف مع ألمانيا هو السبيل لضرب بريطانيا.

وصل الحسـيني، المزهو بنفسـه، على حدِّ وصف معتدل، إلى برلين، واسـتقبله هتلر في دار مستشـارية الرايخ الجديدة، واقتصر الحوار بينهما

على تبادل عبارات المجاملة الشكلية، والتأكيد أنهما يحاربان العدوَّ نفسه (الإنجليز، واليهود، والبلشفية). وعندما طلب الحسيني من هتلر ضمانة مكتوبة باستقلال العرب؛ خصوصًا استقلال فلسطين، تهرَّب هتلر من الأمر، وعندما كرر الحسيني طلبه أخبره هتلر أن الوقت لم يحن بعدُ لهذا النوع من المطالب. لكن هتلر أكد كفاحه ضد اليهود بلا هوادة؛ بما فيهم يهود البلاد العربية.

استمرَّ المفتي في برلين، وحاول في السنوات التالية التأثير في السياسات الألمانية تجاه العالم الإسلامي؛ لكن سرعان ما ساءت سمعته؛ (لما عُرف عنه من الكيد لخصومه)؛ الذين كان من أبرزهم رئيس الوزراء العراقي الأسبق رشيد عالي الكيلاني. لا يغطِّي الكتاب هذه الخلافات بين المفتي ورفاقه العرب، ولا يهتم بتصوير الوضع السياسي العربي في برلين؛ رغم وجود العديد من المنفيين العرب فيها؛ مثل: رشيد عالي الكيلاني، فوزي القاوقجي، والصحفي كامل مُروَّة الذي سجَّل تجربته في كتاب بيروت برلين بيروت، وأعتقد أن السبب هو تركيز المؤلف على الطابع الديني لشخصية الحسيني. والذي تجلَّى في عام ١٩٤٣؛ عندما أرسلت وحدات الحماية النازية الحاج أمين الحسيني في جولة داخل المناطق التي يقطنها المسلمون في البلقان، وتعاملت النازية مع أمين الحسيني على أنه «بابا إسلامي»، كما يقول الكاتب، ذو كلمة مسموعة لدى المسلمين حول العالم.

أخفقت خطة أمين الحسيني في تحقيق هدفها الرئيسي بالحصول على امتيازات وضمانات واضحة باستقلال العرب والمسلمين، وحاول المسئولون الألمان استعماله بوصفه رمزًا دعائيًّا كلما اقتضى الأمر. وكان

الحسيني يتقاضى راتبًا جيدًا مقابل خدماته؛ إذ كان يتلقى شهريًا ما لا يقلّ عن ٩٠ ألف مارك، بالإضافة إلى السكن الخاص به وبمرافقيه. وقبل ساعات من الاستسلام الألماني حطت طائرة كان فيها الحسيني في برن بسويسرا، وسلَّم السويسريون الحسيني للفرنسيين؛ خشية تحمل أي تبعة، وفي باريس حصل على استقبال دافئ من سي قدور بن غبريط إمام مسجد باريس، وأطلق الحلفاء سراحه؛ خشية أن تؤدي محاكمته بوصفه مجرم حرب إلى نشوب انتفاضات إسلامية، وعاد إلى القاهرة. ولم يتراجع أمين الحسيني عن مواقفه الفكرية عندما كتب مذكراته بعد ذلك؛ حيث أظهر في المذكرات إعجابًا بهتلر، وهاينريش هملر، الذي كان يظن أنه صديقه، ولم يتراجع عن مواقفه في دعم ألمانيا النازية.

النازيون في ديار الإسلام

استخدم النازيون الدعاية الدينية في المناطق الإسلامية في القوقاز والقرم، وركزوا على منح الحريات الدينية لهؤلاء السكان؛ فقد عانى المسلمون الاضطهاد السوفييتي؛ إذ فُرض عليهم منع المظاهر الدينية. ومع وصول القوات النازية إلى هذه المناطق، استعانت بسياسة منح المسلمين امتيازات دينية؛ بغرض الحصول على ولائهم، وعلى متعاونين محليين لإحلال السِّلم في هذه المناطق، وتأمين مؤخرة القوات النازية في حربها ضد الروس؛ إذ أمرت بفتح المساجد مرة أخرى؛ بل بُنيت مآذن جديدة، ووافق الجيش الألماني على إعادة التعليم الديني، وأمرت الفرقة النازية بأن يصبح يوم الجمعة في المناطق الإسلامية في القوقاز

يـوم عطلـة، وروَّجت ألمانيا فـي كتيبـات دعائية لنفسـها بوصفها صديقة للإسلام.

علـى طـول التُّخوم الإسـلامية في جنـوب الاتحاد السـوفييتي، بدأت السـلطات العسـكرية الألـمانيـة في الدعايـة للرايخ الثالـث بوصفه محرر المؤمنيـن مـن قبضة البلاشـفة الروس، وفضلًا عن ذلك شـرعت القوات النازية في تجنيد آلاف من أسرى الحرب المسلمين بعد موافقة هتلر؛ في إطار ما سـمَّته «الفيالق الشـرقية»، وبحسـب الكتاب عدَّ المسلمون قدوم القـوات النازيـة فرصـة لممارسـة الشـعائر الدينيـة، وحيَّوا جنـود القوات النازيـة بهتافـات المحرريـن، وأرسـل المسـلمون فـي القـرم فواكـه، ومنسوجات للقيادة الألمانية ولـ «أدولف أفندي».

وفي عام ١٩٤٤ افتتحت القوات النازية مدرسـةً للملالي في درسـدن لتدريس الأئمة الميدانيين؛ حتى يسـاعدوا في إدارة الفِرق المسـلمة التي انضمت إلى قوات النازي. وقد صرح أحد المتهمين في محكمة نورمبرغ التـي عُقدت لمحاسـبة قـادة النازية، بأن سياسـة وحـدات الحماية كانت تتحرك تدريجيًّا في اتجاه تعبئة كل محمديٍّ ممكن وتسـليحه. وانتشر في الأوراق الحكومية الألمانية مصطلح تعبئة الإسـلام؛ أي حشـد أيِّ قوات مسلمة في جيوش النازيين. وفي برلين كتب غوبلز وزير الدعاية، مسرورًا في يومياته لعام ١٩٤٢: «بعد أن سُمح للمسلمين برفع الأذان من مآذنهم مـرة أخرى، تخلَّى التتار عن احترازهـم السـابق تجاه القوات المسـلحة»، وأضـاف: «مـن المثيـر الإشـارة إلـى أهميـة الاسـتغلال البـارع للمسـألة الدينية».

وينبهنا المؤرخ ديفيد معتدل إلى إحدى ميزات استغلال الإسلام، بدلًا من الشعارات العرقية والقومية في مناطق البلقان والقوقاز؛ هي أن برلين ستتجنَّب تشجيع إعلانات الاستقلال القومي للأقليات القومية المسلمة في الاتحاد السوفييتي.

مع الانسحاب الألماني من تلك المناطق، عاقبت موسكو المسلمين، وعدَّت كل من تعاون مع الألمان متهمًا بالخيانة العظمى، ورحلّت الكثير منهم إلى معسكرات الاعتقال السوفييتية (الغولاغ). ذكر الروائي الروسي ألكسندر سولجستين في كتابه **أرخبيل الغولاغ** وصول دفعات من مسلمي القوقاز إلى معسكرات الاعتقال، ولم تؤثر احتجاجات الصليب الأحمر على بريطانيا، والولايات المتحدة التي سلَّمتهم إلى الروس؛ حتى إن الروائي جورج أورويل الذي كان مراسلًا حربيًا في ذلك الوقت جاهر بالاعتراض على سياسة التسليم التي انتهجها الحلفاء، والذين توقفوا عنها عندما علموا بتعرض هؤلاء المعتقلين المسلمين للموت والسخرة.

النازية في البلاد العربية

لم تكن ورقة الحريات الدينية التي استخدمتها النازية صالحةً للاستخدام في البلاد العربية؛ حيث كانت الحريات الدينية متاحة تحت حكم الحلفاء، لكنهم مع ذلك طمعوا في انضمام العرب إلى القوات النازية، وغمروا المناطق العربية بالمنشورات المكتوبة باللغة الدارجة لتشجيع العرب على الانضمام إليهم، واستُخدم الدين في الدعاية؛ مثل منشور: «هلُمُّوا إلى الألمان، الذين لم يُؤذوا المسلمين قطُّ»، وصُدِّر منشور آخر بآيات سورة الأنفال (الآية ١٥): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

﴿ لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾. واستُهلَّ منشور آخر بقوله تعالى (المائدة ٨٢): ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾. وكان عدد المنشورات التي وُزِّعت في تونس وحدها لا يقلّ عن ستة ملايين نسخة؛ بل إنّ الدعائيين النازيين في سوريا ولبنان نشروا أنشودة تقول: «لا مسيو، ولا مستر؛ الله في السماء، وفي الأرض هتلر». وكُلِّف «»مكتب أمن الرايخ الثالث البحث عن آية من آيات القرآن تصلح لأن تبرهن للمسلمين على أن القرآن قد تنبأ بالفوهرر. وهكذا استمر العبث بتفسير النصوص الدينية بطريقة براغماتية؛ لتكون أدوات سياسية في الحرب؛ بل إنه تم طبع القرآن بكميات كبيرة، وتوزيعها على الجنود المسلمين في الجيش النازي. وتعاملت السلطات النازية بحذر مع الأسرى المسلمين، واحترمت العديد من المظاهر الدينية لجذب هؤلاء الأسرى للقتال بجانب الألمان في الحرب، ويقدم الكتاب تفصيلًا عن حالة الأسرى في المعسكرات.

اهتمَ المسئولون الألمان بمراعاة الحساسيات العربية، وعُدِّل اسم مكتب «النشاط المُعادي للساميين» في وزارة الدعاية الألمانية إلى «النشاط المُعادي لليهود». وفي عام ١٩٤٢ كرر غوبلز وزير الدعاية توجيهاته إلى الصحافة بتجنب استعمال ألفاظ الساميَّة في دعايتهم؛ بل إنَّ غوبلز حذَّر هيئات تحرير المجلات من أنَّ أيَّ نقد للإسلام غير مرغوب فيه، وأكد فكرة العدوَّ المشترك بين الإسلام والنازية؛ أي البلاشفة الروس واليهود. وفي عام ١٩٤٣ وُجِّهت الصحافة الألمانية إلى الكتابة عن اضطهاد السوفييت للمحمديين، واعتبار الولايات المتحدة عدوًّا للإسلام. ثم جرى التمادي في البحث عن أوجه شبه بين النازية

والإسلام، وابتكر ناشط اسمه زكي علي مقولة أن الخليفة ليس أكثر من «فوهرر المؤمنين»؛ بل إن النازية حاولت البحث عن أوجه الشبه بين الإسلام والنازية؛ من خلال الحديث عن المماثَلة بين مفهوم الأمة الجرمانية المرتكِز على العِرق، ومفهوم الأمة الإسلامية المرتكِز على الدِّين؛ ومن ذلك أيضًا المماثَلة بين الفوهرر والنبي.

من النقاط التي يرصدها الكتاب ردود الفعل الإسلامية على التودُّد الألماني للإسلام، ويستعين بقصة أنور السادات وتعاونه مع جواسيس ألمان، ويستنطق مذكرات الشيخ سلطان القاسمي أمير الشارقة المعنونة: **سرد الذات**، والتي يحكي فيها تفاعل مستمعي الإذاعة في الشارقة مع الدعايات القادمة عبر المذياع؛ سواء من الحلفاء، أو المحور. ومن الطريف أن من بين مستمعي إذاعة برلين في إيران الملا الشاب روح الله الموسوي، الذي سيُعرف لاحقًا بالخميني؛ والذي كان يملك مذياعًا، ويستضيف عددًا من الملالي، وطلاَّب الحوزات، ويستمعون إلى البرنامج الفارسي في الإذاعة النازية، ولاحقًا نُشرت تعليقات الخميني في تلك الفترة؛ التي حطَّ فيها من شأن الأيديولوجيا الهتلرية؛ بوصفها أشد ما أنتجه العقل الإنساني خطرًا وبشاعة.

من ضمن الأمثلة التي يدرسها الكتاب تلك النصوص التي كتبها عرب لتأييد الرؤية النازية؛ مثل زكي كرام الذي تقدم بمخطوطة بالألمانية بعنوان: **النبي محمد واليهود**، لكن نصَّه لم يُجَز في النهاية، وكذلك تقدم بمخطوطة كتاب للرقابة الألمانية بعنوان: **الإيمان النوردي والإسلام وروح العصر**، ورُفضت.

وعلى هذا الصعيد؛ من النقاط التي يفتقدها الكتاب تحليل وقراءة النصوص الفكرية التي كتبتها النخبة العربية المثقفة متفاعلين مع النازية؛ مثل مقالات العقاد، وكتابه **هتلر في الميزان**؛ الذي قدَّم نقدًا جريئًا للنازية، حتى هرب إلى السودان، مع وصول قوات النازيين إلى حدود العَلَمين، أو دفاع بعض المفكرين الذين انبهروا بها، أو أبدوا إعجابهم بهتلر؛ مثل عبد الرحمن بدوي في **مذكراته**، وعمر فروخ؛ نتيجة حياتهما في ألمانيا. ولعل السبب هو تركيز الكتاب على المسألة الدينية فقط، لكن مع صدور كتاب «**النازية بأقلام عربية: من أعلام عاصروها**» لفيصل بن سويد مؤخرًا؛ فقد تكون هناك فرصة ثمينة لتأمل كتابات الأدباء والمفكرين، وتفاعلهم مع صعود النازية، وكذلك قدم كتاب **عميان عن التاريخ: العرب وألمانيا النازية واليهود**» تحليلًا لصورة النازية في عديد من البلدان العربية، وصفحات المجلات؛ مثل **مجلة الهلال**، والصحافة المغربية، وهو سؤال يستحق التفكير فيه؛ لفهم كيفية تفاعل الجماهير والنخب المثقفة مع الدعاية النازية.

النخبة النازية وهتلر والإسلام

يرصد الكتاب رؤية النخبة النازية للإسلام؛ فقد عبَّر بعض أعضاء النخبة النازية عن تعاطفهم مع الإسلام، وربما كان هينريش هملر قائد القوَات الخاصة من أكثر المنبهرين بالدين الإسلامي، وعبَّر هملر عن ازدرائه للمسيحية بحضور هتلر، وكان يكرر الحديث عن الطابع البطولي للدين المحمدي، وأبدى هتلر نفسُه انبهارَه بالإسلام؛ إذ تحدَّث في **كفاحي** عن التقدم السريع للدين المحمدي في إفريقيا وآسيا. ولعل ما

لفت نظره في الإسلام هو ما عبَّر عنه بأنه دين قويّ وعمليّ، واعتبر المسيحية دين معاناة ليِّنًا وضعيفًا. وقد انبهر هتلر بمفارقة توقف الإسلام عن التقدم في أوروبا بعد معركة شارل بواتييه (بلاط الشهداء)؛ إذ هزم شارل مارتل المسلمين، وتوقف المد الإسلامي، وهنا تحسَّر هتلر على عدم دخول الجرمان الإسلام، وفي إحدى المرات قال: «من نكَد الطالع أن وصل إلينا الدين الخاطئ؛ فالدين المحمدي أكثر توافقًا معنا من الدين المسيحي». وهذه التصريحات لا تنفي رؤيته أن العرب أحطُّ عرقيًا من الجرمان، لكنه ابتكر تخيلًا تاريخيًا عن جرمان مسلمين، كان يمكن أن يقدّموا تجربة عظيمة لو جمعوا بين العرق الأعلى، والدين الأسمى من وجهة نظره.

أيَّد هتلر التودد الألماني إلى المسلمين تأييدًا شديدًا؛ إذ تأثر موقفه منهم بانبهاره بفكرة وحدة الدين الإسلامي، وقد حاول السياسي النمساوي النازي هيرمان نيوباخر شرح العلاقة لهتلر بتعبيرات يسهل فهمها، فقال: «عندما تضرب مسلمًا في مقاطعات التتار يردّ طالبٌ في القاهرة»، وقد أثرت هذه الفكرة في هتلر الذي بدا أنه انبهر بالعبارة، واستعملها هو نفسه بعد ذلك، وأكد نيوباخر بعد ذلك أن مصير مسلمي البلقان خضع لمتابعة حثيثة من جانب المؤمنين في جميع أنحاء العالم.

ورغم أن هتلر ارتاب من تجنيد غير الألمان؛ وخصوصًا متطوعي الاتحاد السوفييتي، وبينما كان يصل إلى ذِروة عدم ارتياحه حينما يتعلق الأمر بتجنيد السلاف الروس والأوكران ـ رأى هتلر أن المسلمين فقط هم الجنود الجديرون بالثقة، ودعم تجنيدهم بغير شروط، وقال: «المحمديون الخلَّص فقط هم من أعتقد أنه يمكن الاعتماد عليهم»؛

وتفسير هذه النظرة أنه رأى فيهم «أشرس أعداء البلشفية الروسية». ومع هزيمة ألمانيا، وفي الشهور الأخيرة للحرب، تحسَّر هتلر في أثناء وجوده بمخبأ برلين على أنّ جهود الرايخ الثالث في تعبئة العالم الإسلامي لم تكن قوية بما يكفي، وأخبر هتلر مارتن بورمان رئيس الحزب النازي أن «الإسلام كله اهتز لأنباء انتصاراتنا»، وأن المسلمين كانوا مهيَّئين للثورة، وقال: «تصور فقط أننا فعلنا ما بوسعنا لمساعدتهم؛ بل حتى تحريضهم، كما كان يجب علينا وفي مصلحتنا».

لا يمكن حسم تفسير موقف هتلر من الإسلام؛ هل دافعه هو ازدراؤه للمسيحية، أم انبهاره بالإسلام؛ لكي نفسّر سبب تعاطفه مع المسلمين، لكن ذلك لم يشفع لدى الألمان لكي يتم الإفراج عن بعض المسلمين في المعتقلات النازية؛ فهذه الدعاية الألمانية للإسلام لا تعني أن الواقع كان قريبًا من هذه الصورة المثالية؛ فقد اعتدى الجنود الألمان على المسلمين، ويرصد المؤرخ الألماني غرهرد هب في كتابه **العرب في المحرقة النازية: ضحايا منسيُّون** حالة العرب في المعتقلات النازية، الذين بلغوا ألفًا ومئةً وثلاثين مسلمًا (١١٣٠)، بالإضافة إلى تسع عشرة مسلمة (١٩)، وقد جرى التفكير في إخراجهم لينضمُّوا إلى الجيش النازي، لكن جرى التراجع عن هذه الخطوة.

الاستشراق الألماني وصورة الإسلام

من النقاط التي يرصدها الكتاب ويقدم فيها قراءة مختلفة؛ هي صورة الاستشراق الألماني؛ فقد تم تقديمه دائمًا كنموذج للاستشراق العلمي غير المتورط في الاستعمار؛ تميَّز في غالبه بالحياد والتحرر من دائرة

المصالح السياسية، وأنه اتسم بأكبر قدر من الموضوعية العلمية، وأنه لم يخضع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية. ويرجع هذا إلى غياب المشروع الاستعماري الألماني. ورغم أن ألمانيا كان لها بعض التجارب الاستعمارية في إفريقيا؛ جريًا على عادة جيرانها في القارّة، لكنها تظلّ، رغم كل شيء، تجارِب محدودة؛ فلم يتجاوز أقصاها ثلاثين عامًا؛ وبالتالي يصعب -عند البعض- القول بأن الاستشراق الألماني أو المستشرقين الألمان كانوا يعملون في خدمة مشروع استعماري محدَّد مثل نظرائهم الإنجليز والفرنسيين ثمّ الأمريكيين في القرن العشرين؛ بقدر ما كانوا يعملون في الإطار الثقافي العامّ للرؤية الأوروبية للإسلام؛ بما يتضمَّنه ذلك من سلبيَّات وإيجابيَّات. غير أن الكتاب يقدِّم صورة مختلفة لعلاقة الاستشراق الألماني بالإسلام؛ فقد شارك المستشرقون الألمان في الكثير من الأنشطة الاستعمارية الألمانية في إفريقيا في نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كما كان الكثير منهم مؤيدون لإقامة التحالف الألماني العثماني في الحرب العالمية الأولى. وأخيرًا أسهمت رؤيتهم للإسلام بوصفه منظومة فكرية قد تتقارب مع النازية من بعض الزوايا في محاولات الرايخ الثالث توظيف الإسلام في الحرب العالمية الثانية.

استخدام الدين في الحرب العالمية الثانية

اشترك الحلفاء، والنازية في استخدام أحد أهم وسائل الدعاية في ذلك الوقت؛ وهي الإذاعات؛ حيث بثَّت ألمانيا موجات إذاعية ضد دول الحلفاء؛ كان من أبرز أصواتها المذيع العراقي يونس بحري؛ الذي كان

يهوى إحاطة نفسه بالألمانيات الشابات، وكان البث يبدأ عادةً بإذاعة آيات قرآنية؛ وهي فكرة عالم جان إدريس، الذي عمل مستشارًا في قسم الشرق بوزارة الخارجية الألمانية، وكلَّفته وزارة الخارجية بترجمة كتاب كفاحي إلى الفارسية.

لم يقف الحلفاء مكتوفي الأيدي الحلفاء إزاء قضية استخدام القرآن في الإذاعة؛ فقد ردَّت خدمة الـ بي بي سي (BBC) للبثِّ العربي، وقال ستيوارت بيرون، أحد المسؤولين عن البرنامج العربي في المحطة: «بمجرد أن استمعتُ إلى البرنامج في ليلة افتتاح إذاعة برلين، اتخذتُ خطواتٍ في سبيل زيادة عدد تسجيلات القرآن لدينا». وكانت الإمبراطورية البريطانية في موقف قوة يسمح لها بتوظيف صفوة قُرَّاء العالم الإسلامي.

هكذا استخدم الحلفاء المشاعر الدينية أيضًا في الحرب؛ فقد بدا الإسلام تهديدًا محتملًا كما يوضح الكاتب؛ فكان ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا في زمن الحرب العالمية الثانية يُشدِّد في أوائل عام ١٩٤٢ على أن بريطانيا يجب ألا تقطع صلاتها بالمسلمين؛ أيًّا كان السبب. ودشَّنت بريطانيا برنامجًا مكثفًا لتعزيز العلاقات بين الإمبراطورية والعالم الإسلامي بعد اندلاع الحرب، وافتتحت السلطات البريطانية مسجد شرق لندن المركزيّ. وأدركت واشنطن أهمية الإسلام، وتساءلت جريدَة يومية أمريكية بقلق قائلة: «من سينال دعم المسلمين في الحرب الأوروبية؟» وبمجرد وصول القوات الأمريكية إلى أراضٍ إسلامية وضعت السياسات والبروباغندا الإسلام في اعتبارها مرارًا؛ ففي عام ١٩٤٣ وزَّع الجيش الأمريكي كتيبات دينية تدعو إلى الجهاد ضد قوات

رومـل الألمانيـة، وبذلـت لنـدن جميع مـا في وسـعها؛ لتيسـير الحج في سـنوات الحـرب، وأعلنـت عـن هـذه الإجـراءات بحماسـة لا تخلو من دعائية.

وفـي الختـام؛ كما يعبِّر الناشـر في مقدمـة الكتاب، التاريـخ يُقرأ على خلفيـة الحاضـر وفي معيَّته، وهكـذا نلمح أهمية اسـتحضار علاقة الدين بالسياسة؛ لنفهم دور الحشد الديني في العلاقات الدولية، حتى المشاهد المتناقضة تبدو لنا مفهومة في سـياقها البراغماتي والسياسي. ويمكن عدُّ تاريخ سياسة الإسلام في الحرب العالمية الثانية جزءًا من قصة أوسع عن محـاولات القـوى غيـر المسـلمة اسـتخدام الديـن الإسـلامي لأغـراض سياسـية وعسـكرية. والمثال الشـهير هو الصراع في أفغانسـتان في سياق الحـرب الباردة بين الروس والأمريكان؛ وهكذا يوسِّـع الكتاب من نطاق فهمنا للعلاقة المعقدة بين الإسـلام والعلاقات الدولية والنظم السياسية؛ فالديـن كان حاضـرًا فـي السياسـة الدولية منـذُ الحرب العالميـة الأولى، وقبل نشوء الحركات الإسلامية، وتجلَّى ذلك في الحرب العالمية الثانية.

(٢٩) إقلاع وهبوط:
سيرة طبيب من رأس بيروت

يتطلَّع منير شمَّاعة حوله، ويرى أصدقاءه في عمر الشيخوخة يسجِّلون ذكرياتهم وسير حياتهم؛ ففي البناية التي يسكنها كَتب يوسف سلامة مذكراته، وكتبت صديقته جين مقدسي قصتها في **شتات بيروت** عن الحرب الأهلية اللبنانية، وكتب صديقه وزميل دراسته هشام شرابي سيرة حياته: **الجمر والرماد**. وهناك سبب آخر يدفعه لكتابة مذكراته؛ وهو أن الإنسان في عمر الشيخوخة تتقلص نشاطاته، ويبدأ الفراغ يلعب بالأعصاب، ولتفادي هذه الآفة يلجأ لكتابة سيرة حياته.

ولد منير شمَّاعة في السادس من مايو / أيار ١٩٢٨، وفي صباه كان يتصفَّح مجلة **لسان الحال**، و**اللطائف المصورة**، فوجد أن السادس من مايو / أيار هو ذكرى المذبحة التي ارتكبها جمال باشا، وكان ممن أعدمهم بيتر باولي، وله مسكنٌ في الشارع نفسه الذي يسكن فيه الكاتب، وكان احتفاله بمولده يذكِّره بالمشانق؛ لذلك بدَّل تاريخ مولده إلى يوم ٢١.

قصة منير شمَّاعة بسيطة وصادقة؛ هو طبيبٌ نال شهادة الطب، وعمل في السعودية فترة بسيطة، ثم سافر إلى أمريكا، والتحق بأحد المعاهد المرموقة التابعة لهارفارد، وعاد إلى بيروت وعمل طبيبًا، وألقى المحاضرات في الجامعة الأمريكية في بيروت، واتصلت أسبابه مع أحد

الأمـراء من آل سـعود، وأصبح طبيبًـا للعائلة المالكة، وعالـجَ العديد من الرؤسـاء والسياسيين، وعاش في لبنان في فترة الحرب الأهلية، وتعرض للخطـف ذات مـرة، حتـى يبادله خاطفوه بشـخص في الكتائـب اللبنانية. هذه أبرز أحداث الكتاب، عندما انتهيت منه جلسـتُ أفكر لماذا أعجبتني قصتـه؟ الإجابة بسـيطة: الصدق في الكتابة عن النفس، وهو تفسـيرٌ صار لكثـرة اسـتخدامه مبتـذلًا، ولا يوفِّي معناه الحقيقـي. الكاتب يتناول قصة حياتـه، ويكتـب بيانًـا عن نفسـه مُفسِّـرًا دوافعـه وأفـكاره، ولا يخجل من إظهـار ضعفـه أحيانًـا، أو الإعـلان عـن أشـياء يراهـا النـاس غايـةً فـي الخصوصية، مع القليل من الاعترافات التي تعطي السيرة نكهةً وتوابل.

يحكي لنا منير عن علاقته بالقوميين العرب في بيروت، وكيف تعرَّف إلـى الحكيـم جورج حبش، وكانت صداقته في البداية مع حبش عادية لم يتخللها حديثٌ سياسي؛ كانا يتناقشان في مواضيع دراسية في كلية الطب أو يستمعان إلى الموسيقى، ثم وقعت كارثة ١٩٤٨، وسافر جورج حبش إلى فلسـطين، وعندما عاد أخبرهم بالمسـيرة الطويلة من بلدته اللِّد، وهو يحمل على كتفه طفلة شـقيقه التي ما لبثت أن فارقت الحياة، وما هي إلا أيـام حتـى انضـم جورج حبـش إلى «كتائـب الفـداء العربي» التـي كانت تتدرَّب على حمل السـلاح. لا ينسى منير جلساته مع جورج حبش، وهو يـردد بتأثـر عميق: «يا منيـر، إنني من اللِّد، وأريد الرجـوع إليها بأي ثمن؛ هذا حقٌّ بسيط لأي إنسان في وطنه».

تعـرَّف الطبيب منير شـمَّاعة إلى رفاق جورج حبش؛ مثل وديع حداد الذي كان أحد مؤسسـي «الجبهة الشـعبية لتحرير فلسـطين»، والمسـئول العسـكري البارز الذي أزعج إسرائيل كثيرًا بعملياته الجريئة، مثل خطف

الطائرات. سافر منير إلى الجزائر ليعالج وديع حداد؛ وكان التشخيص المبدئي أنه مصاب بسرطان في غدة البنكرياس، ثم أثبتت الفحوصات خُلوه من السرطان، وكان منير يشكُّ في أن وديع سُمِّم بالزرنيخ، وتحدَّث مع هاني الهندي، وأخذ عيِّنة من شعر وديع حداد للتأكد من الأمر، وبالرغم من أنه لم يجد أثرًا لمادة الزرنيخ في العينة؛ إلا أنه يعتقد أن وديع حداد مات مسمومًا. كانت مشاعر منير شمَّاعة تميل به إلى الارتباط بـ «الجبهة الشعبية» من خلال جورج حبش ووديع حداد وهاني الهندي، وقد وفَّر المساعدات المالية لهم كلما أُتيح له ذلك، وتحمل عقبات ذلك؛ مثل المنع من دخول السعودية عدة سنوات، وكذلك المنع من دخول الأردن.

يحكي منير شمَّاعة في سيرته أنه كان يرى نفسه في مراهقته وبداية الشباب في غاية البشاعة، ولا يستطيع جذب الجنس اللطيف نحوه، وفي يومٍ حاول مغازلة فتاة فقالت له: «يا منير، إنت ذكي ومهضوم، بس يا ريتك كنت أحلى من هيك»، وهذه الحادثة تركت في نفسه أثرًا وجرحًا نرجسيًّا، وأخذ وقتًا حتى يجدد ثقته بنفسه. يستعرض لنا منير تكوينه النفسي ونظرته للمرأة، وعندما حاولتُ معرفة سبب إعجابنا بالسيرة، التي يقول صاحبها ما يخفيه الإنسان عادةً عن حياته الخاصة، أرجعتُه إلى غريزة التلصُّص. نحن نحب أن نرى ذلك الطبيب المهاب، وصاحب الشأن يعاني مثل الآخرين، ويحتال، وأحيانًا يعترف بلهوه البريء وغير البريء، وبسعيه الحثيث وراء المرأة؛ ليستعيد ثقته بنفسه، وليثبتَ لنفسه أنه وسيم، وليس دميمًا. وهذا الفصل لا يمكن تلخيصه: هي حكايات تقرأها، وتفكر فيما يطرحه فيها؛ فهو مثلًا يحلل مفهوم الحب وهو في

عمر السبعين، ويعترف بأنه يجهل تعريف العشق، ولم يختبر هذا الشعور طيلة حياته.

يشاركنا الكتاب أسئلته التي أرَّقته وفكر فيها؛ مثل سؤال الإيمان بالله، وسؤال: هل هو مثقف أم لا؟ وتساءل كثيرًا عن الطبيعة البشرية، وهل هو طيب ومحب وكريم، أم أن هذه الصفات قشور تغطي بعض العيوب لديه؟ والتساؤل الذي فكر فيه كثيرًا: هل له ثمن يمكن أن يُشترى به ويباع؟ ويشرح لنا الأجوبة التي فكر فيها، ولا أريد أن أنقل الإجابات؛ فهي تشرح شخصيته بشكل أوضح عندما نقرأها في المذكرات.

من الفصول الممتعة في الكتاب قصة الكاتب مع السعودية، وعمله فيها طبيبًا عام ١٩٥٢ في شركة الأنابيب الأمريكية التابلاين، ومعاناته في العمل مع الأمريكان ومن عجرفتهم، والمرحلة الثانية التي تعرف فيها على بعض الأمراء، وفي السعودية أسلم بسبب عبارة من رجل بدوي؛ فلقد جاء الرجل البدوي بابنه المريض، وعندما فحصه الطبيب وجده جثة هامدة، وأبلغ الأب، فما كان من الأب إلا أن قال: «الحمد لله». وتعجب منير من هذه الكلمة في تلك اللحظة الحرجة، وردَّد الرجل عبارة: «الحمد الله الذي لا يُحمد على مكروه سواه»، وقال منير: ماذا قلت؟ فأعاد الرجل البدوي العبارة، وسأله: «من أين لك بهذا القول؟» وانبهر بالعبارة، وترقرقت عيناه، وأسلم. كان منبهرًا بالدين الإسلامي، وكيف يعالج مصيبة الموت بهذا الرضا والتسليم.

أما قصة تعرُّفه إلى الأمراء؛ فلقد كانت تزوره سيدة فقيرة للعلاج، وكان يهتم بها، ثم ذهبت تلك السيدة لطلب الصدقة في شهر رمضان من

بيت الأميرة السعودية أم خالد، زوج الملك سعود بن عبد العزيز، التي كانت تصطاف في لبنان. وأبلغتها الأميرة أنها مريضة، وأن عليها العودة لاحقًا، وكان رد السيدة البسيطة: «بيوجعك بطنك، وما شفتي الدكتور شمَّاعة بعد؟ هيدا بيعمل عجايب». وتعجبت الأميرة من هذا الاسم لطبيب مغمور، وهي تُعالج على يد أشهر أطباء بيروت، وطلبت السفارة السعودية منير، وذهب إليهم، وتوطدت العلاقة بينه وبين الأسرة، وسافر إلى الرياض ليعالج الملك سعود. وفي شهر واحد انتقل من طبيب مبتدئ إلى طبيب يعالج الملوك، وكما يقولون باللهجة اللبنانية: «كرَّت المسبحة». يصف لنا منير شخصية الملك سعود وكرمه، واختلاف شخصية الملك فيصل الذي عالجه بعد ذلك؛ فالملك فيصل كان رجلًا كتومًا قليل الكلام، مواعيده صارمة، ولا يدخل في نقاش مع طبيب إلا فيما يتعلق بمشاكله الصحية، ولا يزيد في الأجرة عن الفاتورة إلا ساعة رولكس تكون هدية. على عكس الملك سعود الذي أعطاه من الهدايا الكثير، وبعد معاينة الملكين ذاع صيته، وتعرف عليه الكثير من الأمراء؛ مثل الملك عبد الله بن عبد العزيز، والأمير سلطان وغيرهم.

عاش كاتبنا حياة غنية بعلاقاته الإنسانية؛ فهو يصف لنا حياته في أمريكا، وتغير حياته بعد هزيمة ١٩٦٧، وحبه للقضية الفلسطينية، وكرهه للطائفية، ويشرِّح في لفتات من النقد الذاتي القاسي الشخصية اللبنانية، ويحكي قصة اختطافه بأسلوب جميل ومؤثر، وكيف تغيرت نظرته للحياة بعد خطفه، وتدُّخل الشيخ فضل الله لإنقاذه من الخاطفين، والعديد من الحكايات الأخرى التي يقرأها القارئ، ويفكر مع الكاتب فيها مثل حديثه عن الشيخوخة.

أتاح عملُ منير شمَّاعة في الطب له الاحتكاك بالبسطاء من المرضى، وكذلك معالجة ذوي الشأن من المسئولين والسياسيين، وهذه المهنة جعلته يرى الإنسان على حقيقته العارية دون غطاء؛ فالملك والوزير والقائد وغيرهم من أصحاب القرار إذا تعروا يصبحون كغيرهم من الناس، وينقلبون من رجال يصعب الوصول إليهم إلا بعد عناء، وحواجز إلى أناس عاديين، وتُنزع الأقنعة التي يستتر بها الإنسان، وتظهر مخاوفه، وترى أن الرجل المهم الذي يبدو لنا كالحصن المنيع أو الجبل الشامخ؛ ما هو إلا إنسان يضحك ويخاف ويتألم، ويقلق من المجهول، وينصاع كالتلميذ الطائع للمعلِّم. ومن الطريف أن تكون طبيبًا لشخصيات بعضها لم يغيِّرها المنصب، وبعضها مثل رئيس عربي سابق شعر بالاكتئاب؛ فنصحه الطبيب منير شمَّاعة بمطالعة كتب التاريخ في مكتبته الفخمة؛ فردَّ عليه بسخرية واستخفاف: «يا ابني، أنا لا أقرأ التاريخ، أنا أصنع التاريخ!»

(٣٠) لورنس العرب: صناعة الأسطورة

كُتب عن توماس إدوارد لورنس المعروف بـ «لورنس العرب» الكثير من الكتب والدراسات؛ بين يدي كتاب بعنوان: **مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب ١٩١٦-١٩١٨**، للكاتب الأمريكي لويل توماس. الميزة الأساسية في كتاب لويل أنه من أوائل الكتب التي أسهمت في تحويل لورنس إلى أسطورة.

لا نستطيع سرد قصة لورنس في البلاد العربية كلِّها؛ فهي قصة طويلة، وهي حكاية الصراع بين الأتراك والشريف حسين، وتخلل ذلك تعقيدات إدارية واستعمارية كثيرة؛ سواء داخل الإدارة الإنجليزية التي كانت في تنافس مستمر حول من يتولى إدارة ملف المنطقة العربية بين مكتب الهند الذي يبغضه لورنس، ومكتب القاهرة، وتداخلت هذه الصراعات مع نقاشات مستمرة حول تقاسم النفوذ الفرنسي، والحديث عن تخطيط وتقسيم المنطقة؛ نتوقف هنا عند شذرات من حياة ذلك المغامر.

كثير من الأدباء يؤمنون بسحر البحر، وشاعرية هذا الأفق الأزرق؛ لكن التأمل في هؤلاء الغربيين الذين جابوا الأراضي العربية في بداية القرن العشرين، يجعلك تفكر في أثر سحر الصحراء عليهم، وكيف جذبتهم تلك الرمال الصفراء، وحياة هؤلاء البدو. نجد ذلك عند مرمدوك بكثال الذي رُشِّح لوظيفة لورنس قبله، لكن التوظيف لم يتم بسبب ميله إلى الأتراك، وكيف سحَرته بلاد الشام وفلسطين، ورأى فيها، مثل أبناء

جيله، المكان الذي جرت فيه أحداث العهد القديم، وسار فيه المسيح. سحرٌ ما جذب محمد أسد؛ ليظمأ في هذه الصحراء، ويلتقي ابن سعود، وشيءٌ من الفتنة في تضاريس هذه البلاد جعل فيلبي يترك الإدارة البريطانية، ويعمل في تلك المناطق، ويكتب الدراسات الجغرافية عن تلك الأرجاء، ولا ننسى مسز جيروترد بيل صانعة الملوك، وصديقة فيصل بن الحسين؛ كل هؤلاء اندمجوا في هذه البلاد، ولعل قدرتهم على صناعة أحداث التاريخ سحرتهم، وجعلتهم يشعرون بأنهم قادرين على التأثير.

نتأمل هنا أثر كتاب لويل توماس على لورنس، وكيف عاش حياته بعد عودته من البلاد العربية. ألقى لويل توماس محاضرة في الرابع عشر من أغسطس/ آب ١٩١٩ عن لورنس العرب، ثم نشر هذا الكتاب في عام ١٩٢٤. عمل لويل توماس مراسلًا حربيًّا في الشرق الأوسط إبان الحرب العالميَّة الأولى، وقد رافق لورنس العرب في الأردن وسوريا، وتحدث معه في القدس، وشهد بعض المعارك والحملات والأحداث معه.

حرص لويل توماس في مقدمة الكتاب على الرد على شائعة اعتناق لورنس الإسلام، ويقول إن مصدر تلك الشائعة هو الخيال؛ فبعد صحبته لورنس تأكد له أنه لم ينبذ المسيحية قطُّ. يصف لويل توماس اللقاء الأول مع لورنس العرب في القدس بعد دخول الجنرال اللنبي إليها؛ فقد كان يرتديَ الزي العربي، ويرتدي عقالًا وكوفية وعباءة، ويضع في حزامه خنجرًا قصيرًا معقوفًا. والكتاب نموذج للكتابة الاستشراقية التقليدية؛ فهناك استحضار للحروب الصليبية، وأن هذه البلاد العربية مسرح أحداث **ألف ليلة وليلة**، ورغبة في تحويل لورنس إلى بطل خارق.

جمع لويل توماس العديد من الصور الفوتوغرافية من الشرق الأوسط، وراح يلقي المحاضرات ويعرضها في لندن، ويضفي على حياة لورنس العرب ذلك البعد الأسطوري، وكونه إنسانا متميزًا، وكانت هذه المحاضرات، عند لويل توماس، ينبوعًا ماليًا لا ينضب. نأي لورنس بنفسه عن الضجة المثارة حوله، وأثارت محاضرات لويل توماس غضبه. ولمَّا كان لورنس عَزوفًا عن التحدُّث إلى الصحافة؛ فقد أسهم دون قصد منه في تكريس هذه الصورة الغامضة عن نفسه، وترك الألسن تتداول الإشاعات بلا انقطاع، ورفض إجراء مقابلات صحفية عن حياته. أسهمت محاضرات لويل توماس في صناعة هذه الأسطورة الرومانسية؛ حيث جعل لورنس ملكًا غير متوج للعرب. وفي غضون بضعة أشهر، حضر أكثر من مليون شخص عروض توماس، وحُوِّلت حياة لورنس العرب إلى أسطورة، وظلَّت الصحافة تلاحقه. حتى عند انتهاء مهامه في الشرق الأوسط، عكرت الصحافة عليه مباهج الحياة. يروي لنا هنري لورنس في كتابه **المغامر والمستشرق** أنه في عين اللحظة التي تكفُّ فيها الأوساط الرسمية عن الإنصات إليه سياسيًا، يصبح فجأةً شهيرًا، ويصبح لورنس العرب مشهورًا؛ وبهذه الصفة يمكن عدُّه واحدًا من أوائل مخلوقات وسائل الاتصال الجماهيري أو ضحاياها. وفي الأشهر التالية ينسحب لورنس، ويواصل تأليف كتابه **أعمدة الحكمة السبعة**.

في الثاني والعشرين مارس/ آذار ١٩٢٢ قدَّم لورنس العرب استقالته. وبرغم مناشدات تشرشل له، يصر على موقفه. ولن يعود لورنس إلى أي بلد عربي حتى وفاته، وتبدأ الصحافة في ملاحقته؛ أضاعت عليه ملاحقات الصحافة فرصة العمل في القوات الجوية التي يهواها، وتعيَّن

عليه أن يفرَّ من فضول الصحفيين؛ ففي عام ١٩٢٢ عاد إلى العمل في صفوف القوات المسلحة باسم مستعار (شو)، وحين تعرَّف الناس على حقيقة الشخص المتخفِّي تصاعدت كثافة الإشاعات، وتعيَّن في عام ١٩٢٨ نقل لورنس إلى وزيرستان في الهند التابعة للتاج البريطاني؛ أي إنه نُقل إلى المنطقة الحدودية المجاورة لأفغانستان، وعندما تسرب الخبر إلى الإعلام، كان بوسع الناس قراءة خبر مفاده «لورنس العرب في مهمة سرية؛ يكافح ضد الناشطين الحمر في البنجاب، ويتقمص هيئة رجل دين يرقي ويشفي المرضى». وحين اندلعت الثورة في أفغانستان فعلًا بعد وصول لورنس إلى الهند، وتطايرت الشائعات - اضطر البريطانيون إلى سحب لورنس من هناك، وهو الذي لم يشارك في أية مؤامرات؛ بل كان يترجم في ثكنته النائية إلياذة هوميروس من جديد من اللغة اليونانية القديمة، وعندما عمل في وظيفه تابعة لوحدة القوارب السريعة المكلَّفة بانتشال الطيارين عند سقوطهم، نشرت صحيفة صنداي كرونيكل المقالات عن مهمته وشوَّشت على عمله.

هكذا كان لورنس العرب أحد ضحايا لعنة الشهرة والصحافة، وأسيرًا للحظة توهجه تحت شمس بلاد العرب الحارقة. حتى حين فارق السياسية، وانهمك في ترتيب بيته الريفي، وقيادة درَّاجته النارية، وتحسَّنت حالته النفسية؛ وجد اسمه في المؤامرات الدولية؛ فالفرنسيون يظنون أن له يدًا في جميع الانتفاضات المعادية لهم بسبب كراهيته القديمة لهم، والسوفييت يذكرون اسمه في محاكمات موسكو، وتركيا الكمالية تتهمه بتنظيم مؤامرة إسلامية. يضطر للاختباء في لندن، ويطلب من الصحافة أن تتركه وشأنه، ويرفض العروض لتولي أي مناصب سياسية في بلاده،

وهكذا بعد انتهاء الحرب والدبلوماسية، يبحث عن ذاته في مجال الأدب والكتابة، ويتواصل مع الأدباء؛ مثل برنارد شو، وتوماس هاردي، ويكون بينهم مراسلات؛ كأنه يحاول أن يفهم ذاته بالكتابة، ويحلل تجربته الشخصية؛ فهو يحلم بكتابة كتاب جبار على حد وصفه، ويستعير عنوانه من آية في التوراة «الحكمة بنت بيتها، نحتت أعمدتها السبعة».

الولع بالسرعة الفائقة والطيران كان من الأمور التي فتنت لورنس، وهو الذي انكسرت ترقوته في إحدى مرات الهبوط من الطائرة. سواء كانت السرعة في السياسة، أم في الحياة اليومية؛ فقد دأب على قيادة أحدث الدراجات النارية السريعة، وتُوفِّي لورنس بسببها في الثالث عشر من مايو/ أيار ١٩٣٥؛ أي في السادسة والأربعين من عمره؛ بعد سقوطه من دراجته النارية، وبعد أن حفر مكانه في تاريخ المنطقة رمزًا للتدخل البريطاني في ثورة الشريف حسين. حضر الجنازة أبرز رجالات إنجلترا؛ ومنهم ونستون تشرشل، وأرسل الملك جورج الخامس رسالة إلى أخيه الأصغر قال فيها: «إن اسم أخيك سوف يحيا في التاريخ، ويعترف الملك ممتنًا بأهمية خدماته لبلاده، ويأسف لمأساة نهاية كهذه لحياة كانت ما تزال ثرية بالوعود».

وبين عامي ١٩٣٥-١٩٣٩ يكتشف الجمهور كتابه **أعمدة الحكمة السبعة**، وينجح الكتاب، وينتشر بين الناس، وهكذا تسهم نصوصه في تجديد حضوره على الساحة الأدبية والفكرية بعد موته. وقد أسهمت هوليوود في استمرار أسطورة لورنس العرب عندما أنتجت عنه فيلمًا؛ شارك فيه: بيتر أوتول، وعمر الشريف، وأنطوني كوين.

هكذا ظلت شخصيته العجيبة رمزًا لعالم الجاسوسية، والمؤامرات السياسية، وفتنة الغرب بالشرق المتخيل. ولعل منبع فرادته كان بسبب بحثه عن ذاته وسط البلاد العربية، وكان قبل قدومه إلى بلاد العرب يحلم باجتراح مآثر عظيمة؛ فهو ابن غير شرعي لأحد الأرستقراطيين، وكان اندماجه مع القضايا العربية عميقًا. ولعل الأسطورة نشأت بسبب غرابة أطواره؛ فكلما بحث فيها الكاتب؛ بل المحلل النفسي، وجد فيها مادة للتأمل؛ فهو المثليُّ الذي عاش تجربة الاعتداء والاغتصاب في أثناء حياته بين العرب؛ كما حدث معه في درعا، وهو العَزوف عن النساء والعلاقات الجسدية، ونلمح بين نصوصه ميولًا مازوخية، وهو المؤمن بفكرة الصليبي الأخير، والمولَع بالعصور الوسطى، وصاحب الأسلوب الأدبي المميز باللغة الإنجليزية، وعاشق الكتب، والأثري الذي ينبش في آثار المنطقة، والمهتم في أطروحته للماجستير بأثر الحروب الصليبية على العمارة الأوروبية، هكذا كانت مقومات شخصيته تجدِّد أسطورته كل فترة، وكما يقول هنري لورنس: «لأن لورنس العرب كان بالدرجة الأولى إنسانًا وحيدًا؛ فإن أسطورته اليوم تفتن ملايين الناس».

(٣١) في رثاء أدباء الأمس:
ماهر شفيق فريد وزمنه المفقود!

«كتبتُ ما يجده القارئ هنا؛ لا جريًا وراء أصفر رنان، ولا التماسًا لمنصب أو نفوذ، ولا دفعًا لضرر أو استجلابًا لنفع؛ وإنما كتبت عن محبة للأدب راسخة - يرفدها التزام خلقي عميق» - ماهر شفيق فريد، مقدمة كتاب **تُساعية نقدية**.

في مقدمة ترجمة الدكتور محمد عناني لكتاب **الاستشراق** لإدوارد سعيد، يشكر عناني صديقه ماهر شفيق فريد، ويصفه بقوله: «لا بد أن أسجل بالعرفان شكري لصديق العمر العلامة والناقد الكبير والأديب ماهر شفيق؛ الأستاذ في قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة؛ فهو حجة هذا الجيل في الدراسات الأدبية، والنقدية ... خصوصًا لتشجيعه لي على المُضيِّ في الترجمة، وتحمُّل مشاقِّ هذا النص العسير». هذا الثناء يتكرر من د. محمد عناني في مقدماته لترجمات مسرحيات شكسبير؛ ففي ترجمته لمسرحية **يوليوس قيصر** لشكسبير؛ يقول: «واستشرت صديقي ماهر شفيق عن جدوى كتابة ترجمة جديدة لهذا العمل، وطلبت أن يقطع لي برأي؛ فهو مرجع أستند إليه في شئون الأدب الإنجليزي الحديث والأدب المقارن والترجمة جميعًا، وهو ناقد ذو إحاطة موسوعية لا تتأتى للكثير من أبناء هذا الجيل». وشعرت بالفضول للنبش في حياة الناقد المختفي عن الحياة الأدبية في مصر؛ خصوصًا أن الاسم عاد إلى

ذاكرتي في شهر ديسمبر / كانون الأول العام الماضي بعد فوزه بـ «جائزة الشيخ حمد للترجمة» عن مجمل إنجازه الأدبي والثقافي في حقل الترجمة.

ثم أخذت أتذكر علاقتي به، وكان لقائي به أول مرة وأنا طالب في جامعة طنطا؛ حيث قُدِّم لمناقشة أحد رسائل الماجستير عن إليوت؛ وبالطبع عقَّب على الطالب، وتصحيح العديد من أخطائه، لكن من أطرف التصحيحات هي أنه عاتب الطالب الذي قدم رسالة الماجستير على عدم عودته للعديد من الكتب المترجمة عن إليوت، وأمسك ببعضها وهو متعجِّبٌ؛ اقتربت منه بعد المناقشة ولم نتحدث، تكلمت مع صديقه محمد عناني الذي كان يتحدث عن قراءته كتاب صلاح عيسى **رجال ريا وسكينة**، وهو يقول عبارة علقت في ذهني: «لو صدر هذا الكتاب في لندن وبالإنجليزية لكانت الحفاوة به أكبر مما احتفى به المثقفون العرب». مرَّت السنوات، وكتبتُ عن ماهر شفيق فريد مقالة عددتُها «صلاة للمنقطعين» الذين لا عَقِب لهم يصلي عليهم، وعرَّفته بنفسي في أحد المؤتمرات التي تهتم بالترجمة، وكانت عبارته اللطيفة أن مقالي عنه كان من أكرم ما كُتب عنه.

راهب القراءة

وُلد ماهر شفيق فريد في الخامس من أغسطس/ آب ١٩٤٤ بحي روض الفرج بالقاهرة، وإن كان أبواه من أصل صعيدي. يعدُّ نفسه سعيد الحظ؛ لأن كل الظروف تكاتفت لتوجهه إلى القراءة والكتابة والتدريس الجامعي. وهو ينتمي للشريحة العليا من الطبقة المتوسطة، ومن ثَمَّ لم

يعرف الفقر الذي يسحق الروح، ويقتل المواهب في مهدها، ولا الغنى الفاحش الذي يصرف الإنسان عن القيام بواجباته، ويجعل اهتماماته محصورةً في الاستمتاع بترف الحياة وملذّاتها.

في طفولته درس في مدرسة مصر الجديدة الثانوية، وكان وكيل المدرسة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد، المترجم الكبير الذي نقل للعربية كتبًا مهمة؛ منها كتاب **معالم تاريخ الإنسانية** ل هـ. ج. ويلز، ومن أساتذة المدرسة الشاعر فاروق شوشة؛ الذي أهدى إلى ماهر شفيق فريد رواية **ليلى العفيفة**، لعادل الغضبان وكتب له إهداءً. بدأ ماهر القراءة المنتظمة منذ سن العاشرة؛ ومن يومها لا يكاد يذكر أن يومًا في حياته غربت شمسه دون قراءة إلا في ظروف استثنائية. قرأ كتاب إبراهام لنكولن الذي ابتاعه في الأول من مارس / آذار من عام ١٩٥٤، وفي فترة لاحقة انجذب لشخصية هانيبال؛ (من خلال كتاب توفيق الطويل: **قصة الكفاح بين روما وقرطاجة**)، وراوده الطموح لكتابة رواية تاريخية عنه، وبعد ذلك، ومن خلال الكتب أيضًا، انجذب لشخصية جنكيز خان ونابليون.

عندما التحق بقسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب، جامعة القاهرة (١٩٦١-١٩٦٥) تعرف على رشاد رشدي؛ الذي وجه اهتمامه لقراءة الشعر الإنجليزي الحديث؛ وإليوت خاصة، وكانت بدايته الحقيقية عام ١٩٦١ عندما بدأ يكتب ويترجم. توجه إلى **مجلة الأدب** التي كان يُصدرها أمين الخولي؛ كانت أول مقالة له عن مجموعة **غرفة فوق السطح** لمحمود البدوي؛ ومنذ ذلك الحين، وحتى توقُّف المجلة، كانت مجالًا رحبًا لتدريبه على الكتابة، وشحذ أفكاره. يراجع ماهر شفيق فريد بداياته،

ويـرى أن مـن حق الكاتب؛ بل من واجبـه، أن يرتكب حماقات كثيرة قبل أن ينضـج ويسـتوي، وقـد غامـر، وهـو طالـبٌ جامعـي، بترجمـة قصائد للشـاعر الإنجليـزي ت. س. إليـوت إلـى العربيـة علـى صفحـات **مجلة الأدب**، والآن يـرى أن الترجمـة القديمة احتوت كمًّا مروِّعًا من الأخطاء، ويقـول عـن نفسـه: «لقـد كان حظي من الحمـاس وقتها يفـوق حظي من العلم»، ويحذر ناقدنا المبجل من الرجوع لترجماته في تلك المجلة، وقد تمكَّـن بعد ذلك، حين ازداد علمًـا ونضجًا، من تصويب الأخطاء؛ وذلك في ترجمته المنقَّحة لأعمال إليوت الشـعرية والنقدية. وكذلك تعرف في سـنوات الجامعـة علـى يحيـى حقـي، وكتـب في **مجلـة المجلـة** منذ عام ١٩٦٣ وهـو طالب في الجامعة، وتعرَّف إلى إدوارد الخراط الذي وجَّهه شطر قراءة الأدب الحداثي، والفلسفة، وعلم النفس.

كان أبـواه متعلِّميـن، وكلاهما خريج قسـم التاريخ، وكانـا زميلين في دفعة الروائي نجيب محفوظ، وأستاذ الفلسفة توفيق الطويل، نفسها؛ دفعة ١٩٣٤، وأتاح له هذا حضور ندوة محفوظ التي كانت تُقام صباح كل يوم جمعـة في كازينو صفيـة حلمي بميدان الأوبرا. وبذلـك بدأ التعرف على الحيـاة الأدبيـة، ومقابلة أدباء؛ كبار مثل يحيـى حقـي، وعبد الحميد جودة السـحَّار، وعلي أحمد باكثير، ويوسـف الشـاروني وغيرهم، وأحيانًا كان يتردد على ندوة الأستاذ العقاد في منزله بحي مصر الجديدة، وعُيِّن بعدها معيدًا في الجامعة، وسافر في بعثة إلى إنجلترا، وقضى هناك أربع سنوات لإنجاز الماجستير.

إذا سـألت ماهر شـفيق عن الفنِّ الذي يمارسـه الآن؛ فستكون الإجابة القراءة؛ فهو قارئ أولًا؛ كاتبٌ في المحل الثاني؛ كما يصف نفسه. القراءة

وما تستتبعه من كتابة هي أهم ما في حياته؛ خاصة أنه تفرغ لها بعد زلازل المراهقة، وعذابات الشباب الجنسية، وإحباطات منتصف العمر، وانقشاع الأوهام مع مقدم الشيخوخة؛ فهو لا يكاد يذكر يومًا من حياته مضى من غير قراءة، إلا لظروف استثنائية؛ كأن يكون مخدرًا من جراحة. غيره يقرأ ليعيش، لكنه يعيش ليقرأ؛ القراءة هي مهربه من تعقيدات الحياة، وهي (على سبيل المفارقة) وسيلته للتغلغل في هذه التعقيدات بعمق. وأخشى ما يخشاه هو فقدان بصره؛ لأنه عند ذلك سيفقد عزاءه الأكبر؛ بل الجزء الأكبر من علَّة وجوده؛ كما يقول عن نفسه.

يشاركنا في أحد كتبه بأفكار يود الكتابة عنها؛ ويقول: إن في مؤخرة عقله يكمن أمل غامض في أن يكتب يومًا ما، عن بعض الموضوعات؛ مثل: السريالية، ومسرح العبث، معنى الحداثة في الأدب، وكذلك بعض الشخصيات؛ مثل أبو العلاء المعري، النفري، شوبنهاور، نيتشه، هنري ميللر، وأدب البورنوجرافيا بعامة، الماركيز دي ساد، إليوت، سان جون برث، وهؤلاء جميعًا خمائر ذهنية (ينقل تعبير سلامة موسى) لا تفارقه في ليل أو نهار. ماهر شفيق مقلٌّ جدًّا في الكتابة الإبداعية، ويجد عنتًا في الكتابة الخلاقة؛ كل إنتاجه من القصص القصيرة بعد التمزيق، والشطب، والمحو لا يجاوز مجموعةً واحده بعنوان: **خريف الأزهار الحجرية** صدرت قديمًا عن «دار شرقيات»، ويعدُّها أهم ما كتب في حياته كلها؛ خاصة القصة الأخيرة المسماة اللابيرنث المظلم.

في رثاء الماضي والقلق من النسيان الأدبي

ماهر شفيق فريد ناقد مصري حتى النخاع؛ أعني بذلك أنه لا يكاد يُخرج رأسه خارج القُطر المصري؛ عندما يحكي عن الأجيال التي

يقدرها؛ يذكر منها طه حسين الذي يصفه بالعظيم، والعقاد الأكثر عظمة، وسلامة موسى، والمازني، ومحمد حسين هيكل، وأحمد أمين، والزيات، وعلي أدهم، وأمين الخولي، وإسماعيل مظهر، وهو يُكِن لهذا الأخير مودةً خاصة؛ رغم أنه لم يلتق به غير مرة واحدة، وكذلك زكي نجيب محمود، ورشاد رشدي، وعبد الرحمن بدوي، وغنيمي هلال، وكذلك لا ينقضي دَينه للويس عوض. وفي فترة شعر بالقرابة الفكرية مع أدونيس؛ هل تعبتم من الأسماء الكثيرة؟ يجب أن تتعودوا فماهر شفيق فريد يشعر بواجب مُلحٌ في ذكر إنجازات المثقفين الراحلين، وما قدموه من أفكار أو جهود ثقافية، وقد يسأل أحدهم: وماذا عن نجيب محفوظ؟ فيرد ماهر: «لم أذكره لأنه بديهي، ولا يحتاج إلى تنويه، لقد سرى منا مسرى الدم في العروق منذ أكثر من نصف قرن».

كل ما سبق هو عتبة لتتعرف على بنيان هذا الناقد المنعزل؛ قد تجد سطورًا متناثرة عنه في سيرة محمد عناني، **واحات العمر**، وهو يصفه براهب القراءة، وأحيانًا تجد سطورًا أخرى في مذكرات ماهر البطوطي، ومذكراته الجميلة **الجيل الرائع: وقائع حياة بين الكتب والفن**، لكن هناك فكرة يستحضرها ماهر شفيق فريد بقوة؛ وهي اختفاء حضور أصوات العديد من الأدباء والنقاد عن عالم القراء الحالي. وأنت تمسك بمجلدات كتب ماهر شفيق فريد؛ والتي يصل السِّفر الواحد منها إلى ألف صفحة أحيانًا، وترى صورة الناقد إليوت على معظم أغلفة كتبه التي صدرت عن «مكتبة الآداب»، و«مكتبة البستاني» - تقبض على تلك النغمة الحزينة التي تتساءل عن اختفاء الأدباء من ساحة القراءة، وتبدُّل الذائقة الأدبية.

هنـاك ذلك الكم الجارف من الأسـماء الأدبية التي يسـتحضرها. وُلد ماهـر عـام ١٩٤٥؛ أي إنـه عاصر عدة أجيـال أدبية. في أحـد فصول كتبه تأتـي تلك العبـارة، عندما يتحدث عن محمد مفيد الشوباشـي، ثم يقول: «أمَـا من أحـد يتذكره اليوم؟» علقت في ذهني تلك العبارة العجيبة؛ لماذا الولع بالسؤال عن حضور أديب أو اختفائه؟ عددتُ الرجل كنزًا يمكن أن نسـتعيد فيه ماضيًا أدبيًّا يندثر، وعصرًا لم أعشـه، ثم تعثَّرتُ بعبارة أخرى، وأنا بين مجلدات كتبه، وتحديدًا في كتابه **قاعة من المرايا**، عندما خصَّص فصلًا عـن الكاتـب والمترجـم محمـد السـباعي؛ والـد الأديب يوسـف السـباعي، تأتـي تلك العبارة الحزينة مرة أخرى: «قـلَّ من الأدباء من كان موضع تقدير الكبار من معاصريه، والجيل التالي له، ثم أصبح نسيًا منسيًّا لدى الجيل الحاضر من القراء؛ مثلما هو الشأن مع محمد السباعي».

وفـي كتابـه **حصـاد القلم** يأتي ذكـر الرافعـي، فيقول: «لقـد انضم إلى صفوف الموتى المبجَّلين في مقابر الأدب، وإن خفَّ إلى بعثه من مرقده، بيـن الحين والحيـن، نقادٌ كبار؛ كالدكتور عبد القادر القط»، وعندما يذكر المنفلوطي يقول عنه: «لقد مات المنفلوطي موتًا طبيعيًّا بالسكتة الذوقية، وربما كانت روايات محمد عبد الحليم عبد الله هي آخر ارتعاشـة لذُبالته المرتجفـة في مهـب الريح؛ إذ تغيَّـر العصر، وتبدَّلت الحساسـية.. وظهر كتَّاب من طراز آخر»، لعل تفسـيره لانتهاء عصر المنفلوطي يصلح إجابةً على تساؤلاته المتكررة عن اختفاء الأدباء من مسرح الأحداث.

وعندمـا يكتـب مقدمـة لكتـاب **الديـوان فـي الأدب والنقـد** للعقـاد والمازنـي، يأتي على ذكر عبد الرحمن شـكري، ويعلِّق قائلًا: «لقد رحل

عن عالمنا في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥٨ مشلولًا وحيدًا معزولًا؛ لا يكاد يذكره أحد، بينما طبَق ذكر زميليه (العقاد، والمازني) الآفاق».

وعندما يبدأ مقالته عن زكي مبارك يبدأ بقضية التقدير الأدبي؛ أحد شواغله في النقد، ويقول: «لم ينل زكي مبارك التقدير الذي يستحقه؛ لا في حياته، ولا بعد مماته»، وهذا القلق من تقدير المؤلفين والانشغال بأثر حضورهم في الوسط الثقافي يشمل أيضًا قلقًا آخر من عدم الاحتفاء بكتابٍ معين؛ ففي مقدمة كتابه **ما وراء النص**، يقول: «أوصي القارئ بالرجوع إلى كتاب الأستاذ أمين روفائيل الذي ترجم فيه أقاصيص من إدجار آلان بو؛ ومن المؤسف أن هذا الكتاب النفيس لم يحدث صدى عندنا؛ كأنه ريشة أُلقيت في قاع هُوة، ولم يكتب عنه سوى محمود تيمور على صفحات **مجلة القصة**، ويوسف الشاروني على صفحات **مجلة المجلة**».

الكتاب النفيس الذي لم يُحدث الصدى الذي يستحقه هو مفتاحٌ لكتب نسيها الوسط الثقافي الأدبي، ولم تتم الإشارة لها أو الاحتفاء بها، وهناك قلق آخر لدى ماهر شفيق فريد؛ وهو الالتفات للزوايا التي لم تلق الاهتمام الكافي في تراث بعض المثقفين؛ فصورة المسيري اقترنت في سنواته الأخيرة بالموسوعة التي عن اليهود والصهيونية، ونقاشاته في قضايا العلمانية والدين، لكن ماهر شفيق فريد يبيِّض الصفحات الكثيرة؛ لكي يكتب عن المسيري ناقدًا أدبيًّا مستعرضًا إسهاماته في مجال النقد الأدبي والترجمة.

بعد فترة من معاودة الإغارة على حدود عالم هذا الناقد، اكتشفتُ

ذلك المفتاح السري؛ تلك الرغبة القوية في الإشادة بالمنسيين في عالم الأدب المصري ونقَّاده وشعرائه؛ إنه، وهو يقوم بعملية النقد، لا يقدِّم وصفًا أدبيًّا لقيمة العمل الفني، لكنه يحمل ذلك السؤال المستبطن: لماذا لم تتم الحفاوة بهذا العمل وتقديره؟ قررت أن ألعب معه لعبة كلما زرت مدينة كتبه المرصوصة على مكتبي؛ أن أجمع هؤلاء المنسيين؛ وهو الكاتب الوحيد الذي حرصت على أن أجمع أعماله الكاملة؛ ولعل السبب الدفين هو أنني مُولَع بالببليوجرافيا، وقوائم الكتب، وأشعر بالنشوة عندما أحصل على عنوان كتاب منسي ومهمل من الحضور الثقافي العربي. أحيانًا يكون هذا الاكتشاف مدعاة للفخر بين الأصدقاء، والإغراب عليهم بنوادر المطبوعات، وأحيانًا ينير لي زاوية مظلمة من زوايا التاريخ الأدبي والثقافي. بهذا الولع الببليوجرافي الذي تملَّكني بعد أن عملتُ فترةً في مشروع بحثي كان يقوم برصد قوائم الكتب، ويُوثِّق الكثير من أسماء المقالات، ثم العمل في مكتبة لبيع الكتب، حيث يكون رأسمالك الرمزي قدرتك على معرفة أكبر كمٍّ من القوائم والكتب وعناوين المؤلفين، رأيتُ في ماهر شفيق بطلي القارئ الفحل الملمُّ بما في بطون المجلات الأدبية من هوامش، فضلًا عن الكتب. متى قرأ كل هذه الكتب التي يستعرضها؟ ثم إنه بعد أن يقرأ يرثي أدباء المدينة المفقودين الذين اختفوا عن الساحة الأدبية، وهو بهذا الولع، في فتح دفاتر الأمس، واستعادة تراث الراحلين؛ يكتب المراثي الأدبية؛ لأنه يتلفَّت حوله؛ فلا يجد الكثير من الأصحاب؛ لذلك يكتب عن سلامة موسى، وعلي أدهم، وأمين الخولي، ويوسف كرم وغيرهم، وكذلك يرثي أستاذه رشاد رشدي، وهو مُدركٌ لكل عيوبه النقدية في سنواته

الأخيرة، ولن أُثقل على القارئ بإيراد كل نماذج تساؤلات الحضور والغياب لدى ماهر شفيق؛ فلدينا ما يقارب ١٨٠ صفحة في كتابه تُساعية نقدية تتناول مراثي الأدباء والمؤلفين واستعادة تراثهم وتجاربهم.

هل قلت إن الببليوجرافيا هي التي جعلتني أحب هذا الرجل؛ وهو الذي شارك في ببليوجرافيا حول ما كُتِب عن نجيب محفوظ بالإنجليزية؟ أحيانًا كنت أفسر تلك الغواية منه بأنها محاولة؛ أزعم أنها يائسة، في الحفاظ على حضور تلك الأسماء القديمة، والتي يبدو أن المناخ الثقافي والساحة الثقافية لم تعُد تنظر إليهم بكبير اهتمام؛ خصوصًا خارج مصر التي فقدت قوتها الناعمة، ومتابعة العرب لما يكتب أدباؤها؛ وحُجَّتي في هذه الفرضيَّة هي رفوف المكتبة التي أعمل بها، وأرى القراء يُقبلون على الكتب المترجمة، ولا يعرفون أسماء الأدباء المصريين؛ سواء من الجيل السابق، أو حتى الجيل الذي يكتب حاليًا.

لقد جمع ماهر شفيق فريد مختارات لإدوارد الخراط، وكتب عن ميخائيل نعيمة، ومي زيادة، ومحمد مصطفى بدوي، وفخري أبي السعود، ووحيد النقاش؛ شقيق الناقد المعروف رجاء النقاش، وغالب هلسا، وسامي خشبة، وغيرهم الكثير، مع إلقاء الضوء على أعمال كاد النسيان أن يطويها، وأصدر مختارات من أشعار، ومقالات مجلة أبولو للشعر. ومَن يذكر أبولو الآن؟! ولن نتعجب من أن نراه يكتب مقدمات الكثير من الكتب التي صدرت في سلسلة «ميراث الترجمة» التي يصدرها المركز القومي للترجمة؛ فيكتب مقدمات لـ سانين ترجمة المازني وغيرها؛ كأن حبه للعودة في دفاتر الماضي جعله باحثًا مُجيدًا للحديث عن ميراث الترجمة.

أُنهي المقال بوصفه الجميل لنفسه وعلاقته بدور النشر الحكومية؛ يقول: «أكره المكاتب الحكومية، الدواليب المعدنية، والأرفف، والأوراق، والتوقيعات، والأختام، ودفاتر السركي، وجوه الموظفين، عقد الموظفات، أقنعة الرؤساء، استخذاء المرءوسين أمامهم، ثم جبروتهم على سبيل التعويض مع أصحاب الحاجات؛ لهذا لم أحاول أن أحمل كتبي إلى «الهيئة المصرية العامة للكتاب»، مع استثناءات محدودة؛ لأني أضنُّ بها أن تضيع في دهاليز ذلك التيه في رملة بولاق.. خير لي أن تبقى كتبي مخطوطة، أو مرقومة على الآلة الكاتبة، أو مطبوعة على الاستنسل في درج مكتبي ـ من أن تبقى في أدراج أولئك القوم؛ جنبًا إلى جنب مع صحيفة اليوم، وسندوتشات الفول، والطعمية، وشغل التريكو».

(٣٢) على بلد المحبوب: حكايات الغلابة في زمن الحرب

ابتعتُ الكتاب من معرض الكتاب في إسطنبول وسهرت معه؛ وهو يحكي تلك القصة التي شدَّتني من العنوان الفرعي للكتاب قصة السفينة زمزم؛ وتبدأ بعد أشهُر قليلة من انتقال الصحفي أحمد خير الدين للعمل، والعَيش في العاصمة الأمريكية؛ حلَّت مئوية ثورة ١٩١٩، واكتشف أنه على بُعد عشر دقائق فقط من مكتبة الكونجرس، وأن الدخول إلى ما يحتويه قسم الشرق الأوسط في المكتبة الأكبر في العالم بسهولة التجول في الحديقة الأمامية للمبنى؛ وجدها فرصة لاكتشاف صحف تلك الفترة ووثائقها.

وفي نهاية بحثه عن مقالات عن ثورة ١٩، قرأ هذا الخبر في أرشيف الجرائد: «وصل إلى القاهرة في الأسبوع الأسبق ٦٦ مصريًا عائدين من ألمانيا، بعد أن قضوا في الأَسر أربع سنوات؛ وهُم من بحَّارة الباخرة (زمزم) التي أغرقها الألمان». عاد أحمد إلى مقعده مرة أخرى، واستأذن أمينة المكتبة في دقائق إضافية. بدا شوقه واضحًا، وهو يُجري نظره على السطور لمعرفة ما جرى لهذه الباخرة، ويتساءل: «كيف لم أسمع بهؤلاء من قبل؟!»

اكتشف خير الدين قصة مشوِّقة؛ تبدأ مع الأسبوع الأول من مارس/ آذار عام ١٩٣٤؛ حينما بدت السويس في أبهى حُلَّة، وامتلأ شارع سعد

باشا بالزينات والبَشَر؛ الذين أتوا ليشهدوا الاحتفال الكبير بوصول طلعت باشا حرب؛ ليفتتح أول رحلة للسفينة زمزم، التي كانت رمزًا للاستقلال الاقتصادي الوطني، وفرح بها الأديب أحمد حسن الزيات، وكتب مقالة عن هذه اللحظة. خفقت الأعلام الخضراء على سواري السفينة، وشعرت الموانئ المصرية المحتلة أن في أحضانها وليدًا من أهلها. عملت زمزم فترة لنقل الحُجّاج، لكنها في الثامن والعشرين ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٠ انطلقت إلى نيويورك، أمّا مصر في ذلك الوقت؛ فقد كانت مشغولةً بمسألة انخراطها في الحرب العالمية الثانية بجانب بريطانيا.

لكن من يسافر في تلك الأيام الخطرة؟ يوضح أحمد خير الدين في كتابه **على بلد المحبوب: رحلة زمزم الأخيرة** الصادر عن دار الشروق، أن الرحلة لم تكن مأمونة العواقب. كانت السفينة تحمل بضائع تجاوزت خمسة آلاف طن؛ معظمها من القطن المصري طويل التيلة الذي اشتراه تجار في بوسطن، أمَّا القسم الأكبر من الركاب؛ فقد بلغ عددهم ١٢٥، أكثرهم فارُّون من مواقع الحرب في شمال إفريقيا، وغيرها من المناطق التي أدرك الجميع أن المواجهات ستنتقل إليها، وأمّا البحّارة؛ فعددهم ١٣٠؛ أكثرهم مصريون.

مرَّت السفينة زمزم بقوس قزح أربع مرات؛ اختلف الركَّاب في تفسير هذه الظاهرة، كان المبشّرون يرونها علامة إلهية على حماية الربِّ لهم من الأهوال؛ فيما خشيَها البحارة لأن أساطيرهم تعدُّها نذير شؤم. مرَّت أيام السفينة هادئة وادعة، بل إنهم احتفلوا برأس السنة لعام ١٩٤١، وأعلنوا تنظيم مسابقة لاختيار ملكة جمال ركَّاب الباخرة. وفي الخامس والعشرين فبراير/ شباط ١٩٤١ وصلت الباخرة زمزم إلى

ميناء نيويورك بعد أن قطعت مسافة ١٢ ألف ميل، ولاح تمثال الحرية من بعيد.

غادرت الباخرة زمزم نيوريورك في طريقها إلى كيب تاون؛ حتى تعود إلى الإسكندرية، اختارت السفينة الطريق الطويل؛ طريق رأس الرجاء الصالح؛ هربًا من المعارك في البحر المتوسط بين ألمانيا وبريطانيا. وطَوال الرحلة أُعتمت غُرف السفينة، وأُطفئت كل أضوائها، وأُغلق جهازها اللاسلكي أيضًا؛ خوفًا من هجوم الألمان عليها. ورغم أن مصر ليست طرفًا في الحرب، لكنها حليفة لإنجلترا.

جاء عيد القيامة في الثالث عشر من إبريل/ نيسان؛ فعمَّت الاحتفالات والأغاني أرجاء زمزم. شارك البحَّارة والطاقم مع الأطفال في ألعابهم، وحكوا لهم عن رحلاتهم مع الباخرة إلى أماكن بعيدة وجميلة. ورغم أجواء السعادة والمرح؛ فقد كانت علامات التوتر بادية على الجميع.

وفي السابع عشر من إبريل/ نيسان، هاجمت المدمرة الألمانية الشهيرة أتلانتس السفينة زمزم؛ وبالتحديد في المسافة بين البرازيل وجنوب إفريقيا، بين ميناءَي رصيفي وكيب تاون. وسمع الركاب صوت القذائف؛ إذ استهدفت القذائف الأُولى كابينة اللاسلكي؛ لمنع زمزم من الاتصال بأي باخرة أخرى، أو طلب الاستغاثة. حاول الركاب إعلان أن زمزم وركابها مسالمون؛ اعتقد الألمان أنها سفينة حربية؛ لأن زمزم عملت ناقلة جنود بريطانية في الحرب العالمية الأولى. وكانت المفاجأة أنه لم يمُت أحد، وبعد غرق زمزم انتشلهم الألمان، وانتقلوا إلى بارجة أخرى حملتهم إلى فرنسا.

ركزت الصحف المصرية في ذلك الوقت على رحلة هروب عزيز باشا المصري ومرافقيه، وتجاهلت خبر غرق السفينة زمزم، الذي ظهر خبرًا صغيرًا بصيغة استفهامية في الجريدة: الباخرة زمزم.. هل غرقت في المحيط الأطلنطي؟

وصل البحارة المصريون إلى المعتقل في ألمانيا، كان الطعام سيئًا؛ يتكون من الجَزَر أو البطاطس المسلوقة. عدَّهم الألمان أصدقاء الإنجليز فلم يُفرجوا عنهم؛ على عكس الأمريكان الذين جرى تسليمهم؛ خوفًا من استفزاز أمريكا؛ مما يعجّل من مشاركتها في الحرب.

لم ينجُ المعتقلون المصريون من الجوع والعري إلا بعد ثلاثة أشهر عن طريق منحة من الحكومتين المصرية والإنجليزية أوصلها إليهم الصليب الأحمر. طُوي عام ١٩٤١، ومعه قصة زمزم، وحين صدر عدد سنويٌّ من الأهرام في بداية العام الجديد، استعرض أهم الأحداث العالمية والداخلية خلال السنة المنقضية، ولم يأتِ على ذكر الحادث سوى اعتراض الحكومة على إغراقها فقط.

تعرض البحارة المصريون لسوء المعاملة؛ عدا الأيام التي تصلهم فيها حصتهم من المؤن عن طريق الصليب الأحمر؛ إذ كان الحراس يقاسمونهم ما يصل إليهم، وكان الحارس إذا أُعطي قطعة صابون فرح بها، وكأنه وهِب منزلًا. وكلَّما طلب الأسرى المصريون إعادتهم إلى مصر، قيل لهم إنَّ ذلك سيحدث بعد دخول الألمان مصر، وتطهير إفريقيا من جنود الأعداء؛ أي الإنجليز والأمريكان!

كانت لحظات صمت وأسى ودموع تسود عنابر المصريين؛ حين

ينطلق صوت أم كلثوم تغني كلمات أحمد رامي وألحان رياض السنباطي: «على بلد المحبوب ودّيني.. زاد وجدي، والبُعد كاويني».

في تلك الأثناء كانت عناصر الجيش البريطاني تتجول بسعادة بين شوارع القاهرة يلتقطون الصور، ويجرِّبون الشيشة في خان الخليلي، أو يلعبون الورق في عوامة على النيل. وفي الرابع والعشرين من إبريل/ نيسان ١٩٤٥ وصلت قوات الحلفاء إلى المنطقة، ودارت معركة كبيرة مع الجيش الألماني؛ تطاير فيها الرصاص داخل المعسكر، واستمرت لأكثر من أربعة أيام. وبعد أن انتهت المواجهات، أطلق الحلفاء سراح الأسرى الذين خرجوا إلى القرى المحيطة؛ ليتمتعوا بالحرية، ويبحثوا عن سُبل العودة السريعة إلى أوطانهم.

لم يهتمَّ أحد على ما يبدو برسائل المعتقلين، وفُوجئ العائدون المصريون عند وصولهم إلى ميناء بورسعيد بمن يطالبهم بالبقاء في الباخرة، والتوجه إلى ميناء السويس أولًا، دون تقديم مسوّغ للك. وفي السويس لم يجدوا أحدًا في استقبالهم أيضًا؛ بل إنَّ السلطات الحكومية طالبتهم بمصاريف عودتهم إلى أرض الوطن.

وحين سأل عن راتبه الذي جُمِّد منذ إغراق زمزم وسط المحيط، ولم يحصل عليه أو يسلَّم إلى عائلته، فُوجئ القبطان جمال عمر، وهو أحد البحَّارة المعتقلين، بخصم نصف المبلغ الذي وصل إلى ٥٠٠ جنيه مصاريف عودة. أمَّا القبطان الإنجليزي ومساعده؛ فحصلا على راتبَيهما كاملَين مع علاوات، وإعانات عن مدّة الأَسر؛ تجاوزت ألوف الجنيهات.

انتهى حديث الصحافة المصرية عن البحّارة، وما جرى لهم باستغاثة حزينة مقتضبة من حسن خليل حسن نيابةً عن زملائه، أرسلها إلى جريدة **المقطم** بتاريخ ٦ يناير/ كانون الثاني ١٩٥١؛ يرجو حكومة الشعب أن تنصفهم بعد عشر سنوات مما جرى لهم.

ورغم عدم تعرض الركاب الأمريكان لسنوات الاعتقال؛ فإنهم رأوا في حادثة زمزم معجزة، ورمزًا للنجاة من الغرق، وخصصوا قسمًا في مكتبة تابعة لكنيسة في شيكاغو للمقتنيات المتعلقة بالسفينة زمزم؛ من رسائل شخصية ومراسلات وكتب وثَّقت الواقعة، على عكس قصة الركاب المصريين الذين جرى تجاهل قصتهم.

سطرٌ واحد قرأه أحمد خير الدين جعله يقضي سنتين في البحث عن مصير ركاب السفينة زمزم المصريين وحياتهم، وتبدو براعة الكاتب في جمعه بين حكاية السفينة، وأجواء العصر، والأحداث التاريخية التي عصفت بمصر في تلك الفترة؛ كأنه يراوح بين السفينة وتاريخ مصر بخفة ورشاقة، وبين حكايات بعض الناجين والأوضاع العالمية في هذا العصر المضطرب. نجح خير الدين في حكاية القصة؛ رغم استعصاء الكتاب على التصنيف الأدبي الواضح؛ فهو ليس رواية ولا سيرة، لكنه يجمع بين اللونين، ويبدو أن هذا التقليد الكتابي الذي يقترب من التحقيق الاستقصائي في التاريخ بدأ يحتل مساحة أكبر داخل المكتبة العربية؛ وهو تَقليد يعتبر أهمّ أعمدته الصحفي صلاح عيسى في تحقيقاته عن ريا وسكينة، وجريمة قتل مدام فهمي، وبحثه عن خُطّ الصعيد في عهد الاحتلال، ومؤخرًا رأينا كتاب إيمان مرسال المعنون: **في البحث عن عنايات الزيات**؛ يجمع خيوط قصة كاتبة انتحرت، ويولِّف بين سيرة

المؤلفة، وقصة الراحلة، وكذلك كتابات محمد شُعير؛ مثل **أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرمة**.

كتـاب **فـي بلد المحبوب** هو الكتاب الثالث لأحمد خير الدين؛ سـبقه كتـاب **بعلـم الوصـول**، وهو كتاب مميز جمع فيه رسـائل من شـخصيات مصريـة فـي عصـور مختلفـة؛ مـن عهـد الاحتـلال البريطانـي إلـى فتـرة السـبعينيات، واسـتنطق تلك الرسائل لترسـم لنا صورة عن هموم العصر الـذي كُتبـت فيـه؛ كأنَّ خيـر الديـن مشـغول في كل مـا يكتـب بحكايات المغموريـن والبسـطاء الذين صمت عنهم التاريـخ؛ لأن الرواية التاريخية تفـرد صفحاتهـا لحكايـا العظماء، وتتجاهـل الناس؛ لذلـك كانت حكاية السـفينة زمـزم رمزًا لحكايـات المدنيين في الحروب، وكيـف أن تقلبات هـذه الحـرب العالميـة الكاسـحة ازدرت سـيادة الـدول، وأنكـرت حياد مواطنيهـا الذيـن طالتهم خلال مسـاراتها؛ بحَّارة يُعتقلون في معسـكرات نازية، وحرب عالمية تُلقي بظلالها على مصائر الناس، وصحافة مشغولة بالأخبار المحلِّية، ومعتقلون لا تَسأل عنهم حكومتهم.

(٣٣) مطامح جورج مقدسي وأقداره:
تعليمٌ استثنائيٌّ لأمريكي من أصولٍ شاميَّة

على الرغم من صغر حجم سيرة جورج مقدسي، فإنني استمتعتُ بها بترجمة جميلة للدكتور أحمد العدوي؛ فقد كانت السيرة موجزًا لحياة هذا المؤرخ والمستشرق الفحل، يروي فيها قصة حياته بأسلوب سلس وممتع؛ إذ هاجر والده أبراهام مقدسي إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٣، قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة. خرج مقدسي الأب إلى الولايات المتحدة من منطقة حلبا القريبة من طرابلس، وكانت لا تزال منطقة سورية، لكنها مع الانتداب الفرنسي أصبحت جزءًا من لبنان، وهكذا هاجر أبواه إلى الولايات المتحدة بوصفهما سوريَّين في البداية، لكن وبعد ما يقرب من ربع قرن عاشا في الولايات المتحدة بوصفهما لبنانيَّين.

وُلد مقدسي عام ١٩٢٠، وفي طفولته في أمريكا يتذكر أفلام لوريل وهاردي، وكذلك بعض ملامح حقبة الانهيار والكساد العظيم الذي أصاب اقتصاد الولايات المتحدة، وسماعه همس الناس باسم عصابات اليد السوداء، وحكايات تهريب الويسكي المجلوب من كندا بين وندسور وديترويت، خصوصًا أنه في تلك الفترة أُقِرَّ قانون حظر الخمر.

تلقَّى مقدسي تعليمه الأوَّلي في ديترويت، لكن الأُسرة عادت من الولايات المتحدة إلى لبنان عام ١٩٣٠ في عطلة دامت سنوات، وفي

لبنـان تعلَّـم جورج اللغتين العربية والفرنسـية، إلى أن تفوَّق وحصل على شهادة الدبلومة، لكن أُسْرته تعرضت لأزمة مالية جعلته يتوقف لمدة عام عن التفكير في الذهاب إلى الجامعة. أخذ في هذا العام يغرق في التعليم الذاتي، وانهمك في قراءة الأعمال الكلاسيكية الفرنسية من القرن السابع عشـر، إضافة إلى شِـعر المتنبي الذي أُغرم به وحفظه عن ظهر قلب. وقد عشـق مقدسي الأدب الفرنسي، خصوصًا مسرحيات موليير، وكذلك قرأ لكورنيل وراسـين ولافونتين. ويخبرنا مقدسي عن قوة ذاكرته التي مكَّنته من اسـتعادة عناوين تلك الكتب التي قرأها وهو فتى، وسِـرُّ ذلك أن فتاة جميلة من جيرانه أعارته هذه الكتب فاحتفظ بهذه الذكرى.

في تلك الأثناء كانت أُمّه تشـجعه طيلة تلك السـنة الدراسـية المرحة، فلم تفتأ تؤكد له قيمة العلم بقولها: «العلم يا بُنيَّ، العلم». وكان مقدسـي يجد السـلوى آنذاك في إنشـاد الشِّـعر بصوت جهوري في أثناء العمل في فلاحـة الأرض، وفي ذلك العام تعرَّف على كتابات جبران خليل جبران. وكان مقدسي مولعًا بقصيدة جبران «أعطِني النايَ وغنِّ».

كانـت الحياة فـي حلبا، البلدة الصغيرة في لبنـان، خالية من الكهرباء، ومـن ثـمَّ لـم يكن هنـاك أفـلام أو مذيـاع أو أي مظهـر من مظاهـر الحياة الحديثة، ومع ذلك يحكي مقدسي في مذكراته حكايات عن سحر البلدة الصغيَـرة الخاص، فقـد كان يُصغي إلى أصوات المغنِّين في الأمسـيات، ويقـرأ تحـت تعريشـات الكـروم الصيفيـة، ويتأمـل أشـعَّة القمـر الفضِّية المنعكسـة على صفحة مياه البحر المتوسط خلف التلَّة. هكذا كان يتأمل جمال خلق الله وعظمته.

حلَّت ساعة العودة إلى الولايات المتحدة ومغادرة لبنان، ومع وصول مقدسي إلى أمريكا كان الهاجس الذي يؤرقه هو استعادة لياقته اللغوية بالإنجليزية، بعد غرقه في الأحاديث العربية والتعليم الفرنسي في لبنان. وهكذا توارت الفرنسية والعربية في ركن قصيٍّ في رأسه، وكأن كلتا اللغتين تنتمي إلى عالَم آخَر، عالَم شعر أنه لا يمتُّ إلى أمريكا بصِلة. لم ينسَ هاتين اللغتين، لكنه أودعهما بعيدًا في طيات ذاكرته، فلقد كانت لديه أشياء أخرى يجدر به أن يتعلمها.

اعتاد مقدسي أن يحضر دروسه في النصف الأول من اليوم، والنصف الثاني من يومه يقضيه في العمل في محل بقالة أبيه. وعلى هذا النحو كان لديه وقت كافٍ للذهاب إلى السينما في طريقه من المدرسة إلى العمل، وهي استراحة وجدها مفيدة لبعض الاستجمام بين النشاطين، وكانت فرصة لتحسين مفرداته الإنجليزية من خلال الأفلام. كانت لديه شهية لتعويض كل ما فاته في تلك السنوات السبع التي قضاها في لبنان.

بدأ مقدسي اكتشاف نفسه بعد تخرُّجه في المدرسة الثانوية في سِنِّ العشرين، أي بعد عامين من السنِّ المعتادة، وعلى مدار العامين التاليين تسبب ضعف الموارد المالية في الحيلولة دون دخوله الجامعة، وهكذا جرَّب نفسه في أعمال مختلفة، بما في ذلك بيع الموسوعات، وتوصيل المجلات إلى أبواب البيوت، والعمل في محلات البقالة التي عرفها. وشرع في تعلُّم العزف على آلة الكمان في عام ١٩٣٧، لكنه سرعان ما ترك العزف.

وبينما كان يتناول العشاء في إحدى أمسيات الآحاد في شهر ديسمبر

من عام ١٩٤١، سمع بنبأ قصف اليابانيين ميناء بيرل هاربور، القصف الذي سرَّع دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية. وبعد أقل من شهرين كانت إجراءات تجنيد مقدسي للخدمة في الجيش قد انتهت، ليبدأ فترة انضمامه مقاتلًا إلى صفوف الجيش الأمريكي. خدم مقدسي في الجيش مدة أربع سنوات تقريبًا، قاتل في إنزال النورماندي عام ١٩٤٤، وخرج من الحرب بعد إسقاط الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية على هيروشيما، فبعد بضعة أسابيع من قصفها جرى تسريح مقدسي من الخدمة في الجيش، وعاد إلى الحياة المدنية عام ١٩٤٥. وقد استفاد مقدسي من سنوات الجيش، إذ حصل على مكأفاة قدرها ٣٠٠ دولار، ومكأفاة من ولاية ميتشجان قدرها ٥٠٠ دولار، فساعدته تلك المبالغ على التسجيل في الجامعة.

التحق مقدسي بعد ذلك بجامعة آن أربور، لكنه انضم إليها وهو في سِنّ الخامسة والعشرين، أي إنه كان أكبر بنحو سبع سنوات من سِنّ الطالب المبتدئ الطبيعي، وكان يعي تلك الحقيقة المُرّة، ويعي حجم ما ضاع من وقت في سنوات الحرب، وقد حملته تلك المشاعر على التساؤل عما إذا كان أكبر سنًّا من أن يخوض تجربة التعليم الجامعي، فنصحه أحد الأساتذة بالاستمرار؛ لأن نضجه ودوافعه وحماسه للتعلم ستكون جميعًا خير مُعين له.

كان مقدسي يشعر أحيانًا بأنه يشبه السلحفاة التي تريد أن تسبق الأرنب، والأرنب هنا هو الطالب الأمريكي الذي تشرَّب كثيرًا بموادّ التاريخ الأمريكي والمعارف السياسية. لكن مقدسي توقف عن المقارنة وأخذ يركز على منافسة نفسه فقط.

كان يومه يبدأ في الخامسة فجرًا، ويستمر في القراءة والدراسة إلى المساء. وبعد أن أنهى مقدسي سنواته الجامعية التحق بالدراسات العليا، وكانت رسالته للماجستير عن الدستور اللبناني ما بين الحربين العالميتين، ثم سعى للتدريس في جامعة برنستون، إذ درس تاريخ العرب واللغتين الفارسية والتركية.

يحكي مقدسي في سيرته أنه استغرق وقتًا طويلًا لكي يقرر التخصص في الدراسات العربية والإسلامية. لقد بدا له أن اتقان العربية لا معنى له في الولايات المتحدة، وكذلك الفرنسية التي تعلَّمها في لبنان، لكنه مع الوقت اكتشف تعلُّقه بالعربية من خلال رفوف المكتبات وهو يقرأ عن النحو العربي في مراجع باللغة الإنجليزية.

كانت النقلة المهمة في تجربته هي سفره للدراسة في فرنسا عام ١٩٥٠؛ إذ كانت الدراسات الإسلامية في فرنسا متقدِّمة عنها في الولايات المتحدة، لكن في باريس، مدينة الجن والملائكة، كانت الحياة أكثر هدوءًا من المرة الأولى التي تعرَّف فيها على المدينة عام ١٩٤٥ عندما دخلها جنديًا أمريكيًّا في الحرب العالمية الثانية.

في عام ١٩٥٠ كانت المدينة تستعيد عافيتها، وكانت الحياة فيها رخيصة، ووجبات الطعام يكفيها دولار واحد في اليوم، أو دولاران ونصف إذا اشتهى المرء وجبة فاخرة. وفي باريس غرق مقدسي في المكتبات التي تهتم بالدراسات العربية والإسلامية، وكان أول كتاب اقتناه هو **المستدرك على المعاجم العربية** للمستشرق رينهارت دوزي. ولما غادر مقدسي باريس متوجِّهًا إلى القاهرة كان لديه صندوقان من الكتب، بجانب أمتعة الأسرة.

في باريس تعرَّف مقدسي إلى المستشرق لويس ماسينيون، الذي كتب الكثير من الدراسات عن الحلَّاج. كما توثَّقت صلته بالمستشرق لويس جارديه، وزار رفقته معظم معالم باريس وأجزاء أخرى من فرنسا. والتقى مقدسي أيضًا عديدًا من العلماء الأفذاذ وتحدَّث إليهم، وكان يشعر بأنه يحلِّق في فضاءات جديدة، ولكنه أدرك سريعًا أن أحد المفاتيح المهمة للحياة الفكرية للكاتب وهو وجود المكتبة الشخصية.

في فرنسا استمع مقدسي إلى العديد من المستشرقين، مثل ريجيس بلاشير المتخصص في الأدب العربي، وهنري لاوست المهتم بتاريخ الإسلام وابن تيمية. وفي الكوليج دو فرانس استمع إلى محاضرات الأساتذة الزائرين لجامعة باريس، مثل المستشرق هاملتون جب القادم من جامعة أكسفورد، وكذلك استمع إلى محاضرات الأدب العربي التي ألقاها ليفي بروفنسال، أحد أهم المستشرقين المهتمين بتاريخ الأندلس.

حثَ ماسينيون طالب الدكتوراه جورج مقدسي على دراسة المتكلِّم والفقيه الحنبلي ابن عقيل، وقد وافق هنري لاوست على الإشراف على أطروحة مقدسي للدكتوراه، ودخل في نقاش طويل معه. كانت هذه النقاشات بالنسبة إلى مقدسي تعادل مجموع سينمارات عديدة، لما وجده في لاوست من خبرة ودُربة. وقد نصحه لاوست قائلًا: «إذا أردت أن تدرِس ابن عقيل فليكن لك ما تريد، ولكني أنصحك أن تبدأ أولًا بدراسة شيخه أبي يَعلى الفرَّاء».

هكذا أصبح مقدسي متخصصًا في تاريخ الفِرق والمذاهب في العالم الإسلامي الوسيط. تطلَّب الانتقال إلى هذا التخصص سنوات، وتأثر فيه

بمن صادفهم من العلماء في جورجتاون وبرينستون، باريس التي تأثر فيها بشخصية ماسينيون ودراسته للحلاج المتصوف، ودراسة لاوست لابن تيمية، والصِّلة بين الحلاج والحنابلة بصفة عامة. انهمك مقدسي في دراسة مصادر القرون الوسطى الإسلامية في مكتبة ماسينيون الشخصية، ومكتبة «مدرسة اللغات الشرقية» و«المكتبة الوطنية». وقد سمح له ماسينيون باستخدام مكتبته الشخصية مرارًا.

لقد تعلَّم من ماسينيون الصبر على قراءة نصوص كتب التراث، والبحث فيها حتى مع عدم وجود كشَّافات أو فهارس، ونصحه بضرورة قراءة الكتب سطرًا سطرًا حتى يعثر على ضالَّته، فهكذا يجد الصيادون ضالَّتهم من اللآلئ.

كانت الشهور الأولى في باريس شاقةً على مقدسي حتى يتكيَّف مع نظام المكتبات المختلف عن أمريكا، وقد عانى عدة شهور من الإحباط التام في مشكلات الدكتوراه وفي المشكلات المتعلقة بأسرته لكي يجد لهم منزلًا في بلد تخلَّص مؤخرًا من نير الاحتلال العسكري وخرج من سنوات الحرب، فليس ثمَّ متاجر ولا أسواق كبيرة، وهناك القليل من المنتجات التي من شأنها أن تيسِّر الحياة على زوجة أمريكية ترعى طفلًا صغيرًا وتُرضع آخَر، ناهيك عن الإجراءات الروتينية المتعلِّقة بالإقامة في فرنسا.

عاد مقدسي من باريس للبحث عن عمل في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنه عاد بحصيلة ضخمة من الكتب وصور المخطوطات، بلغت اثني عشر صندوقًا من الكتب،شحَنها معه إلى الولايات المتحدة

الأمريكية، وعاد لإستكمال كتابة أطروحته للدكتوراه، وأخذ يتعزَّز فهمه للحركة الدينية في بغداد، وبدأ ينشر كتابات عن هذه الفترة مثل «يوميات ابن البنَّاء الحنبلي»، وهي **يوميات فقيه حنبليّ من القرن الخامس الهجري**، صادف مقدسي مخطوطتها في أثناء تصفُّحه لأكثر من ١٥٠ مخطوطة من مخطوطات المجاميع (وهي المخطوطات التي بين غلافيها أكثر من عنوان) في مكتبة دمشق الوطنية، فلمَّا تأملها أدرك أنه وقع على يوميات من نحو ثلاثين صفحة لفقيه عاصر ابن عقيل، وكان أصعب ما في الأمر هو قراءة خط المخطوطة، حتى إنَّ بلاشير عندما رأى إحدى صفحات المخطوطة قال: «يا له من نص لعين!». استغرق مقدسي في العمل على هذه المخطوطة ثلاثة شهور في فصل الصيف.

استغرق مقدسي سنوات في جمع تراث ومخطوطات ابن عقيل من المكتبات حول العالم، وكذلك بدأ التفكير في البحث في تاريخ التربية في الإسلام، والمدرسة النظامية في بغداد، وطبيعة التعليم الذي تلقّاه ابن عقيل ونظام التعليم في العالم الإسلامي، وهي الدراسات التي نتجت عنها تحفته: **نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب**، التي صدرت في العربية عن مدارات للأبحاث والنشر، بترجمة محمود سيد محمد.

اشتغل مقدسي على مشروع آخر عن تاريخ العلوم في العالم الإسلامي، وجذور النزعة الإنسانية أو الأدب، التي أسفرت عن تحفته الثانية: **نشأة الإنسانيات عند المسلمين وفي الغرب المسيحي**، الذي تُرجم مؤخرًا على يد الدكتور أحمد العدوي. ودرس فيه مقدسي نشأة العلوم الإنسانية في الإسلام الكلاسيكي، مع نظرة مقارنة مع الغرب المسيحي. وصدر أيضًا عن الناشر نفسه.

لقد تساءل مقدسي في سيرته عن الدوافع التي قادته إلى الحياة العلمية، فقد انحدر والده من سلالة البنَّائين المهَرة الذين طالما فخروا بمهنتهم، كما امتلكوا أيضًا أرضًا زراعية وعاشوا من خيراتها، وانحدرت أُمّه من سلالة الفلاحين الذين كانوا يملكون الأرض، وهاجر بعضهم إلى نصف الكرة الغربي.

ولم يدخل أصدقاء مقدسي في ديترويت الجامعة، لذلك يبدو لنا أن توجُّهه نحو الحياة الفكرية كان حصيلة مجموعة من العوامل التي كانت منبتَّة الصِّلة بسنواته الأولى في ديترويت، مثل تجربة دخول الجيش التي جعلته يقف على قيمة المعرفة باللغات الأجنبية، وقانون تسهيل الدراسة على المحاربين، والقدوة التي وجدها في العلماء الذين قابلهم في حياته. وانتهت حياة مقدسي الحافلة في أمريكا عام ٢٠٠٢ عن عمر ناهز ٨٢ عامًا.

اشتغل مقدسي طيلة حياته بالدراسات الإسلامية المقارنة، وكتب الكثير من الدراسات حول التاريخ الإسلامي، درس فيها الإسلام الحنبلي وحياة ابن عقيل، ونشر تراثه الفقهي مثل كتاب **الفنون** وكتاب **الواضح في أصول الفقه**، وكتب عن نشأة النظم التعليمية في العالم الإسلامي في **نشأة الكليات**، وكان مستشرقًا متمردًا؛ إذ نقد المركزية الأوروبية في رجوع الأصول المدرسية والمذهب الإنساني إلى الغرب فقط، بل بحث في جذور هذه الأفكار في الحضارة الإسلامية، وكذلك قدم دراسات عن الأشعرية، وكتب عن الشافعي، وأصول المتكلمين، وبغداد في القرون الوسطى، وغيرها من الدراسات التي عرضها بالتفصيل الدكتور أحمد العدوي في مقدمته الرائعة لكتاب **نشأة الإنسانيات**.

(٣٤) محمد كريشان يروي: وإليكمُ التفاصيل

يعـرف الجميـع محمـد كريشـان؛ المذيع الشـهير فـي قناة الجزيـرة. ما إن حصلـتُ على نسـخة من سـيرته الذاتيـة، حتى سـعدتُ بالعَيش مع هذه التجربـة الصحفيـة الشـيقة. يُخبرنا كاتبنـا أن الكتاب ليس سـيرةً ذاتية، ولا توثيقًـا تاريخيًّا؛ إنه ببسـاطة مجـرد محطات متناثرة ظلَّـت عالقةً في ذاكرته الصحفية؛ امتزج فيها السرد بالرأي، وتداخل المهني بالشخصي.

أخـذتُ فـي قراءة السـيرة التي سـمَّاها محمد كريشـان يـروي: **وإليكمُ التفاصيـل**، وبعـد عدَّة فصـول تأكدتُ أنها سـيرة ممتِعة؛ أقول هـذا بعد أن كتبـتُ مـا يقارب خمسين مقالةً حول السيَر الذاتية والمذكرات، وعشـتُ مـع هـذا الفـن الجميل. وأنا ضامِـنٌ للقارئ أنه سـيقرؤها مـن الغلاف إلى الغلاف، وينتقلُ بين فصولها بخفَّة ورشـاقة، وإذا ضمِنتُ لك متعة القراءة؛ فلا أستطيع حمايتك من حالة الشَّجَن التي ستشعر بها، وأنت ترى حكايتنا مع السياسة وخيبات أوطاننا العربية وهزائمنا؛ كأن السيرة هي قصَّةُ أوجاع العرب.

أجَّـل كريشـان فكـرة كتابـة سـيرة ذاتيـة؛ بسـبب دوامـة العمل والسـفر المتواصل منذ التحاقه بعالم التليفزيون بعد خروجه من تونس عام ١٩٩٥، ولم تكن ظروفه تسـمح بتَرف الجلوس لكتابة سيرته. واستمرَّ التأجيلُ إلى أن أتـى فيـروس كورونا، واجتـاح العالم، وكانت فرصةً لكريشـان ليجلسَ ويُلملـم مـا كتب سـابقًا، ويشـحَذ ذاكرته، ويجمـع أفكاره وأحـداث حياته الإعلامية المبعثَرة، ويسجِّل لنا تفاصيل التجربة.

تُونس فجر الصحافة وليل السياسة

يبدأ الكتاب بحكاية قصة محمد كريشان مع بلاط صاحبة الجلالة، ودخوله عالم الصحافة من بوابة جريدة **الرأي**؛ تحت رئاسة تحرير حسيب بن عمار. تستعيد السيرة سنوات كريشان في العمل الصحفي في تونس في شبابه؛ خصوصًا عندما انتقلت جامعة الدول العربية إلى هناك. وهي تُذَكِّرُني بسيرة الصحفي حمدي قنديل **عِشتُ مرتين**؛ حينما ثأر من الشُّهرة الإعلامية في نهاية حياته بسبب برامجه السياسية؛ مثل: **قلم رصاص**، واستفاض قنديل في شرح تغطياته حول العالم؛ كأنه أراد أن يُؤكِّد تاريخه في العمل الصحفي قبل شهرته على شاشات التليفزيون. وهذا ما فعله كريشان في حكايته عن قصَّته صحفيًّا قبل أن يكون نجمًا على شاشة الجزيرة؛ خصوصًا في بدايات عمله الصحفي في تونس، وزيارته لمصر، ومقابلته الطريفة مع الشاعر أحمد فؤاد نجم، وعن رحلة عجيبة إلى ليبيا. والكتاب فيه حكاياتٌ عن العقيد القذَّافي غريبِ الأطوار، وعن تجربة كريشان مراسلًا لـ جريدة **عُكاظ**. وفي الكتاب صورةٌ مختلفةٌ للمُنصِف المرزوقي، والباجي قايد السَّبْسِي؛ فتراهما صحفيَّين قبل الوصول إلى سُدَّة الرئاسة. وحينما دخل صدَّام حسين الكويت؛ دخل في نفس الوقت محمد كريشان بوابة العمل الصحفي مع الإذاعات؛ لتغطية الأحداث؛ إذ عمل مراسلًا للإذاعة الهولندية.

الجزيرة.. سِيرةُ القناة الصداع

قُصَاصةٌ صحفية صغيرة فيها إعلانٌ من هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) عن رغبتها في توظيف مجموعة من المُحرِّرين والفنِّيين والمُذيعين للعمل في لندن؛ في قناة جديدة تُطلقها باللغة العربية. هذه القصاصة التي بَقيت على مكتب كريشان حتى اصفرَّت من أشعة الشمس - كانت أولَ

نداءٍ له ليقدِّم على وظيفة مذيع في بي بي سي. في المذكرات قصَّةُ الوظيفة الأولى، وما صاحبها من قلقٍ؛ من الصحفي القادم من عالم الجرائد إلى عالم الشاشات، والعرَق يتصبَّبُ من كامل جسده وهو يقرأ النشرةَ الأولى، ولم يتنفس الصُّعَداء إلا بعد أن ودَّع المشاهدين في نهاية النشرة. وفي هذه الفصول ستشعر ببَرد لندن القارِس، ويومِها الكئيب القصير، ومشاعر الغربة وتجربة العمل التليفزيوني.

يسيرُ بك الكتاب حتى ترى تبخُّر حُلم هذه القناة العربية في لندن؛ في تفاصيل تجدها بتمامها في الكتاب، ثم ينقلك من ضباب لندن إلى حرارة شمس الدَّوحة الساطعة؛ وهو يحكي قصته وقصة القناة الوليدة؛ قناة الجزيرة؛ الفكرة الخطيرة التي تفتَّق عنها وعيُ الإرادة السياسية في الدوحة؛ بإنشاء قناة تليفزيونية مختلفة، وبسقف حرياتٍ أعلى. هذه شهادة مُمتِعة؛ ترى فيها وصفًا للدوحة المدينة/ الدولة بالمُصطلح اليوناني؛ نراها في منتصف التسعينيات، والرعيل الأول من المسئولين في القناة يتوافدون عليها، وحكايات عن محمد جاسم العلي مدير القناة، وكيف جمع فريقه، وعن سَهَره الدائم في رعاية القناة؛ حتى إنه اتصل عدة مرَّات في ليلة واحدة؛ ليصحح أخطاء على الشاشة، فردَّ المنتج المصري: «يا أبو جاسم، متى تنام حضرتك؛ حتى نعرف نغلط براحتنا؟»

ينقل كريشان العبارة التي قالها له باتريك نيكولاس ثيروس سفير الولايات المتحدة في الدَّوحة بين عام ١٩٩٥-١٩٩٨؛ فحينما انطلقت المحطة بعث وقتَها باتريك برسالة إلى واشنطن يقول فيها: «إنه إن صدَق القَطريون فيما يُعلنونه بخصوصِ هذه القناة الجديدة؛ فإننا مقبلون على صداعٍ كبير!» ويستمر الكتاب في شرح أثر الجزيرة في التجربة الإعلامية العربية، وتَجارب المؤلِّف معها، ولحظة بكائه على الشاشة؛ حينما أُعلن خبرُ وفاة زميله طارق

أيوب، وتجاربه في التغطيات الصحفية في العراق، وقلقه من مناطق النزاع، وجدالهم صباحًا في بغداد حول: كم انفجارًا حدث في الليلة الماضية؟ وفي زيارتـه للعراق للقاء الصحَّاف. قبل سـقوط بغداد، التقـى الصحفي روبرت فيسك، وقال له ساخرًا: «إن الصحفيين يقصدون مناطق يكون الناس حينها بصدد مغادرتها».

فلسطين.. المهنة والوجع

كل الفضل يعود إلى راديو أبيه وصُحفه التي علَّمته حُبَّ فلسطين، والطفل محمد يستمع إلى أخبار يونيو/ حزيران ١٩٦٧؛ كان محمد في الثامنة والنصف من العمر يسـأل ويستفسـر؛ فإذا لم يجد ما يشـفي الغليل قلَّب الصحف التي يُراكمهـا والـده في البيـت. كان يتابع الأخبار؛ فبعد أيلول الأسـود عام ١٩٧٠، جاءت عملية ميونيخ الفدائية عام ١٩٧٢ خلال الألعاب الأوليمبية في ألمانيا، ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣؛ فازداد شَغَفُه بالشأن الفلسطيني ومتابعته له، وانتقل معه هذا الوعي إلى المدرسة؛ فهو الطفل الذي أغاظ معلِّمتَه الفرنسية مدام سوليي عندما طلبت منه جملة بالفرنسية؛ فما كان منه إلا أن أعطاها جملةً تقول: الحرب بدأت لتحرير فلسطين، فانتفضت المعلِّمة صارخةً في وجهه بغضبٍ، قائلةً: «إنَّ هذا درسٌ في اللغة الفرنسية، ولا دخلَ للسياسة فيه».

كان يلتهـم كلَّ مـا يخـص أخبـار فلسـطين؛ إلـى أن جاء اجتيـاح بيروت صيف ١٩٨٢، بعد عامٍ واحدٍ من تخرُّجه في الجامعة؛ ليشكِّلَ ذِروة الاهتمام بفلسـطين؛ إذ انتقلت القيادة الفلسـطينية من لبنان إلى تونس. وذهب لتغطية الحدث لحساب صحيفة **الرأي**؛ كانت تلك اللحظة نقطةَ تحولٍ لحركة فتح، ونقطة تحولٍ في حياة كريشان أيضًا؛ إذ تحوَّل عمله بالكامل تقريبًا إلى متابعة

الشأن الفلسطيني، واجتماعات الجامعة العربية، التي انتقلت إلى تونس بعد مقاطعة الدول العربية لمصر في أعقاب اتفاقية كامب ديفيد.

غطَّى كريشان مجزرةَ حمام الشطِّ؛ التي استهدفت فيها إسرائيل عرفات، ومقر القيادة الفلسطينية في تونس، وكوَّن كريشان علاقاتٍ مع القيادة الفلسطينية؛ أخذ بعضها بُعدًا إنسانيًّا؛ حتى إن القيادي أبو علي شاهين لم يتردد في دعوة كريشان وزوجته على صحنٍ مقلوبة عندما علم أنها حامِل، وهناك تعرَّف إلى منير شفيق (أبو فادي)، وسعى إلى عقد مقابلاتٍ مع الخِتيار ياسر عرفات.

يُقدِّم كريشان تصورًا عن عرفات بوصفه شاهد عيان؛ فقد صعد معه على الطائرة المتجهة إلى أمريكا لتوقيع اتفاقية أوسلو، وفي المذكرات تحليل لهذه الشخصية المُحيِّرة، ويُظهر كريشان حُزنه على ذكرى عرفات، وشخصيته التي يعتبرها فريدة. ويحكي لنا كريشان عن النكتة التي قِيلت عن عرفات أنه خلال شعيرة رمي الجمرات في الحج، رمى الجمرات كلها عدا واحدة؛ فلما سُئل عن السبب قال: «إنه لا يريد أن يقطع بالكامل مع الشيطان؛ فمن يدري؟» وفي الكتاب حديثٌ عن بعض الشخصيات الفلسطينية؛ مثل جورج حبش، وإبراهيم أبو لغد وغيرهما.

مع هيكل

يتذكر محمد كريشان اليوم الذي جرى تكليفُه فيه بالقيام بأول مقابلة مع هيكل؛ مقابلاته مع هيكل على الهواء وصلت إلى عشرين لقاءً تليفزيونيًّا، ورغم أنه وهو شابٌّ صحفيٌّ زار مصر حاول الوصول إلى هيكل، لكن سكرتيرة الأستاذ تخلَّصت من هذا الشاب الصحفي صغير السنِّ؛ الذي أصبح لاحقًا قريبًا من هيكل، ويدخن السيجار مجاملةً معه في عزبته في برقاش.

يُلخِّص كريشـان تجربته مع هيكل في أحد مقالاته بقوله عند وفاة هيكل: «للراحل محمد حسنين هيكل مُريدون مفتونون، أو كارهون حاقدون؛ مُشِطُّون فيما يشبه التقديس، أو مسرفون في الذمِّ والقدح. لستُ من هؤلاء ولا أولئك؛ أحترم الرجل قامةً صحفية نادرة، وشبكة علاقات رهيبة، وتجربة سياسية ثَرِيَّة؛ لكن ذلك لا يعني بالضرورة التماهيَ التامَّ مع كل ما قاله، أو كتبه، أو فعله».

هكـذا يُقدِّم كريشـان الاحترام الكبير لأحد أهـم الصحفيين العرب، ولا يوافق على كَون الصحفي يجب أن يحكم على كل من يلتقيهم ويحاورهم، ويجـد أن مريـدي هيـكل لـم يروا عيوبـه، وأن كارهيه قد غَمَطُـوا حقَّه، وبين تطـرُّف المحبيـن، وبُغـض الكارهين يقـف كريشـان على الحيـاد الممزوج بالحبِّ والتقدير والعلاقة الشخصية مع هيكل.

وتأخذنا المذكرات في جولة حول كواليس تلك المقابلات والنقاشات بين المذيع والضيف، وزيارات محمد كريشان لبيت هيكل، وأكلِه الفطير المشلتت. ولا نحتاج إلى كثير جهدٍ لنرى أثر انبهار كريشان بالكاريزما التي امتلكها هيكل. ويصف كريشـان هجمات هيكل على المختلفين معه بأنها لكماتٌ عنيفة في قُفَّـازَات مـن حرير. وتتمثَّل القيمة المهمة لهذه الفصول فـي معرفة بعض آراء هيكل؛ مثل عدم رضاه عن أداء الجزيرة في تغطية الثورات العربية، وعدم إعجابه ببرنامج **الشريعة والحياة** وضيفه الشيخ يوسف القرضاوي. كريشان يشرح العلاقة باسـتفاضة وبمعلومات مهمة، لكنه يتوقف عند لحظة الثورة السـورية، وتردُّد هيكل في دعمها، وكذلك مواقف هيكل السياسية من الأحداث في مصر، التي جعلتَ العلاقة تفتُر قليلًا. والقراءة عن هيكل وتجربته من أمتع فصول الكتاب.

سيرةٌ حافلة بالسياسة والمفارقات

أنهـى كريشـان الكتاب بفصلٍ عـن طرائفه مع الزعماء العـرب؛ ربما لأن

الصحفـي لا ينبغـي أن ينغمس كثيرًا في الابتسـام. وينقل لنـا بعض حكاياته مـع الزعمـاء؛ مثل سـؤال الرئيس اليمني علي عبـد الله صالح للمخرج عماد بهجت: «أخ عماد، أنت سنّي ولّا شيعي؟» فردَّ عماد: «والله يا سيدي الرئيس؛ لا هذا ولا ذاك»، وتطوع كريشـان بالتوضيح أن عماد مسيحي، فقال الرئيس عبد الله صالح: «خليك مسيحي أحسن، بلا وجع راس!»

كذلك يحكي عن مقابلته مع بشـار الأسـد في باريس لتصوير حلقة معه، والنقاش مع بشار قبل التصوير، وجاءت سيرة السوريين العاملين في الجزيرة؛ فحكى كريشـان عن تيسـير علُّوني، ثم ذكر لونا الشـبل التي لم يكن كريشان يتصور أنها ستنتقل بعد أعوامٍ قليلة من العمل في الجزيرة، لتصبح مستشارة نافذة في قصر بشَّـار الأسـد، ومن المقربين إليه. وعن شخصية لبنانية تعرَّف إليها في هذا اللقاء، ولن أخبرك من هذه الشخصية؛ فالقصة لافتة في الكتاب.

يبرع كريشـان في جذب انتباهك في بداية فصوله، وفي البحث عن قفلة مناسـبة للفصل بطرفة أو مفارقة؛ فقلمـه الصحفي الذي لم يتوقف عن كتابة مقال أسبوعي في **جريدة القدس العربي**، دأب عليه منذُ أكثر من عشرين عامًا؛ حرصًا منه على أن يُعبِّرَ عن آرائه الخاصة في شئون شتى، لا يسمح بها عالم التقديم التليفزيوني، وحتى لا يتكلَّس قلمُه بعد أن هجر الصحافة المكتوبة، التي يصفها بحبه الأول.

الكتـاب يفيـض بالمواقف الإنسـانية في حياة الكاتـب؛ إذ نراه يحكي لنا لحظـة وفاة والـده؛ التي يصفها بأنها كانت الجرح الغائر الذي لم يُشـفَ منه إلـى اليـوم، أو غضبه مـن مقالة هاجَمتـه، ورَفْعـه قضية بعد الثورة التونسـية علـى الصحفي عبد العزيز الجريـدي؛ عندما كتب الجريدي مقالًا شـهَّر فيه بكريشـان. ومـا أزعج كريشـان في هذا المقـال بالذات هـو أن والدتُه قرأته،

قالت له: «إن النوم لم يُكَحِّل جُفونَها بسبب هذا الهجوم»، وأنها تخشى أن يكون المقال مقدمةً لتدبير سُوء من حكومة بن علي قبل سقوطه؛ لذلك قرَّرَ مقاضاة هذا الصحفي الذي أزعج والدته، وجعلها تعيش هذا القلق من الافتراء على ابنها.

نستطيع وضع سيرة كريشان مع عديد من الكتب التي أرَّخت لمراحل الجزيرة عبر تجاربِ من عَمِلَ فيها؛ مثل كتاب علي الظفيري **بين الجزيرة والثورة**، أو تجربة المراسل أحمد فال ولد الدين عند اعتقاله في ليبيا؛ التي سجَّلها في كتابه **في ضيافة كتائب القذَّافي**، أو بعض من هوامش عارف حجاوي في كتابه **حياتي في الإعلام**، وكتاب أسعد طه **يُحكى أنَّ: عن الذات والحرب والثورة**»؛ على أنها أشمل منهم جميعًا في كَونها سيرة غطَّت معظم مراحل حياته.

سيرة محمد كريشان لا تحتوي على كثيرِ اعترافاتٍ، أو مغامراتٍ عاطفية، أو مراجعات نقدية؛ فهو يثبتُ لنا صحة مقولة أرسطو أن الإنسان حيوانٌ سياسيٌّ؛ لأن السيرة تدور حول هموم السياسة حتى النخاع، وركض حول التصريحات والمقابلات والتغطيات، ومضايقات الأجهزة الأمنية للصحفيين؛ مثلما حدث معه في إسرائيل، وتفتيشه في الولايات المتحدة، وتحقيق فِضولي من فرع المخابرات السورية في مقرِّ فرع فلسطين في دمشق، وغيرها كثيرٌ من الحكايات الممتعة والمؤلمة. هي سيرة تحكي قصة الإعلام أيضًا، ولعلها تُشجِّعُ أساطين تلك المهنة على المشاركة في تدوين مذكراتهم وحكايات حياتهم.

(٣٥) أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرَّمة

لفت نظري الغلاف الجميل لكتاب **أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرَّمة** للأستاذ محمد شُعير. يتتبَّع الكتاب كلَّ ما يخصُّ المعارك الأدبية والسياسية التي دارت حول رواية **أولاد حارتنا** لنجيب محفوظ. ولا يقتصر الكتاب على تقديم ما يخصُّ الجدل حول الرواية؛ بل يصف الجو الأدبي العام الذي ساد مصر في تلك الحقبة. الكتاب مكتوبٌ بطريقة شيقة وممتعة؛ ما إن تنتهي من فصلٍ حتى تتحمَّسَ للفصل الذي يليه.

٢١ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٩: لحظة نشر رواية «أولاد حارتنا»:

يُطلعنا محمد شُعير على الجو العام لحظة صدور الرواية في صورة سلسلة يومية في جريدة **الأهرام** القاهرية؛ أحد مزايا الكتاب هو التتبع الدقيق للأرشيف وتاريخ تلك الفترة؛ فالشيوعيون معتقلون المحاريق بالواحات، وهناك خبرٌ عن لصٍّ مجهول يسطو على كرمة ابن هانئ؛ منزل لشاعر أحمد شوقي؛ ومن بين المسروقات نخلةٌ ذهبية؛ أهداها حاكم البحرين حمد بن عيسى لشوقي احتفالًا بمبايعته أميرًا للشعراء، وكذلك كأس فضِّية؛ هديةٌ من «»الاتحاد النسائي برئاسة هدى شعراوي.

سنتعرف من خلال الكتاب على العناوين الرئيسة للصحف في تلك الفترة؛ والتي تتحدث عن مظاهرات حاشدة في العراق ضد عبد الكريم قاسم، بعد تنفيذ أحكام الإعدام في عدد من قادة ثورة الشوَّاف، وأخبار الأدب تقودُ الهجوم الأعنف؛ فقد وصفت قاسم بأنه «نيرُون بغداد».

الصورة الرئيسة في كل الصحف تقريبًا لعبد الناصر بصحبته عبد الحكيم عامر، وعلى المستوى الدولي؛ اهتمَّت الصحف بأول زيارة لزعيم سوفييتي إلى الولايات المتحدة؛ حيث ألقى نيكيتا خروتشوف خطابًا في الأمم المتحدة. في تلك الفترة، انتهى رياض السنباطي من تلحين أغنية «الحب كده» التي استفتحت بها أم كلثوم موسمها الغنائي، وفي هذه الأثناء نشرت الأهرام أول حلقة من رواية نجيب محفوظ **أولاد حارتنا** مقابل ألف جنيه، وتُسوِّغ **الأهرام** ذكر المبلغ بالقول: «والأهرام لا تذكر هذا الرقم -وهو أكبر مبلغ دُفع في الصحافة العربية لقصة واحدة- تفاخرًا أو ادعاءً؛ وإنما يذكره ليسجل بدءَ عهدٍ جديد في تقدير الإنتاج الأدبي».

سنوات اليأس ١٩٥٢-١٩٥٧

يذكر الكتاب أن نجيب محفوظ كتب رواية **أولاد حارتنا** وهو في سن السابعة والأربعين، وتكتب الصحافة عنه في تلك الفترة أنه غير متزوج، ويوضح لنا شُعير أن هذا الخبر غير صحيح؛ فقد تزوج نجيب في عام ١٩٥٤، لكنه أبقى خبر زواجه في السر، وكشفت عنه مجلة صباح الخير بعد عشر سنواتٍ من حدوثه؛ في تلك الفترة، كان نجيب يعمل مديرًا لمصلحة الرقابة على المصنفات الفنية؛ يسمِّيه أنيس منصور القطار لشدة انضباطه؛ فهو يخرج من عمله الحكومي في الثانية بعد الظهر، ثم يتناول غداءه في بيته، ويستريح قليلًا، ثم يعمل إلى العاشرة مساءً؛ موعد نومه، وفي الفترة نفسها كان يعمل بكتابة السيناريو، ويعمل على سيناريو فيلم **صلاح الدين**؛ لكي يحصل على دخل إضافي بعد أن أصبح مسئولًا عن شقيقته وأولادها، عقب وفاة زوجها.

كان محفوظ قد توقَّف عن الكتابة طيلة خمس سنوات؛ أسماها سنوات

الجفاف (١٩٥٢-١٩٥٧)؛ كان ذلك بعد أنهى ثلاثيته الشهيرة، وتلكأ ناشره عبد الحميد جودة السحَّار في نشرها لكِبر حجمها؛ البعض يقول: إن تلكأ السحار كان بسبب الغَيرة من نجيب محفوظ، ويصحبنا الكاتب في أقاويل مختلفة لتفسير توقف محفوظ عن الكتابة بعد ثورة يوليو، تعددت إجابات نجيب محفوظ التي تؤكِّد أن الثورة قتلت رغبة الكتابة داخله؛ ولعلَّ السبب كما ينقل شُعير عن صلاح عيسى أن الثورة أصرَّت على اقتلاع جيل ما بين الثورتَين (١٩١٩-١٩٥٢) من الخريطة السياسية المصرية، وخيَّرتهم بين أمرين لا ثالثَ لهما؛ أن يقرُّوها على أنها بداية تاريخ الوطن، وأن كل ما قبلها لم يكن شيئًا إلا الفساد والخيانة؛ فيغتالون بذلك تاريخهم، أو أن يلتزموا بالصمت التام، وينسحبوا من العمل العام، ويضعوا على أفواههم أقفالًا من حديد؛ لذلك يقول الدباغ بطل الراوية: «كنا طليعةَ ثورة، فأصبحنا حُطام ثورة».

عبد الناصر يسأل

قرر هيكل نشر الرواية في سلسلة يومية وليست أسبوعية؛ حتى تُنشر كاملةً سريعًا، ولكن عقب الحلقة السابعة عشر، بدأت شكاوى ومطالبات للأزهر بالتحرُّك لوقف نشر الرواية؛ كل هذا وصل إلى عبد الناصر، فسأل هيكل: «إيه الحكاية؟»؛ فأوضح له ملابساتها، وقال هيكل لعبد الناصر روايةً كتبها نجيب محفوظ لا بد من نشرها، حتى آخر كلمة. فقبل عبد الناصر استكمال النشر، ثم عاد الصخبُ، وسأل عبد الناصر مرَّةً أخرى، وكان اقتراح هيكل أن تقوم لجنةٌ من الأزهر بقراءة الرواية، وأراد من ذلك أن يكسب وقتًا؛ حتى يستكمل نشر الرواية كاملةً في **الأهرام**.

يكشف لنا الكتاب عن سرِّ هجوم الكاتب صالح جودت على نجيب محفوظ، وكيف أن تاريخه لا يخلو من حوادث مشابهة؛ مثلما فعل مع

نزار قباني عندما نشـر قصيدته هوامش على دفتر النكسـة؛ لكن نزار سيرسل رسـالة لعبد العناصـر الذي أصدر قـرارًا بفكِّ الحصار المفـروض على نزار وقصائده، وغنَّت له أم كلثوم قصيدة: «أصبح عندي الآن بندقية» عام ١٩٦٩؛ من ألحان محمد عبد الوهاب، وهي أول احتفاء بانطلاق المقاومة الفلسطينية المسلحة.

ولم تكن رواية محفوظ وحدها التي أثارت جدلًا عند نشرها في **الأهرام**؛ فقـد تسبَّب نشـر مسـرحية **بنك القلـق** لتوفيق الحكيـم، والتي احتـجَّ عليها عبد الحكيم عامر بشـدَّة، ووصـل الخلافُ إلى نقاشٍ حـادٍّ أمام عبد الناصر الـذي حسـم الموضوع؛ كما يقول هيـكل بقولـه: «إذا كان الحكيم كتب في العصر الإقطاعي السـابق **يوميات نائب فـي الأرياف**، وقال رأيه في الأحوال الاجتماعية المصرية في ذلك الوقت، ولـم يتصدَّ له أحد؛ فهل يُعقل أنه عندما ينتقد بعض الأوضاع بعد الثورة أن نتصدى له؟»

هذا كتاب مُميَّز؛ لأنه تتبَّع ما يشبه المعركة الأدبية التي دارت حول رواية **أولاد حارتنا**، وأمدَّنا بصورة مختلفة للعهد الناصري؛ الذي لم يكن فيه توجُّه واحـد؛ بل عدة توجهات؛ منها التوجهات اليمينية المحافظة التي كانت ضد نجيـب محفـوظ؛ والتـي وصلت الأمر بها إلـى إصدار قـرار باعتقاله مرتين؛ مرة بسبب رواية **ثرثرة فوق النيل**، ومرة بسبب **أولاد حارتنا**، لكن هيكل كان يدافـع عن نجيب محفوظ، وتتكشَّـف لنـا في ثنايا الكتاب أشـكالًا من غَيرة الأدباء، ومن الصراع حول القُرب من السـلطة، ومظاهر معاداة هيكل بسبب قُربه من الرئيس، والتي وجدت في نشره الرواية فرصة لمهاجمته.

ونجد في الكتاب بحثًا عن مخطوطة الرواية بما يُشبه التحقيق الاستقصائي، وكذلك ظروف حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل، وجدل المشايخ،

والأزهـر معه وقصة نشـر الرواية في بيـروت، ومنعها في مصر، وفي الكتاب توثيقٌ من الأرشـيف والصُّحف للحياة اليومية والسياسية، وربطها بالمعركة حول الكتاب؛ فالسياسـي يتداخل مع الأدبي بسلاسـة، ويعود محمد شُـعير للأرشيف العميق؛ ليرسم صورةً عن حالة المجتمع، والأزهر، والأدباء؛ من خلال الموقف من الرواية، ولا يكتفي شُعير بالتأريخ، ونقل المعلومات؛ بل يدقق في كثيرٍ من المعلومات التي ترد له، وينقد تلك المرويات التي حصل عليها، ويحاول أن يضبط سهو الذاكرة بكتابة تلتزم الدقة.

قد يختلف القارئ مع المقارنة التي قدَّمها شُعير بين نجيب محفوظ وسيد قطـب، وفـي الكتـاب محاولةٌ للردِّ اتهـام نجيب محفوظ بالجُبن السياسـي، وذِكر مضايقات السلطة له؛ وهو تحليلٌ مختلف للصورة الشائعة عن نجيب محفوظ؛ الكتاب يستحق الحفاوة به؛ لأنه ممتع، ووراءه جهدٌ يستحق التقدير.

(٣٦) سالم بن لادن وعالم النفط والمال والطائرات

بيـن يـديَّ كتاب **آل بن لادن وعالـم النفط والمال والإرهـاب**؛ من تأليف ستيف كـول، والكتـاب ضخـم يقـع في زُهـاء ثمـان مائـة صفحـة، ومليءٌ بالمعلومـات والتفاصيـل الدقيقـة، ولقد أحسـنت الشـبكة العربية للأبحاث والنشـر إخراجَ هذا الكتاب في ترجمة جميلة، وطبعة أنيقة لا تسـرد لنا سيرة أسامة بن لادن وحياته الدرامية فحسب؛ بل تُقدِّمُ رؤية أشمل لدور عائلة بن لادن في تاريخ السعودية. وفي طيِّ قصة العائلة نرى تفاصيل تاريخ المملكة العربية السعودية الحديث، وأحداث الطفرة النفطية، وحادثة جُهَيمان؛ فضلًا عن تفاعل عائلة بن لادن مع العائلة الحاكمة في المملكة العربية السعودية.

كنـت أودُّ قـراءة روايـة شـائقة، ثـم أهدانـي صديقـي كتـاب آل بـن لادن وتصفحتُه. سـاعتها قررتُ التخلي عن فكرة قراءة رواية والبحث عنها؛ لأن النص الذي بين يدي أفضل وأجمل من أي رواية؛ فهذه الوقائع تحكي قصة عـن عالـم الأعمال والسياسـية، وهذا الكـمُّ من التفاصيل التي نجح سـتيف كـول في جمعها أفضل من أيِّ نـصٍّ أدبيٍّ يحكي أحداثًا خيالية. العجيبُ أن الشـخصية التـي لفتـت اهتمامي في الكتاب هي سـالم بـن لادن وليس أخاه أسامة. الفصول التي تستعرض حياة سالم بلغت ٢٢٨ صفحة. تخيلت هذه الصفحات كتابًا منفصلًا عن حياة سالم ومغامراته.

يمكـن وضع هـذا العنوان بجانـب رفٍّ كبير قدمته الشـبكة العربية لرؤية أعمـق لتاريخ المملكة العربية السـعودية؛ فقد نشـرت كتـاب: **الوهابية: بين الشرك وتصدع القبيلة**، للدكتور خالد الدخيل، وكتاب: **الجهاد في السعودية:**

قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب للباحث توماس هيغهامر، ودراسة ستيفان لاكروا المميَّزة عن الصحوة المعنونة: **زمن الصحوة: الحركات الإسلامية في السعودية**، و**أيام مع جُهَيمان** لناصر الحزيمي؛ هذا بالإضافة لدراسات تهتم بالأنثربولوجيا الثقافية، وحياة الصحراء ومروياتها التي كتبها الدكتور سعد الصويان، ودراسة لحياة النساء في السعودية في كتاب **النساء والفضاءات العامة في السعودية**، للكاتبة إميلي لورنار، وكتاب **الحراك الشيعي في السعودية**، وكتاب **علماء الإسلام: تاريخ المؤسسة الدينية بالسعودية**، وكتاب **عبد العزيز الخضر: السعودية: سيرة دولة ومجتمع**؛ الذي قدم فيه تأريخًا ثقافيًا للحياة الأدبية والفكرية، مع توضيحات لأهم المعارك التي خاضتها التيارات الفكرية المختلفة، وفي الكتاب تتبُّعٌ مميَّز للأرشيف الصحفي والكتابي لهذا الزمن؛ يصل لتتبع شرائط الكاسيت ومقولاتها التي كانت جزءًا من المعركة الفكرية في التسعينيات.

يسرد ستيف كول قصة حياة سالم بن لادن في فصلٍ بعنوان: «الابن الصاعد»، ويخبرنا عن شخصيته الودودة، وتمتُّعه ببشاشة طفولية؛ سمحت له بفعل الأشياء الصادمة؛ فقد كان يخرق القواعد دون أن يشعر الآخرون بالضيق أو النفور منه. كان والده قد تمكن سابقًا من كسب ودِّ العائلة المالكة بحضور المناسبات الدينية في مكة والمدينة، أو باصطحابهم في جولات في مواقع أعماله الإنشائية؛ إلا أن سالمًا اتبع نهجًا مختلفًا. لقد صادق الكثير من شبِاب العائلة الملكية؛ فكانوا يسافرون معه إلى الخارج، ويرتِّب لهم رحلاتهم، واستمتع الأمراء بأحاديث سالم عن أوروبا، والسيارات السريعة، والطائرات الخاصة.

ينقل لنا الكتاب صورًا ولقطات من حياة سالم وصداقته القريبة من

الأمراء؛ نراه وهو يسهر في الصحراء حول النار، ويفكُّ قيد الصقور، ويقوم برحلة صيدٍ مع أميرينِ ذوي شأنٍ من السديريين السبعة؛ كان أحدهما الأمير نايف الذي كان على وشك أن يصبح وزير الداخلية المهاب في المملكة، وينطلق المؤلف في الحديث عن سالم وهو في خيمة الأمير فهد؛ ولي العهد في ذلك الوقت، واستطاع سالم الحصول على إذن بشراء طيارة خاصة؛ إذ كان الملك فيصل أصدر أمرًا سابقًا بعدم السماح لأحدٍ من عائلة بن لادن بالطيران بطائرة خاصة بعد وفاة والدهم. واشترى سالم أول طائرة له من طراز (MU2)، وكان سالم عادةً ما يتندَّر بما قاله الملك فهد له بعد ذلك؛ إذ قال: «إنك لمجنون، وسوف تلقى حتفك يومًا ما في مغامرة من مغامراتك».

كان استمتاع سالم بمغامراته استمتاعًا شخصيًّا خالصًا؛ إلا أنه وظَّفه بدهاءٍ ليفوز بالحظوة عند فهد وإخوته؛ لتوظيفها في شئون العمل. ومثلما يفعل مديرو المبيعات؛ أوكل سالم لكلِّ أخٍ من إخوته الأشقاء وغير الأشقاء أميرًا سعوديًا ذا شأن، وكانت المهمة المنوطة بكلٍّ منهم إقامة علاقة شخصية مع الأمراء، والفوز بعقود المقاولات.

كانت رحلات التخييم الصحراوية فرصةً لتحصيل الفواتير التي مضى موعد استحقاقها. كان سالم يجلس بجانب فهد، ويتحدث بودٍّ ولطف عما على الدولة من ديونٍ له؛ إلى أن يصل المحاسب الملكي ومعه شيك بالمبلغ المطلوب. ويتذكر أحد مساعدي سالم أنه قال عندما عاد من خيمة فهدٍ ذات مرة وفي يده شيك يلوح به في الهواء: لقد حصلنا على مستحقاتنا يا رفاق. لنرحل من هنا؛ فحزموا أمتعتهم، وفكوا خيامهم، ورحلوا على الفور.

بحلول أواخر السبعينيات، كان سالم قد حصل على المزيد من العقود التي كانت كافيةً للشروع في إضافة طائرات من طراز ليرجت، وطائرات

رجال أعمال فاخرة إلى أسطوله الخاص. واستخدم سالم هذه الطائرات لتعزيز علاقاته مع العائلة المالكة؛ فإذا اتصل أمير من الأمراء، وطلب استعارة إحدى طائرات سالم الليرجت، لم يكن يشعر أن أمامه أي خيار سوى إرسال الطائرة للأمير.

في الكتاب حديثٌ عن العقبات التي واجهت سالم في بناء إمبراطورية أسرة بن لادن؛ مثل عدم توفر السيولة النقدية اللازمة؛ الذي تغلب عليه عن طريق دعم صديقه المصرفي الحضرمي سالم بن محفوظ؛ ومثل صداقته مع ابنه خالد بن محفوظ؛ وخالد هو من مؤسسي البنك الأهلي التجاري. وشخصية خالد تتمتَّع بالهدوء مقارنةً بسالم؛ إلا أن صداقتهما توطدت بسرعة، وينقل ستيف كول قصصًا كثيرة عن حياة خالد بن محفوظ. وخلال فترة السبعينيات كان الرجلان في طور محاولة إثبات نجاحيهما كمسئولَين تنفيذيَّين شابَّين؛ كلٌّ في مجاله. تشاركا الاهتمام بالطائرات الخاصة، وكان كلٌّ منهما يملك أسطولًا صغيرًا من الطائرات الخاصة في السنوات الأولى للطفرة النفطية.

يتتبَّع ستيف كول حياة سالم بن لادن، ويعتمد على عشرات المصادر؛ من ضمنها مقابلات مع الطيارين المقربين منه، ويحكي عن سفره الدائم للقاهرة، ورعايته أخته غير الشقيقة رندا؛ التي كانت من أمٍّ مصرية. وبحلول أواخر السبعينيات، كان سالم يعرف عن القاهرة ما لا يعرفه أكثر متعهِّدي البناء والتطوير بها؛ لأنه كان يقضي الساعات الطويلة مُحلِّقًا فوق سمائها بطائراته الخاصة. كان ولعه بالطيران هو العشق الوحيد في حياته الذي لم يسأم منه مطلقًا، ولازمه إلى وفاته. وفي ظل حماسته للطيران تحول آل بن لادن تدريجيًّا إلى عائلة من الطيارين. تُوضِّح سجلات الطيران أن ما لا يقل

عن سبعة من إخوة سالم تلقوا دروسًا على متن طائراته الخاصة، لم يكن أسامة واحدًا من هؤلاء؛ لكن أسامة اشترى طائراتٍ خاصَّة لاحقًا؛ منها واحدة وهو في السودان. لكن العجيب أن يكون الولع بالطيران أقرب إلى أن يكون جينًا من جينات الأسرة، وستكون أسطورة أسامة متعلقة بطائرتين أيضًا خرجتا عن مساريهما، وغيرتا أحداث المنطقة والعالم، ومن لم يسمع بأحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول.

كان سالم يتنقل بين المكالمات الهاتفية بين صديقاته وهو يقود طائراته الخاصة، ويدير إمبراطوريته المالية أيضًا من الجو؛ من خلال استخدام أحدث أجهزة الاتصالات التي كلَّفته ٣٠ ألف دولار للطائرة الواحدة. ويهاتف أخته المفضلة رندا وهي في مونتريال، ويقول لها: «رندا، إنني أحلق أعلى جبال الألب على ارتفاع ١٢ ألف قدم؛ أتصدقين ما أقول؟» أحيانًا يبثُّ عَزفه على الهارمونيكا عبر الراديو لتسلية المراقبين الجويين، وعندما يقترب من المطارات يمازح مراقبي أبراج التحكم، ويصيح المراقبون الجويون في بيروت أو القاهرة مرحبين به: «أهلًا شيخ سالم».

لعب سالم دور المتحدث الرسمي باسم العائلة، وأصبح صانع صفقاتها؛ فهو وسيط مثالي يتحدث الإنجليزية بطلاقة، وصحبته ممتعة. وشخصيته مرنة ولديه قدرة على التنقل بسهولة من بيئة إلى أخرى، وكانت الشركات الأوروبية والأمريكية تسعى لمقابلته ويتوافدون لزيارته؛ للإفادة من الطفرة النفطية، والحصول على عقود شراكات وأعمال في المملكة. وأكثر عائدات مؤسسة محمد بن لادن كانت من المشروعات الضخمة في البنية التحتية. لم يكن سالم يملك خبرةً في الأمور الهندسية؛ لذلك أمر اثنين من إخوته الأشقاء: بكرًا وغالبًا؛ بأن يحصلا على دورات في الهندسة المدنية.

توجه سالم إلى أمريكا، وصنع علاقات تجارية هناك؛ خاصَّةً فيما يتعلَّق بشراء الطائرات الخاصة، والسيارات الفخمة، والسلع الاستهلاكية للعائلة المالكة. اشترى سالم سيارات كاديلاك للعائلة المالكة؛ بعد أن أصدر أمرًا بجعلها مُصفَّحة لمقاومة الطلقات النارية، وجهَّز قصرًا في مدينة بنما؛ لدعوة الملك فهد. وهبطت طائرة الملك البوينغ ٧٠٧ في مطار مدينة بنما، وكانت أكبر طائرة تصل إلى أرض مطار المدينة.

كان سالم يستمتع بالسعادة البالغة التي يُبديها الأمريكيون والأوروبيون؛ خاصَّةً النساء؛ عندما يعطيهم مبالغ كبيرة على نحوٍ غير متوقع. وبدا أن سالمًا يستمتع بهذا النوع من العلاقات الإنسانية أكثر من استمتاعه ببعض الرفاهيات التي كان يمكن الحصول عليها بأمواله.

فكَّر سالم أن أحد المجالات التجارية التي يودُّ المشاركة فيها مدُّ شبكة الهواتف؛ فكما شيَّد والده الطرق؛ فهو يودُّ مدَّ شبكة الهواتف في المملكة. ويتتبع الكتاب بالتفاصيل الدقيقة قصص هذه الصفقات الضخمة، والصعوبات التي كانت تواجه مؤسسة محمد بن لادن؛ خصوصًا في مسائل السيولة المالية. اعتاد مساعد سالم أن يسمع منه عبارة كيف أعثرُ على سيولة تُقدَّر بمئة مليون دولار؟ إنني في حاجة إليها بحلول الغد. وعندما زار وفدٌ من شركة كاتربيلر، وأحصوا المعدات التي تملكها المؤسسة من هذه الشركة، أبلغوا سالمًا أن مؤسسة بن لادن هي أكبر شركة تمتلك معدات كاتربيلر في العالم، وعرضوا عليه أن يكون وكيلهم في السعودية؛ إلا أن سالمًا لم يُبد اهتمامًا بالأمر؛ فهو مشغول بالإنشاءات، ولم يكن يريد أن يكون وكيلًا لبيع منتجات شركة أخرى.

زادت أهمية سالم مع حادثة جُهَيمان. مع تدفق رجال جُهَيمان في السراديب

والأنفـاق؛ بـرزت الأهمية القصوى للمخططات الهندسـية والمعمارية التي يمتلكهـا أبنـاء محمـد بـن لادن للحَـرم المكّي. أحضـر العاملون في شـركة بـن لادن مُعـدَّات ثقـب لحفـر فتحات في أرضية المسـجد لحصـار جماعة جُهَيمـان، وفـي خِضمِّ هذه الأحداث تفتَّق ذهنُ سـالم في يـوم ٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٩ -أي بعد أسبوعٍ واحد من دخول جُهَيمان الحرم- عن إنشـاء حسـابات في ملاذاتٍ خارجيَّة في السر؛ تحسبًا لأي تغيرات سياسية قد تخسـر فيها مؤسسـته، وكان رأسُ مال الشـركة التي تم تسـجيلها في بنما ١٠ ملاييـن دولار، وقامـت الأسـرة بنفس التصرف عند غـزو صدَّام للعراق في ١٩٩٠؛ فحولت مبالغَ كبيرة للخارج. لم يكتف سـالم بتحويل الأموال؛ بل اشـترى قطعة أرضٍ ضخمة في مدينة أورلاندو في فلوريدا؛ مقابل ١,٩ مليون دولار.

يخبرنا الكتاب عن الوضع المالي لأسامة بن لادن في مراحل حياته؛ ففي بداية الثمانينيات ربما كان دخل أسامة بن لادن الصافي من نصيبه في شركات بن لادن يبلغ ١٥٠ ألف دولار سـنويًّا، ويحدِّثنا عن مقابلة سـالم مع دونالد ترامـب مـرَّةً واحـدة لم ينتج عنهـا أي صفقات تجاربة. نرى سـالمًا المقاول المهم في المملكة يتحول خارجها إلى سمسار يقوم بالعمليات الكبرى؛ مثل ترتيبـه للحصـول على طائرة للملك فهـد بعد أن وجـد أن التصميمات التي عرضتها بوينغ على الملك لم تُعجبه. سـافر سـالم إلى مدينة سـاس، وقابل أسـطورة الطيران الأمريكي دي هاورد، واتفق معه على أن يقوم بالتعديلات علـى طائـرة بوينـغ التـي كلَّفـت ٩٢ مليـون دولار، وفـي الكتـاب تفاصيـل التعديـلات التـي أضافها دي هـاورد، وكيف جعلها تحفـة فنيَّة تحتوي على جميع وسائل الرفاهية الممكنة.

عندما انتقل أسامة مع عائلته إلى بيشاور، طلب طلبًا جديدًا من سالم. كان الطلب هو الحاجة إلى السلاح؛ وبالتحديد الصواريخ المحمولة المضادة للطائرات، واستطاع سالم، عن طريق صديقه الألماني توماس ديتريتش، الحصول على هذه الصواريخ من أمريكا الجنوبية.

لا يترك ستيف كول أيَّ تفصيلٍ صغير عن حياة سالم؛ عن أصدقائه، وعلاقاته النسائية، وقصص زيجاته، ويتداخل في هذه القصص الحديث عن التجارة والصفقات والسياسة. ينتهي الحديث عن سالم بتحقق نبوءة فهد بأن مغامرة ستقضي على حياة سالم؛ فلقد سقط بطائرته في مطار الأحلام كيتي هوك بالولايات المتحدة. وكما توفي والده محمد بن لادن في حادثة طائرة، توفي سالم الميتة نفسها. يستمر ستيف كول في جمع كل المعلومات الممكنة عن حياة الأسرة ووضعها المالي والتجاري. اخترنا بعض اللمحات عن حياة سالم، لكن الكتاب مليءٌ بما يشبه قصصًا قصيرة عن أفراد هذه العائلة. ٨٠٠ صفحة من التحقيق الصحفي الاستقصائي المميز قدمها لنا ستيف كول، لا لنعرفَ عائلة بن لادن؛ فحسب بل تاريخ السعودية الحديث والمعاصر من خلال التأريخ لإحدى العائلات البارزة فيها.

(٣٧) أحمد حسين: البدايات والنهايات

كتب أحمد حسين مذكراته بوصفه فردًا عاديًّا يبحث عن سيرته بين هؤلاء الأفـراد، وقـد وجدَهُم اللبنةَ التي يقوم بها أي بناء، ووجد في تسـجيل قصته صفحـة أو وجهًـا من وجوه الحياة الاجتماعيـة والتاريخية لمصر في فترة ما من تاريخها.

ولقد عاش أحمد حسين بروح الفنان المناضل؛ تورَّط في السياسة، لكنها قوّت لديه حاسة الفضيلة الخلقية؛ بأن يقاوم الفساد، وأن ينشد عالـمًا أفضل من العالم الذي وُلد فيه؛ فلقد ولد عام ١٩١٠، تحت قبضة الإنجليز وحكومات القصـر، وتفتَّـح إدراكه على ثـورة ١٩١٩ التـي كانت آثارهـا على المجتمع ونتائجها فيه ما زالت حاضرة، وشـارك مع رهط من الشـباب المصريين في العمل السياسـي منذ بداية الثلاثينيات بـ «مشروع القرش» مع فتحي رضوان صديقه المقرَّب؛ فقد بدأت صداقتهم القديمة منذ عهد المدرسة الثانوية، ولم يكن أحمد حسين ليستطيع أن يبتعد عن فتحي رضوان؛ حتى في الإجازات المدرسـية؛ فيتواصلون بالرسـائل، ويتشـاركون عناوين الكتـب والروايات، وأخبـار السياسـة والتمثيل. هـذه الصداقة وصفها أحمد حسـين بأنها محور حياته العاطفية كلها، وامتدت هذه الصداقة إلى المشاركة في العمل الحزبي عـن طريق «حـزب مصر الفتـاة». والجامع بيـن الرجلين هو حـسُّ النضال، ودفاعهـم عـن المجتمع بـكل ما أوتيا من قـوة؛ خصوصًا مـع حملهم تراث الحزب الوطني، وموقف مصطفى كامل من الإنجليز دون ميوعة الوفد.

حاولـت هـذه المجموعة جمـع التبرعات مـع رفاقه لبناء أحـد المصانع

بـرأس مـالٍ وطنيٍّ بعيدٍ عن المحتل، وتشـكُل ما يعرف بحـزب مصر الفتاة، وأصدر حسين جريدة **الصرخة** في الثلاثينيات.

كان الحزب راديكاليًّا في مطالبه؛ يقف على يسار حزب الوفد المصري؛ فطالب بإلغاء الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة، وتمصير الشـركات الأجنبيـة، وجعـل اللغـة العربية هـي اللغة الرسـمية في الحيـاة التجارية، مع القضـاء علـى أمِّيـة الفلاح المصـري وجهله، وكفالـة الرخاء لـه؛ هذه بعض سـمات المرحلة الأولى للحزب. أما المرحلـة الثانية؛ فتبدأ مع عام ١٩٣٦، وصعد فيها التوجه الإسلامي لدى الحزب إلى ما يُعتبر قمة ما وصل إليه في الدعوة السياسية الدينية، والبعض يرى في هذا التوجه ردَّة فعلٍ على النشاط التبشيري، وأحداث فلسطين، والسياسة الاستعمارية، وتوطين اليهود. كانت تجربـة الحـزب قاصـرة، وفيها مـا فيها من التقلقل السياسـي، وعـدم الثبات الفكـري مع الاسـتناد إلى الزعامة الفردية لشـخص أحمد حسـين. صدرت الأحـكام العُرفية، ووجدت السـلطات في المؤتمـرات الصاخبة، والخُطب الناريـة صداعًـا يجـب التخلُّـص منه؛ فصـار مُطـارَدًا من الشـرطة في جميع الأوقات، وسـافر إلى بريطانيا بعد اغتيال حسن البنا، ومقتل النقراشي؛ هربًا من بطش حكومة الملك.

كان حسـين ضيفًا دائمًا على المعتقلات والسـجون، وصوتًا صارخًا في وجه السلطة الملكية والإنجليز، وعندما احترقت القاهرة في ٢٦ يناير/ كانون الثاني ١٩٥٢، اتجهت جميع الأصابع إلى أحمد حسين، وأصبحت الفرصة مواتيـة للحكومة؛ للتخلص منه على أعواد المشـانق، واسـتمات المحامون والرأي العام؛ ليفلتوا رقبة الرجل من حبل المشـنقة. سـلَّم نفسه، ومنعوا عنه الكتب والقراءة؛؛ فأضرب عن الطعام حتى عاد له حق المطالعة، وخشي أن

يقتل غدرًا في أثناء سجنه؛ فكان يصلي جالسًا؛ حتى لا تظهر رأسه من نافذة الزنزانة. جمعت عليه الحكومة خمس قضايا قديمة، بالإضافة إلى قضية حريق القاهرة؛ فسقطت هذه الأعباء النفسية عليه، وقد سجَّل معاناته في هذا السجن في مذكراته، وذكر كيف ساعدته الكتب فقال: «واللهُ وحدَه يعلم كيف كان يمكن أن أقطع وقت الفراغ؛ لو لم تكن رواية تولستوى **الحرب والسلام** هي التي أنكبُّ على مطالعتها؛ كلما خلوتُ إلى نفسي؛ فتشغلني عما يُحيط بي من همومٍ. كانت الصلاةُ كالعادة هي مَفزَعي؛ وخاصةً صلاة الفجر؛ حيث أصلي وأدعو في هدوء الليل ربي وخالقي أن يبدِّد من حولي الظلمات والغواشي، وأن ينجيَني ويخلصَني من الكَيد الذي يُكاد لي ولإخواني».

ولم ينقذه من هذا المصير إلا وقوع انقلاب يوليو ١٩٥٢. توقَّف النشاط السياسي لأحمد حسين عام ١٩٥٣، وكانت سنُّه لا تتجاوز ٤٢ عامًا؛ قضى أكثر من نصفها فاعلًا اجتماعيًّا بنشاطٍ لا يكل، ومناضلًا ضد الإنجليز ومشاركًا في العمليات الفدائية وحرب عام ١٩٤٨. أكمل حياته كاتبًا. اعتُقل أحمد حسين في عهد ثورة يوليو عدَّة مرات، واضطر إلى الهرب خارج مصر، ولما عاد كان قد تاب عن السياسة توبةً نصوحًا، وانصرف بكليته إلى الاهتمامات الفكرية، ثم سجَّل سيرته في ثُلاثية بعنوان: **أزهار، الدكتور خالد، واحترقت القاهرة**.

يبرز سؤالٌ عن دور حركة يوليو في انكسار الرجل؛ هل كان هذا الأمر شأنًا خاصًّا بأحمد حسين، أم أن المناخ الذي ساد الوضع السياسي في مصر بعد انقلاب يوليو، لم يعد يقبل بالاختلاف، أو وجود رواية أخرى مختلفة عن رواية الضباط؟ كيف أحالت هذه الحركة الرجل المناضل إلى المعاش المُبكِّر عن طريق القمع؛ وهو لا يزال في العقد الرابع من عمره؟ وكيف

عطَّلت ثورة يوليو طاقاتٍ لسياسيين ومثقفين واعدين؛ لو أتيحت لهم الفرصة دون آلة القمع؛ لكان لحياة هذا المجتمع وحيويته شأنٌ آخر.

مشهدٌ من النهايات

من المشاهد التي تأسر الإنسان بداية الرجل ونهايته؛ ففي صورة ناصعة ظلت في ذاكرة الفتى وديع فلسطين؛ يقف فوق الكرسي؛ يُلقي خطبةً والناس من حولة مُردِّدة مُعجبة بتشجيعٍ من أخيه؛ لكي يخطب أمام الناس، ظلَّ هذا الفتى الخطيب يتذكر هذه الصورة من طفولته، لتستمر معه خطيبًا في المحافل المختلفة ضد الإنجليز والملك.

وفي زيارة لوديع فلسطين مع أنور الجندي لأحمد حسين بعد أن مرض في نهاية حياته في بيته بجزيرة الروضة ـ استقبلهم أحمد حسين وهو جالسٌ على كرسيه المتحرك، وقد أطلق لحيته بغير تشذيبٍ، وقامت ابنته بدور المترجم لما كان يصدر منه من همهمات لا تُبين؛ في حين اغرورقت عيناه بالدموع وهو يصافح صديقَين قديمَين. وهنا تذكَّر وديع مواقف أحمد حسين الخطابية التي كانت تهزُّ المنابر هزًّا عندما كان حِزبه يحتفل بالمناسبات المختلفة، ورَثَى له وديع، وقد أصبح أحمد حسين عاجزًا عن الكلام، وإن كان ذِهْنُه شديدَ اليقظة. خرج وديع وقد قرَّر ألا يزور أحمد حسين مرَّةً أخرى؛ لأن زيارته في حالته المرضية أورثته ألمًا مُمِضًّا؛ فهو يألم له أنه أصبحَ بلا حولٍ ولا طَول. لكن الأقدار أرخت له في العمر؛ فتوفي حسين في سبتمبر/ أيلوب ١٩٨٢؛ تلك الروح التي كان الجلادون يدبرون لخنقها بحبل المشنقة عام ١٩٥٢، قبل ثلاثين عامًا من وفاته! فماتوا جميعًا؛ أما هو فطال عمره، وتُوُفِّي عن واحدٍ وسبعين عامًا. تبدو قصة أحمد حسين مثالًا على البدايات

والنهايـات، وفي كتاب وديع فلسـطين ذخيرةٌ مـن التجارب والحكايات عن الأُفول بعد المجد، وحكايات الشجن في مصائر الناس، وتعاقب الزمن.

تعرض أحمد حسين لصنوف التضييق على صحيفته، وعرض عليه فؤاد سـراج الدين وزير الداخلية رشـوةً / مبلغًا من المال؛ ليكفَّ عن حملته ضد الملـك فرفضهـا، وكتب يشـنع على حكم فؤاد سـراج الدين؛ هـل كان فؤاد يتخيل أن الحياة قد تمتدُّ به من وزارة الداخلية إلى السجن في نهاية عهد أنور السادات مع اعتقالات سبتمبر/ أيلول ١٩٨١؟

مشـهد من ضمن مشـاهد غرور الإنسـان، واطمئنانه على حركة التاريخ الخادعـة؛ تبدو نهايـة فؤاد غير متوقعة؛ كما كانت نهاية حسـين غير متوقعة، وتبدو ثقة الإنسان بإمكانياته مانعةً له أن يفكر في تبدُّل الأحوال، في السياسة كما الأدب والفن؛ لا شيء يثبت على حاله، ومن الفطنة أن نتعلم من مشاهد كثيـرة أن نتواضع بعض الشـيء. عندما حكيت لصديقـي عن فكرة البدايات والنهايـات أمدني بمشـهدٍ آخـر؛ لقطة فـي رواية **السـكرية** لنجيب محفوظ؛ حينمـا تخـرج أمينـة دون أن تهتم كثيـرًا بإذن السـيد أحمد عبد الجـواد لها؛ يجلس السيد أحمد عبد الجواد شاعرًا بالعجز؛ فبعد أن عاش الرجل مرهوب الجانـب، ينتهـي عمره مريضًا؛ ترى أمينة عجزه ولا تأبه به، قال لي صديقي: «لقـد أجهشـت بالبـكاء؛ لقد اسـتطاع نجيب أن يمـرر أمامي شـريط الزمن، ويذكرني بالدنيا أو متاع الغرور».

(٣٨) جيش الشرق:
حياة الجنود الفرنسيين في شوارع المحروسة

لم تفقد حملة نابليون على الشرق الأوسط سِحرها ولا شعبيتها على الرغم من فشلها عسكريًّا؛ خصوصًا في دورها الأساسي؛ كإحدى محطات لقاء الشرق والغرب، ووصول المدفع إلى البلاد العربية، وإعادة إحياء الحضارة الفرعونية القديمة، وقراءتها من جديد بعد فكِّ رموز حجر رشيد. لقد أراد نابليون من هذه الحملة أن تكون فرصةً لتكوين مستعمرات جديدة؛ عوضًا عن المستعمرات التي فقدها في جُزر الهند الغربية، وأن تصبح مصر فرصة لفتح أسواق جديدة للصادرات الفرنسية؛ والأهم توفير موطئ قدمٍ لمهاجمة الهند؛ كبرى المستعمرات البريطانية.

في هذا السياق؛ طالعتُ كتاب: **جيش الشرق: الجنود الفرنسيون في مصر ١٧٩٨-١٨٠١**؛ من تأليف تيري كرودي، ونقله للعربية د. أحمد العدوي، وصدر عن مدارات للأبحاث والنشر. يقصُّ علينا المترجم في مقدمته للكتاب شَغَفَه بحكايات الحملة الفرنسية منذ طفولته، وكيف أن أحداث الحملة كانت من أهم أحداث التاريخ التي تركت فيه أثرًا منذُ الطفولة حتى الآن؛ ففي الصيف، كان العدوي يزور قريته بني عدي في محافظة أسيوط، ويلاحظ مقابر منفصلة على زمام القرية، وتثير دهشته العناية التي كان أهل القرية يحيطون بها هذه المقابر. وعندما سأل والده عرف أن هؤلاء هم الشهداء من أهل القرية الذين سقطوا، في أثناء مقاومة الجنرال الفرنسي دافو؛ حيث نصب الجنرال مدافعه فوق تلة عالية حول القرية، وصبَّ حِمَم المدافع

على أهلها. وقد أخذتِ المترجمُ حميَّة الشباب، وأخذ على نفسه عهدًا أمام قبـور هؤلاء الشـهداء بتأليفِ كتـاب عن الحملة الفرنسـية يهديه لأرواحهم؛ وفي ترجمته لهذا الكتاب محاولةٌ للوفاء بعهده القديم.

يحتوي الكتاب على شهادات حيَّة لرجال الحملة (عسكريين ومدنيين)، ونلاحـظ أن المـؤرخ في هذا الكتاب سـيلعبُ دورًا لم يعتدْهُ المؤرخون ولا يفضلونـه؛ سـيتوارى تمامًا، وسـينكر ذاته، ويفسـح المجال لشـهود العيان؛ ليَرْوُوا تلك الأحداث التي شاركوا في صنعها بأنفسهم.

بلـغ عديد جيش نابليـون ٣٤ ألف جنديٍّ، وتمت تغطية تكاليف الحملة من المال المسلوب من سويسرا. وغطَّت شهادات الكُتَّاب جوانبَ كثيرة من أفكار الجنود وهواجسهم؛ منذ انضمامهم للحملة عبر موانئ تولوز وجنوة؛ إذ لم يصرح نابليون بوجهة الحملة، وبدأت التخمينات في صفوف الجنود، ودار الكثيرُ مـن اللغـط؛ هل هـي البرتغـال أم مصر؟ وتـداول بعض الجنود الشائعات بأن الحملة ذاهبة إلى صقلية أو مالطا؛ حتى علماء الحملة الفرنسية لم يعرفوا وجهة الحملة ومسارها، ومَن رجحوا كفَّة مصر؛ فإنما فعلوا ذلك لأن قادة الحملة قد استولوا على كل الكتب والخرائط عن مصر وسوريا.

ومن الأمور التي يُشـير إليها الكتاب قلَّة السـفن التي تم تجهيزها لحمل الخيـول؛ ممـا نتـج عنه قلة شـحن الخيول فـي الحملة. وقد حمل الفرسـان مسـتلزمات للخيول على السـفن بدون جيادٍ؛ على أمل أن يغنموا خيولًا في معاركَهم لاحقًا. وينقل الكتاب معاناة بعض الجنود من دُوار البحر، ونتعرف على نوع الطعام في سفن الحملة، ونرى سوء تخزين الطعام وفساده، ويصف أحد الجنود حالتهم بأنهم قد حُشروا حشرًا كالأنشوجة في البرميل؛ فلك أن تتخيل سـفينة المشـرق أحد أكبر سُفن الحملة تحمل ألفي جندي، وألفًا من

طاقم البحرية، وأكثر من مئتين أُخريين من الجنرالات والقادة والإداريين؛ فضلًا عن ١٣٢ مدفعًا ثقيلًا.

أما المقصورات في السفن؛ فكانت ضيقة مثيرة للاشمئزاز، وقد يجتمع فيها عشرون رجلًا بين سكِّيرٍ ومريض، أما الأواني الفخَّارية؛ فهي قذرةٌ لا تخلو من أثر شحوم اللحوم الفاسدة، مع رائحة كريهة من أثر ترسُّبات مرق الشحوم القديمة، وقتال لا يهدأ من جانب السُّوس على الخضروات؛ فضلًا عن المياه العكرة كريهة الرائحة، والبيض الفاسد، والكعك المغبرّ. وبالإضافة لهذه المعاناة مع الطعام؛ كان هناك القلق الدائم من هجوم نلسون أمير البحر الإنجليزي على سفن الحملة الفرنسية.

وصل الجنود إلى مصر، وكانت الانطباعات الأولى مخيبة للآمال تمامًا؛ فليست هناك شجرة واحدة، أو آثار عمران محسوس، وعبث أحد الجنود وهو يشير إلى الصحراء: انظر هناك؛ هذه هي الهكتارات الست التي وعدنا بها نابليون. وشعر أحد الجنود الآخرين بالإحباط؛ فليس ثمَّ شيءٌ يؤكل، ولا يعرفون لغة أهل البلد. ومع الوقت تبدَّدَ أيُّ أملٍ في العودة إلى فرنسا بعد شهرٍ واحد من الوصول إلى مصر، بعد أن نجح الأسطول الإنجليزي في تدمير السفن الفرنسية في أبي قير، وفي لحظة انفجار سفينة المشرق كانت الإسكندرية مضاءةً في الليل بفعل تفجُّر الذخائر؛ وكأنهم في وَضَح النهار. وساءت المعنويات، ولم يكن استهلالًا غيرَ موفَّقٍ فحسب؛ ولكنه كان أمرًا يُنذر بسُوء طالعٍ عظيم؛ كما عبَّر أحد الجنود.

بحث الجنودُ الفرنسيون عن الطعام كلما اقتربوا من المدن المصرية، ويحكي أحد الجنود عن ابتهاج بعض الأفراد من المصريين بالحصول على أزرار المعاطف الفرنسية، وجرب الجنود الفرنسيون الموسرون اقتناء العبيد،

وحاز العديد من الجنود الفرنسيين غنائم وفيرة بعد معركة الأهرام (إمبابة) التي سرعان ما أنفقوها ببذخٍ، واشترى معظمهم الحمار الريفي الصغير (الجحش)، وينقل أحد الجنود مشهد تسابق الفرسان الفرنسيين على الحمير في الحواري الضيقة والمتعرجة، ونقل الجبرتي هذا المشهد بقوله: «كان الكثير من الفرنسيين يظلُّ طوالَ النهار فوق ظهر الحمار بدون حاجة سوى أن يجري به مسرعًا في الشارع».

وتصف لنا بعض الشهادات في الكتاب مشاعر عدَّةِ جنودٍ فرنسيين في الحمامات العامة، وانبهارهم بالخدمة فيها؛ لقد خرج أحد الجنود من هذه الحمامات قائلًا: «لقد انتابني شعورٌ جارفٌ بالليونة والخفة؛ تمامًا كطفلٍ حديث الولادة يتنسَّمُ نسمات الحياة للمرة الأولى، وعاد الجندي لهذه التجربة عدَّةَ مرات بعد ذلك أحيانًا بمفرده، أو بصحبة أصدقاء له».

لم يكتف بذلك الفرنسيون. لقد تكيَّفُوا مع الطرق المصرية الأخرى؛ مثل شرب القهوة القوية، وتدخين التبغ عبر النارجيلة، وعانى الفرنسيون من افتقاد الخمر في القاهرة. وابتكر بعضُ الجنود شرابًا مصنوعًا من الحشيش، وقاموا بتدخين الحشيش، وأنشأ مقاول فرنسي مصنعًا لصناعة البراندي وعرق القصب، ومع استمرار الطلب على الحشيش، أصدرت القيادة الفرنسية في عام ١٨٠٠ قرارًا بحظر تدخين بذور القنب الهندي؛ الحشيش.

يصف الكتاب معاناة جنود الحملة الفرنسية مع الضجر والملل والأوقات الطويلة، واختلاف المناخ ومتاعب الحرارة الشديدة، وخوفهم من التنزه؛ مخافة هجوم العربان عليهم، ولم يكن لديهم أنشطة كثيرة إلا لعب القمار والسَّمر، وقامت علاقات بين الجنود الفرنسيين وبعض العاهرات المحليات، وتعجب الجنود من ارتداء النساء للبرقُع، ووصف بعضهم نظام الحرملك.

يشير الكتابُ إلى الانضباط العسكري الصارم بين صفوف القوات الفرنسية؛ مثل فرض عقوبة الإعدام على نطاقٍ واسع من الجرائم، وتم تحذير الجنود من بيع الزي الرسمي للجيش، أو بيع الأسلحة لسكان الإسكندرية، ويصف الكتاب نظام العدالة والعقاب في جيش الفرنسيين، ولا يكتفي بذلك؛ بل يرصد معاناة الجنود مع الحشرات؛ مثل البراغيث، والناموس، ولدغات العقارب. ومع الحشرات جاءت الأمراض؛ خصوصًا الطاعون الدُّبَّلي.

وينقل لنا الكاتب شكوى علماء الحملة من لا مبالاة الجنود الفرنسيين بالاكتشافات العلمية؛ فقد تخيلوا أن مراد بك أحد كبار قادة المماليك يملك جملًا أبيض مُحمَّلًا بالذهب والجواهر، ولم يكن شيءٌ يشغلهم إلا الحديث عن مراد بك وجَمَلِه المزعوم.

يستمر الكتاب في التقاط تفاصيل الحياة اليومية للجنود؛ مثل استبدالهم الخيول بركوب الجمال، وارتدائهم ملابس محلية تُناسب حرارة مصر، ويشرح الكتاب اختلاف طريقة التشكيلات القتالية بين الفرنسيين، وبين المماليك، ونقرأ شهادات بعض الجنود عن شجاعة المماليك، ويشرح الكاتب تقنيات الحرب الجديدة التي استخدمها الفرنسيون، ثم يصل بنا إلى الانسحاب الفرنسي المُذلّ أمام أسوار عكا؛ الذي لا يماثله إلا الانسحاب الفرنسي من موسكو ١٨١٢، ويناقش الكتاب مدى مسئولية نابليون في ترك مرضى الطاعون ليفترسهم الموت؛ بل أمره بتسميم الجنود المرضى؛ وهي التهمة التي حاول أن يدافع فيها عن نفسه في مذكراته.

يتضح لنا عبر الشهادات كيف انهارت سمعة نابليون بين الجنود؛ فلم يعد ذلك القائد الملهم الذي لا يُقهَر بعد فشله في اقتحام عكا، وسوء إدارة الحصار، ولا مبالاته بالجَرْحَى من جنوده، ثم عودته سرًّا إلى فرنسا، تاركًا

كليبر ليقود الحملة خلفه بدون أسطولٍ فرنسي بعد أن أغرقه الإنجليز في أبي قير. لقد فقد جيش نابليون ثُلُث رجاله تقريبًا؛ أي ما يعادل ١٥ ألف رجلٍ؛ بين قتيلٍ في المعارك، وضحية للأمراض والأوبئة، ولقد رأينا في الكتاب كيف عانى الجنود من الظروف القاسية في مصر وفلسطين؛ بسبب الحرارة الشديدة والعطش وتفشِّي الطاعون الدُّبَّلي؛ الذي اجتث الكثيرين دون تمييز.

تبقى لنا ملحوظة عن أن هذا الكتاب يقرِّبنا من حقل دراسة حياة الجنود والأفراد العاديين في الحروب، وهذا النمط من الكتابة لدينا نماذج متفرقة تُعبِّرُ عنه مثل **كل رجال الباشا** عن جيش محمد علي باشا، للمؤرخ خالد فهمي الذي اعتنى بحياة الأنفار والجنود في جيش الوالي. وهناك شهادة الجندي إحسان الترجمان من فلسطين في الحرب العالمية الأولى في كتاب **عام الجراد**، ويمكن مقارنةُ تفاصيل همومه وأفكاره بتصورات قائده جمال باشا التي عبَّر عنها في مذكراته.

وهناك مذكرات عبد الله دبوس الضابط البيروتي في الجيش العثماني، وهناك **مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس** لأحمد حجِّي، أو تجربة الأسر لدى الإسرائيليين التي عبَّر عنها فؤاد حجازي في كتابه **الأسرى يقيمون المتاريس**، والرواية التي كتبها محمد حسين يونس **خطوات على الأرض المحبوسة**؛ التي تصف تجربة الأَسر ثمانيةَ أشهر في سجن عتلِيت في إسَرائيل؛ بالإضافة للدراسات التي اعتنت بتتبع تفاصيل حياة الجنود؛ مثل كتاب **الحرب العالمية الأولى** لنيل هايمان؛ الذي اعتنى فيه كاتبه بدراسة حياة الجنود، ونمط الحياة في الخنادق، والطعام في الحرب، ودراسة تجربة التمريض، ومشاركة النساء في الحرب العالمية الأولى، وكيف كانت الحياة

في ٥٢ شهرًا في الحرب العالمية الأولى، وغيرها من الزوايا التي تنظر لحياة الجندي العادي، وتعتني بقصته وتحاول تخيل نفسيته في هذه الصراعات. ولدينا كتاب **حكاية الجند: الحرب والذاكرة والمذكرات في القرن العشرين** لصموئيل هاينز؛ الذي يُصنَّف كأقرب دراسة في أدب الفظاعة، وتتبُّع مآسي الجنود في الحروب، والكتاب يبحث في معنى أن يجد المرء نفسه فى الخطوط الأمامية مشاركًا فى القتال وضحية له. ويجد هاينز أن أفضل وسيلة لبلوغ هذه المعرفة الخاصة هى دراسة المدوَّنات الشخصية للجند المشاركين فى القتال.

وبالطبع يمثل كتاب تيري كرودي الذي عرضنا له نموذجًا لهذا الصنف من الكتب، وقد لا يكون القارئ العربي حريصًا كلَّ الحرص على رفاهة الجنود المحتلين لمصر؛ غير أن الكتاب يحكي لنا بطريقة غير مباشرة طريقة الحياة في مصر في ذلك الزمن؛ من خلال انخراط جنود الحملة الفرنسية في هذه البيئة.

(٣٩) القافلة: حكاية أول العرب الأفغان عبد الله عزام

أُمسيَّتي اليوم مع كتاب: **القافلة: عبد الله عزام وصعود الجهاد العالمي** للكاتب توماس هيغهامر؛ الذي سبق وأصدر: **الجهاد في السعودية**. صدر الكتاب وترجمة مميزة لعبيدة عامر. يقدم المؤلف في هذا الكتاب سيرة مُعمَّقة لعبد الله عزام؛ الشيخ الفلسطيني الذي قاد حشد المقاتلين العرب إلى أفغانستان بنهاية الثمانينيات، ولعب دورًا أساسيًّا في تحويل الحركة الجهادية إلى حركة عالمية.

يحكي المؤلف في بداية الكتاب عن مقابلته مع حذيفة؛ أكبر أبناء عبد الله عزام الذين ما زالوا على قيد الحياة، لقد كان هذا في أيلول/ سبتمبر لعام ٢٠٠٦؛ حين ذهب المؤلف لمقابلة حذيفة من أجل أطروحة الدكتوراه التي يعدُّها عن الجهاد في السعودية، القصة التي كان والده عاملًا داعمًا مُهمًّا بها.

أعطى حذيفة إلى توماس هيغهامر المعطف المخضَّب بالدم قائلًا: «شُمَّه! هل تستطيع أن تَشُمَّه؟ المسكُ؟ دمُ الشهداء رائحتُه مِسكٌ». لم يستطع الكاتب بأي شكلٍ أن يحس شيئًا سوى أثر قطعة قديمة من الملابس؛ عدا عن أنه لم يكن يعرف رائحة المسك أساسًا. كان يمسك المعطف الذي ارتداه عبد الله عزام يومَ اغتياله عام ١٩٨٩، تناولوا العشاء الذي أعدتَّه أرملة عزام؛ فجعلت رائحة الدجاج المشوي تحدي الشمِّ أكثرَ صعوبةً، قال حذيفة

للمؤلف، كاسرًا حاجز الصمت: «أعلم أنك غالبًا لا تصدق هذه الأشياء؛ لكنك كنت ستفعلُ لو كنت في أفغانستان».

في تلك اللحظة أدرك كاتبنا أن كتابه التالي سيكون عن صاحب المعطف. لقد مرَّ هيغهامر باسم عبد الله عزام كثيرًا من المرات أثناء بحثه عن القاعدة؛ بدءًا من يوليو/ تموز ٢٠٠١، عندما كان متدربًا شابًّا في مؤسسة أبحاث الدفاع النرويجية؛ حيث وجَّهه رئيسه بيرنار ليا للعمل على شيءٍ يسمَّى «شبكة بن لادن».

يلفت توماس نظرنا إلى أن هناك على الأقل خمسَ سيرٍ باللغة الإنجليزية لأسامة بن لادن، وبينما دُرس سيد قطب بشكلٍ واسع لدرجة أن هناك كتابين عن كتابين من تآليفه؛ فلا توجد سيرة عن عزام؛ لذلك تحمس لكتابة سيرة تؤرِّخ لحياة عبد الله عزام، ولتجربة الحركة الجهادية معه.

وُلد عبد الله عزام في عام ١٩٤١ في الضفة الغربية، وخرج منها في أعقاب نكسة ١٩٦٧، ووصل إلى الأردن على قدميه. واجه صعوباتٍ لإيجاد عمل في عُمان، وانتقل إلى السعودية لمدَّة عامٍ كامل للعمل هناك. وفي الصيف التالي عاد إلى عُمان، ووجد عملًا؛ كمدرِّس في مدرسة التاج الثانوية للبنات.

يشير الكتاب إلى أثر حرب ١٩٦٧ عليه. كان عزام شابًّا في الثامنة والعشرين من عمره، وقد انضمَّ إلى الإخوان فترة مراهقته. جاءت أحداث النكسة لتحرك فيه مشاعر الحاجة للقتال؛ انضمَّ للفدائيين، وقاتل على حدود الأردن قريبًا من معسكرات فَتْح، وهكذا كانت مشاركته الأولى في العمل المسلح وزوجته حامل في الشهر الثامن؛ يزورها أربعة أيام في الشهر، وينضم للكتائب المقاتلة.

يتتبع الكتاب قصة حياة عزام خطوة خطوة، ويثير التساؤلات حول كلِّ قرارٍ تتخذه هذه الشخصية؛ ليقرأ من خلالها تاريخ المنطقة، يحاول الكاتب الإجابة على سؤال: «لماذا قد ينضمُّ أي شخصٍ لحرب قَصيَّة، بينما بلده نفسها تحت الاحتلال؟ وكيف ظلت فلسطين حاضرةً في وجدان عزام؛ حتى وهو يقاتل في أفغانستان».

توقَّف عزام عن العمل مع الفدائيين بعد أيلول الأسود عندما قررت حكومة الملك حسين وضع نهاية لعمليات فَتح، والحركات الأخرى عام ١٩٧٠، لاحقًا سيفتتح واحدًا من مقالاته العديدة حول فلسطين بـ **مجلة الجهاد** بقوله: «إن وجودنا في أفغانستان الآن لا يعني أننا نسينا فلسطين»، بالطبع لم تكن العلاقات ودية مع فتح والحركات اليسارية الأخرى، ويلفت الكاتب نظرنا إلى أن عزام لا يكون لاذعًا وساخرًا (ومُسلِّيًا) عند حديثه عن موضوعٍ ما؛ بقدر ما يكون عندما يناقش موضوع اليساريين الفلسطينيين، رغم أنه كانَ سعيدًا بالاشتراك بنشرات «منظمة التحرير الفلسطينية» لمتابعة الأوضاع في فلسطين.

بعد ذلك وصل عزام إلى دمشق في الوقت الذي بدأت فيه العلاقة تتدهور بين الإخوان والنظام بشكلٍ واضح؛ حيث جلب انقلاب عام ١٩٦٣ نظامًا بعثيًا كان علمانيًا بشكل أكثر وضوحًا من الحكومات السابقة. في دمشق تعرَّف عزام على الثوري مروان حديد؛ الذي قاد عمليات ضد النظام السوري، رغم أنهما التقيا عمليًا للمرة الأولى في فلسطين، لا سوريا. وفي بداية الستينيات أو منتصفها، زار حديد الإخوان المسلمين في جنين، وتعارف الاثنان بشكلٍ سريع. يُوضِّح الكاتب أن طُرقهما لم تتقاطع في سوريا أثناء أيام الجامعة، ولكن في عام ١٩٧١، أثناء رحلة إلى سوريا، زار عزام حديدًا

في مخبأ له بدمشق، قبل أن تعتقل قوات الأمن السورية حديدًا بفترة قليلة. عزام، بعد ذلك، اكتسب مروان حديد احترام عبد الله عزَّام الشديد؛ فقد أهداه لاحقًا كتاب: **عِبر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر**، ١٩٨٦، وقال لاحقًا: «إن حديد كان أشجع شخص التقاه في حياته».

من الأحداث التي أثَّرت في عزام خبر إعدام سيد قطب؛ لقد انزعج، وحفَّزت لديه أول نشاط من المعارضة السياسية؛ عبر برقية احتجاج للحكومة المصرية، كتب عزَّام لاحقًا: أذكر أني كتبت برقية لعبد الناصر أقول فيها: «الدعوة لن تموتَ، والشهداءُ خالدون، والتاريخ لا يرحم».

يشير الكاتب إلى أن عزام كان غاضبًا؛ لأن سيد قطب كان مُلهمه الرئيس، حزن عزام بالتأكيد على أنه لم يحظَ بفرصة لقاء قطب، لكن عزام عندما انتقل إلى القاهرة عام ١٩٧١؛ كان من أول الأشياء التي قام بها التواصل مع عائلة قطب؛ ممثلةً في شقيقة سيد: أمينة، وعندما خرج محمد، شقيق سيد، من السجن في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧١، التقاه عزام في أول فرصة متاحة، ويبدو أن لحظة إعدام قطب جعلت عزام يحترم سيد قطب، ويقف منه موقف المريد للشيخ، وفي إحدى العمليات الفدائية التي اشترك فيها عزام عام ١٩٧٠، أطلق عليها عملية سيد قطب.

علاقة عزام وآل قطب طويلة وممتدة في الكتاب؛ فمحمد قطب سيسافر إلى أمِريكا مع عزام عام ١٩٧٧، وسيصبح زميله بالقسم في مكة عام ١٩٨١، والشخص الذي سيزرع في عقل عزام لذهاب إلى باكستان هو كمال السنانيري زوج أمينة قطب.

كانت حرب ١٩٦٧ الشرارة التي اكتشف فيها عزام نفسه، وسيتطلب

الأمر ثمانية عشر شهرًا فقط بعد ذلك لنرى عزام يحمل سلاح كلاشينكوف على الحدود الأردنية-الإسرائيلية؛ يقف على هضاب إربد وجبالها، وبين كهوفها وصخورها، وفي الأغوار، وعلى ضفاف اليرموك؛ يرتدي الكاكي ويحمل الكلاشينكوف والمصحف الذي لا يفارقه في جيب صدره.

يشير الكاتب توماس هيغهامر إلى أنه منذ عام ١٩٦٩ كان عزام يأخذ الدور الذي سيشتهر به أثناء الجهاد الأفغاني؛ أي دوره كخطيب يجلب الأخبار، وقصص الشهداء من الجبهة للناس؛ حيث خطب في الناس، وذكر كرامات الشهداء. وهكذا يكشف الكتاب أن سمة سرد معجزات الشهداء – مثل رائحة مسك دم الشهيد – لم يكن شيئًا اخترعه عزام في الثمانينيات. سيطوِّر هذه السمة بشكل أكبر في كتبٍ لاحقة؛ مثل: **آيات الرحمن في جهاد الأفغان**، ١٩٨٣، لكنها كانت حاضرةً في ذهنه بوضوح في الستينيات.

يأخذنا الكتاب في رحلة مع عزام منذ البدايات، ومعاداته المبكرة للشيوعية منذ شبابه، والخطبة التي خطبها في إربد في الذكرى المئة لميلاد لينين عام ١٩٧٠؛ نحتاج سنوات لنراه يكتب كتابه **السرطان الأحمر**؛ مُحذِّرًا من الشيوعية، ويقاتل السوفييت في أفغانستان.

هكذا نرى عزام يتجنب آثار حادثة أيلول الأسود، ويدخل السبعينيات، وقد ألهمته تجربة الفدائيين؛ يلخِّص الكاتب أثر تلك التجربة عليه بقوله: «لقد أعطته طعم الحياة العسكرية بكل مشاعرها: شعور المعنى، وإثارة المغامرة، والفخر باختراق المصاعب، وسرور الأخوة». لقد أقنعته كذلك بأن الحركة الإسلامية ما زال لها روحٌ قتالية؛ خصوصًا بين شبابها، وكل ما يتطلبه الأمر

هو إيجاد السياق المناسب لإشعالها. وسيتطلب الأمر عقدًا كاملًا قبل أن تأتي هذه الفرصة.

يبدأ بعدها عزام فصلًا جديدًا أكاديميًا في حياته؛ حيث سافر إلى القاهرة لدراسة الدكتوراه في الشريعة، عاد بعدها إلى الأردن؛ حيث سيدرس في الجامعة الأردنية للأعوام السبعة التي أعقبت عودته، كان هو وزميله أحمد نوفل، هما أشهر المحاضرين في القسم، وهكذا يشير الكاتب إلى أن عزام كان عالمًا إسلاميًّا يملك مكانةً ما حتى قبل أن يصنع اسمه بالجهاد الأفغاني.

كان عزام كتلةً من النشاط الحركي؛ تركت حادثة أيلول الأسود نُدوبًا في شخصيته، أو جُرحًا نرجسيًّا؛ حيث شعر أن هذه الحكومة قسَت في معاملة الفدائيين. في أثناء زيارة للملك الحسين للجامعة، جذب عزام الانتباه برفضه الوقوف، بينما يُعزف السلام الملكي الأردني، تنتهي السنوات الأردنية بقرار من الحاكم العام، ورئيس الوزراء مضر بدران بفصله من الجامعة، يكمل الكاتب تتبُّع رحلة عزام بالتأريخ لسنواته في الأردن وصراعاته مع الحكومة، وتحوله لعبءٍ حتى على جماعة الإخوان؛ ساعتها سنفهم كيف ساعدت محاولات الحكومة الأردنية لإسكات عزام بتحويله إلى مواطن بلا جذورٍ في المنفى، ينتمي للعالم الإسلامي، أو مسلم أممي يبني جمهورية حالمة من الجهاديين.

هكذا ندرك أن عزام لم يستيقظ صباحًا في أحد الأيام ليقول: سأترك العمل في الجامعة، وأنضم للجهاد الأفغاني؛ الانتقال إلى باكستان كان عملية من خطوتين؛ نُفي بخطوتها الأولى، وعندها فقط - بلا كثيرٍ يخسره- قرر

أن يُجرِّب حظَّهُ في جنوب آسيا. مغادرته من الأردن كانت نتيجة لنشاطه السياسي الفجّ.

يلتقط الكاتب نقطةً مميزة؛ وهي منتشرة في فنون كتابة السير الذاتية؛ عندما يصف عزام خروجه من الأردن بأنه كان محنة، لكنها تسببت في فرصة عظيمة من وجهة نظره ليغادر إلى أفغانستان؛ يقرأ الكاتب تلك النصوص التي كتبها عزام لاحقًا على أنها نوع من التنافر المعرفي؛ حيث نميل نحو تعديل وصفنا للماضي، لنجعل قصص حياتنا أكثر اتساقا. وينشر رسالة من عزام لقيادة الإخوان تظهر مدى انزعاجه منهم، ومن التضييق عليه، لم يكن عزام مسرورًا بالخروج من الأردن، لكنه حوله لاحقًا إلى نوع من دراما تطور قصة حياته الشخصية المثيرة إلى لحظة الذِّروة؛ لقد قرأه قراءةً مغايرة بعد ذلك.

طربتُ لهذه الفكرة التي عالجها الكاتب حول أوجه الاختلاف بين روايتنا للحدث في وقته، وكيف نفسره لاحقًا؛ حينما تلعب الذاكرة الانتقائية دورًا في بناء سرديتنا حول روايتنا عن حياتنا، لم يكتب الكاتب سيرة تبجيلية لعزام، لكنه لم يقلِّل من احترامه للشخصية التي يكتب عنها طوال الكتاب. لقد حاول أن يشرح حياة عزام بأفضل طريقة صادقة؛ ليترك الحكم للقارئ، رواية الكاتب عن عزام تتفهَّم ميله للتدين منذ الصغر، وحَّسه الديني، وسعيه نحو التقوى، ولا تستبعد البُعد الأخروي في تفكيره، أو تحيله لأسبابٍ مادية؛ كما يفعل البعض. كل تفصيلة يحشد لها المؤلف المراجع في الهوامش؛ لا عجب أنه قضى في هذا الكتاب عشر سنوات يتتبُّع كل معلومة، ويقابل عشرات الشخصيات ليبنيَ تصورًا عن حياة واحدٍ من أهم شخصيات الحركة الجهادية.

اختيارات الكاتب لعناوين الفصول فيها نزعةٌ أدبية موفَّقة، في الفصل المعنون: «ابن السبيل»؛ يتناول فيه الكاتب المرحلة الانتقالية بعد النفي من الأردن؛ حيث غادر عزام الأردن، وتراكمت عليه ديون بقيمة ١٥ ألف دينار. كانت البداية الجديدة في السعودية؛ حياته هناك كانت تدور حول التدريس والخطابة والكتابة، عام ١٩٨٠ و١٩٨١، نشر عدة مقالات في **مجلة المجتمع**؛ مجلة الإخوان المسلمين الصادرة في الكويت ذات الانتشار الواسع في العالم العربي؛ حيث كان يعرف رئيس التحرير، إسماعيل الشطي جيدًا؛ فقد جمعتهم القاهرة أثناء دراستهم في مطلع السبعينيات.

سيدرِّس عزام لفصلٍ واحد فقط في جامعة الملك عبد العزيز – الفصل الثاني من عام ١٩٨١ -؛ لأنه سينتقل مُجدَّدًا في ذلك الخريف. كان واضحًا منذ البداية أن السعودية مجرد محطة مؤقتة في الطريق لشيءٍ آخر. أحد أسباب ذلك هو أن العائلة لم تحب البقاء في مكة؛ في هذه اللحظة، التقى بكمال السنانيري الذي حكى له عن الصراع في أفغانستان، كانت فترة فارقة في التاريخ؛ فقد شهدت الثورة الإيرانية، واتفاق كامب ديفيد، وحادثة جُهَيمان، والحرب الإيرانية العراقية، والحرب الأهلية اللبنانية، وأحداث حماة، والاحتلال الإسرائيلي للبنان، واغتيال أنور السادات. يقرِّر عزام التوجه إلى اليمن أو أفغانستان، ويستقر على اختيار أفغانستان.

في الفصل السادس يدرس المؤلف كتابات عزام قبل مرحلة باكستان، ويمر على أطروحة الدكتوراه وغيرها من كتابات عزام؛ يحاول الكاتب استنطاق قراءات عزام وأفكاره من خلال نصوصه. من الطريف البحث في السطور عن مقدمات الأفكار التي تبناها عزام لاحقًا.

عـزام كان عمـره أربعيـن عامًا فقـط عندما وصل إلى باكسـتان، يتسـاءل الكاتب: ما الذي أشـعل الشـيب في لحيته مبكـرًا؟ والإجابة المختصرة هي الخلافـات الأفغانيـة التـي تدخـل فيها كوسـيط؛ لـم يندفـع الجهاديـون إلى أفغانسـتان عندما غزاها السوفييت؛ لقد تطلب الأمر أربعة أعوامٍ من الحرب ليصل عدد متطوعي الحرب العرب إلى مئة شخصٍ، وهكذا لـم يكن اندلاع الحـرب بذاتهـا هو السـبب؛ بل جهود التجنيـد الكبيرة لمغامريـن مثل عزام داخـل الحرب كانت هي التي جلبت أعدادًا كبيرة من المتطوعين؛ نفهم بعد ذلك جدول أعمال عزام في باكسـتان، دخوله كوسـيط بين الفرقاء الأفغان، وصداقتـه مع عبد رب الرسـول سـيَّاف، والحفاوة التي اسـتقبل بهـا حقَّاني العرب؛ التي لولاها لـم يكن العرب ليجدوا العرب موطئ قدمٍ في أفغانستان. لـم يكن مسـتغربًا أن يبدأ العربُ في معسـكرات سـياف، وينتهوا في جبهات حقاني؛ فحقاني الذي لقبه مراسل فرنسي بـ هو تشي منه [السياسي والثوري الفييتنامـي] الإسـلام؛ فبينمـا كان سـياف يُوفِّـر معظـم معسـكرات التدريب الكبيرة، فيما قدَّم حقاني فرصةً لقتال حقيقي.

يعود المؤلف لمذكرات بعض القادة الباكسـتانيين، وضباط المخابرات؛ ليصف دور جهاز المخابرات الباكستاني في الحرب؛ حيث أشرفت باكستان على دخول الأسـلحة إلى أفغانسـتان. لقد مُني مسـعى عبد الله عزَّام لتوحيد الأفاغن واستدخال الإخوان المسلمين بالفشل، لكنه نجح بتطويع الجمعيات الخيرية، وبناء علاقات محترمة مع الحكومتين السعودية والباكستانية.

نرى الشخصيات العربية التي تعرفت على عزام هناك بالتفاصيل الدقيقة والأسـماء؛ مثل زيارة راشـد الغنوشـي لعزام في بيشـاور؛ حيـث أجرى معه الغنوشـي مقابلةً لـ **مجلـة الجهاد** عام ١٩٨٩، ويفنِّد الكاتـب قضية مسـئولية

الأمريـكان عـن صناعة الحالة الجهاديـة في أفغانسـتان، ويضعنا في الظرف الجيوسياسي الذي سمح بتكون الظاهرة هناك.

يتتبع المؤلف علاقة عزام بأسامة بن لادن، ومتى كان اللقاء الأول بينهما؛ الـذي يرجِّـح، وللمفارقـة، أنه كان فـي ولايـة إنديانا في الولايـات المتحدة عام ١٩٧٨، يكمل توماس شـرح الدور الثاني الذي لعبه عزام؛ وهو حشـد الحكومات والمتبرعين لدعم الجهاد الأفغاني.

فـي خريـف عـام ١٩٨٤؛ تبـرع أسـامة بـن لادن بمبلـغ بيـن ٥ إلـى ١٠ مليـون دولار؛ حيث أسـهم في بنـاء مكتب الخدمات الـذي يعدُّ أهم منظمة فـي الجهاد الأفغاني؛ يـدرس الكاتب دور عزام كمجنِّد الذي كان متفوقًا فيه أكثر من دوره كمدير، وتجربة مكتب الخدمات وهو المكتب الإداري الذي يستقبل المتطوعين ويوزعهم على الجبهات، ويقدم الدعم اللوجيستي، وقام المكتب بالإشراف على بناء مدرسة لتعليم أبناء المقاتلين، وسعى للحصول على اعتراف بشـهادات المدرسة من حكوماتٍ عربية؛ مثل الأردن، واليمن، وأصدر **مجلة الجهاد**.

يؤرِّخ الكتاب لحياة عزام في أفغانستان، ودوره السياسي والعسكري، إلى أن اغتيل في ظروفٍ غامضة عام ١٩٨٩ في مدينة بيشاور الباكستانية.

اعتمـد تومـاس هيغهامـر في كتابـة الكتاب علـى الكثير مـن المقابلات، وتحدث مع ما يقارب سبعين شخصًا؛ بينهم أساطير حية للحركة الإسلامية الحديثة؛ مثل عبد رب الرسـول سيَّاف في أفغانستان، وأبو محمد المقدسي في عُمان، وكذلك قابل عصام العطار، والأمير تركي الفيصل، وستيف كول مؤلف الكتاب المهم: **آل بن لادن** وغيرهم.

ذهب المؤلف إلى قرية عزام: سيلة الحارثية؛ حيث أخوه، وابن عمه، وأفراد آخرون من عائلته؛ حيث رأى أماكن كان يرتادها في طفولته وصباه. ذهب إلى عمان عدة مرات ليقابل ابن عزام حذيفة، وأفرادًا آخرين من عائلته. لم يستطع مقابلة أرملته، أم محمد، لكنها أجابت أسئلته عن طريق وسيطٍ في لندن، وهكذا حكى لنا عن عبد الله عزام زوجًا وأبًا. استطاع المترجم عبيدة عامر أن ينقل لنا نصًا رائقًا، وفي منتهى السلاسة والتشويق، والأهم أنه حافظ على روح النصّ العربية بالعودة إلى نصوص عبد الله عزام نفسه؛ بلغته وبتعبيراته العامية أحيانًا؛ كما في خطبه.

لقد تعولم الجهاد عالميًا بسبب القمع المحلي؛ هذه إحدى الخلاصات التي يصل إليها الكاتب؛ فالكتاب ليس سيرةً فقط؛ بل بحثًا اجتماعيًا بجانب السرد التاريخي؛ حيث يحاول ملء الفجوات ببحث ثلاثة خطوطٍ من الاستقصاء؛ الأول هو حول الحقائق الأساسية لسيرة عزام. ما هو أصله؟ وما الذي شكّله كمفكّر؟ ما الذي حفز القرارات الكبيرة في حياته؛ مثل انتقاله لباكستان عام ١٩٨١؟ وماذا كانت آراؤه؟ الثاني معنيٌّ بأسباب تأثير عزام. لماذا أصبح مؤثرًا للغاية؟ ما الذي فعله ليجنِّدَ العديد إلى أفغانستان؟ لماذا كانت أفكاره جاذبة بذلك الشكل؟ المجموعة الثالثة من الأسئلة معنيَّةٌ بآليات حشد العرب إلى أفغانستان. من هم أوائل المتحركين، وما الذي دفعهم للمشاركة؟ ما هي الشبكات والطرق والموارد التي كان المجّندون التالون يُستدخلون بها؟ وأخيرًا، وليس آخرًا، ماذا كان دور عزام بالضبط؟

وجد عزام نفسه، غالبًا بالصدفة، في العديد من الأماكن التي كان التاريخ يُصنع فيها في تلك الفترة. وقد نجح توماس هيغهامر في أن يكتب لنا سيرةً ضخمةً من ٨١٥ صفحة؛ عاد فيها لعشرات المصادر والكتب. قد نلخِّص

القصة بقلم توماس هيغهامر بقوله: «هذه أيضًا قصَّةٌ حقيقية أغرب من الخيال؛ إنها قصة فلسطيني سخَّر حياته للقتال في آسيا الوسطى، ومُزارعٍ أصبح مجنَّد حربٍ رحَّال، وبروفيسور أحب الحياة العسكرية. إنها رواية عن منظِّر راديكالي لم يصادق فعليًّا كل الإسلاميين البارزين في زمنه، وحسب؛ بل التقى كذلك أمراء، وعملاء في المخابرات الأمريكية، ونجم البوب كات ستيفنز. قصَّتُهُ ستأخذنا لأماكن لا نتوقعها؛ مثل كاليفورنيا، وجنوب إيطاليا، وفنزويلا، وستحملنا لشقق تحت الأرض، وقصورٍ باذخة، وكهوف مظلمة في أعماق الجبال. وستنتهي هذه القصة، حرفيًّا، بانفجار: اغتيال بقنبلة، ما زال أكبر جريمة غامضة بتاريخ الجهادية». يصف توماس الكتاب بأنه رحلة طويلة، تعلم بها الكثير؛ حتى إنه عرف رائحة المسك.

قائمة قراءة مقترَحة والمراجع

- **كل رجال الباشا**، خالد فهمي، دار الشروق.
- **مذكرات نوبار باشا**، نوبار باشا، دار الشروق.
- **اسمها تجربة**، أرسكين كالدويل، المدى.
- **مذكرات الآغا خان**، دار المدى.
- **المستشرق: في فض غموض حياة غريبة وخطيرة**، توم ريس، دار الجمل.
- **مذكرات برتراند راسل**، دار المعارف.
- **صور من الذاكرة**، برتراند راسل، بيت الياسمين.
- **بعث صدَّام: رؤية من داخل نظام استبدادي**، يوسف ساسون، الجمل.
- **ذكرى عهود: أشلاء سيرة ذاتية**، أحمد حسن الزيات، جمع عبد الرحمن قائد، دار آفاق المعرفة.
- **ذبابة في الحساء**، تشارلز سيميك، ترجمة إيمان مرسال، كتب خان.
- **الشاهد والمشهود، سيرة ومراجعات فكرية**، وليد سيف، الأهلية.
- **أنيس صايغ عن أنيس صايغ**، أنيس صايغ، رياض الريِّس.

- **لمحات من تجاربي الفكرية**، صلاح الدين المنجِّد، دار تراث.
- **مذكراتي على هامش القضية العربية**، أسعد داغر، المركز العربي للأبحاث.
- **جمال الدين الأفغاني: سيرة سياسية**، نيكي.ر. كيدي، ترجمة: معين الإمام ومجاب الإمام، منتدى العلاقات العربية والدولية.
- **حياة غير آمنة: جيل الأحلام والإخفاقات**، شفيق الغبرا، الساقي.
- **بيروت - برلين - بيروت**، كامل مروة، رياض الريِّس.
- **وثائق تجارة السلاح في الجزيرة العربية: قراءة في أرشيف زكي كِرام**، عمر رياض، دار الكتب والوثائق القومية.
- **الجندي السوري في ثلاث حروب**، جبرائيل إلياس، ورد، المطبعة التجارية السورية الأمريكية.
- **عباقرة النغم: حياتي بين الشعر والشعراء**، محمد سعيد محمدية، دار العودة.
- **السفير: من كابول إلى البيت الأبيض؛ رحلتي عبر عالم مضطرب**، زلماي خليل زاد، الدار العربية للعلوم ناشرون.
- **عشت مرتين**، حمدي قنديل، دار الشروق.
- **خيارات صعبة: مذكرات هيلاري كلينتون**، شركة المطبوعات.
- **كل يوم هو إضافة**، جون كيري، شركة المطبوعات.
- **القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية؛ الكتاب الثاني من**

مذكرات الموسيقي واصف جوهرية ١٩١٨-١٩٤٨، تحرير وتقديم: عصام نصار وسليم تماري، عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

- **ذكريات عمر أكله الحروف**، نجيب المانع، الانتشار العربي.
- **الفصول الأربعة: سيرة حياة**، معن زيادة، رياض الريِّس.
- **في سبيل الله والفوهرر؛ النازيون والإسلام في الحرب العالمية الثانية**، ديفيد معتدل، مدارات للأبحاث والنشر.
- **إقلاع وهبوط: سيرة طبيب من رأس بيروت**، منير شمَّاعة، رياض الريِّس.
- **مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب ١٩١٦-١٩١٨**، لويل توماس، كلمة للترجمة.
- **على بلد المحبوب: رحلة زمزم الأخيرة**، أحمد خير الدين، دار الشروق.
- **آخر الخوارج: أشياء من سيرة صحافية**، رياض نجيب الريِّس، دار رياض الريِّس.

الأُنسُ بالرَّاحِلين

أمسيـــات مع السِّيـــر الذاتيـــة

قضيتُ أمسيات مليئة بالحكايا والفوائد والفرائد والغرائب مع السِّير الذاتية، فأحببت أن أسجلها. ثم أحببت أن أدعوك أيها القارئ الكريم لتشاركني هذه الأمسيات، لعلنا نحظى بشيء من الأُنس بالراحلين. هذا الكتاب هو أوراقٌ من سيرتي كقارئ وحكايتي مع المذكرات. لقد عايشت هذه الشخصيات في غُربتي، وفررت من الواقع لعالم الخيال، مصغيًا لهذه التجارب، محاولًا أن أفهم التاريخ من خلال الدروس التي تقدمها هذه الكتب. لكن وراء ذلك غاية أخرى هي البحث عن دروس عملية تصلح لحياتي؛ كيف عاشوا وواجهوا صروف الحياة وأقدارهم. كانت هذه القراءات تقوّي عزمي وتشدّ من أزري، وتعلّمني الكثير عن التحمل والصبر. هي إطلالة على ما يقارب أربعين شخصية أرجو أن تكون إطلالة ماتعة مفيدة على عالم المذكرات والسِّير.

مدارات للأبحاث والنشر
٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة
جمهورية مصر العربية
(٢+)٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠/١/٢
info@madarat-rp.com
مدارات للأبحاث والنشر

تصميم الغلاف:
أحمد الصباغ

